
يصدرها
حلمى مراد
مطبوعات كتابى
الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية
القلعة!
أروع قصة إنسانية عصرية ظهرت فى القرن العشرين
للروائى الانجليزى الكبير: دكتور "ا. ج. كرونين"
THE CITADEL
الجزء الثانى

دكتور "ا. ج. كرونين"

القلعة!

الجزء الثانى



THE CITADEL
BY
DR. A. J. CRONIN

الثمن ١٢ قروش

روعى فى ترقيم صفحات هذا العدد ، ان يستطرد الترقيم من حيث انتهى فى العدد الأول .. فقد وقفت القصة فى ذلك العدد عند صفحة ١٧٦ ، وهى نستانف هنا فى صفحة ١٧٧ ، وذلك حتى يتسنى ضم الاجزاء بعضها الى بعض ، اذا اريد تجليد القصة بأكملها فى مجلد واحد .. وكل ما عليك هو ان تنزع الورقة الاخيرة من الجزء الأول ، والورقات الثلاث الأولى من هذا الجزء ..

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

مدير التحرير : محمد بدر الدين خليل

الكتاب السادس والاربعون

القلعـــة !

(الجزء الثـانى)

ترجمة : انطون العبيدى

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر حتى الآن ثلاثة وثمانون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد ، فى اول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الامينة لشوامخ الكتب العالمية ،

صدر منها خمسة وأربعون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد في منتصف كل شهر . وتطلب قائمة بأسمائها من الادارة .

الاشتراكات

◆ تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :

ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

◆ الاشتراكات عن ١٢ عددا ، من أى من المجموعتين :

فى مصر والسودان ١٢٠ قرشا . وفى العراق وسوريا ولبنان والأردن والمملكة السعودية : مايوازى ١٤٠ قرشا . وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وتركيا ودول أوربا والامريكتين : ١٦٠ قرشا ، خالصة أجر البريد المسجل

ولمن شاء أن ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، ان يدفع فرق الرسوم

◆ ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى أن يرسلوا القيمة بشيك على أحد بنوك القاهرة ، أو تحويلات مصرفية ، او كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بأن سعرها فى مصر ٣٧ مليما . ومن الممكن لمن فى السودان ان يرسل القيمة بحوالة بريدية

ملخص ما نشر فى الجزء الاول

• **حصل** « اندرو مانسون » – عندما اتم دراسة الطب – على منصب مساعد لطبيب اقعده المرض عن العمل ، فى بلدة (بلينيللى) التى كانت من مراكز التعدين فى أحد وديان (ساوث ويلز) المنعزلة بانجلترا .. **وسرعان ماتبين الطبيب الشاب ان ثمة فارقا بعيدا بين رسالة الطب الانسانيه ومهنة الطب كما تمارس عمليا ..** وهاله ان اكتشف ان الاطباء – فى البلدة الصغيرة – اتخذوا مهنتهم النبيلة تجارة ، وجروا فيها على « روتين » جامد ، لا اجتهاد فيه .. ولم يسر عنه اساه سوى« دينى» – وهو زميل شاب سبقه الى المهنة ، وكان يعمل مساعدا لطبيب آخر ، وقد اوشك اليأس ان يتملكه من الاوضاع السائدة – كما خففت عنه الضيق معلمة شابة فى مدرسة للأطفال ، تدعى « كريستين بارلو » .

ولكن احتمال « أندرو » بلغ أقصاه حين تبين ان « بلودوين بيدج » – زوجة رئيسه الطبيب المريض – كانت تستغل جهوده ، وتستأثر بأكبر قدر من دخل العيادة والمستوصف .. الى أن اتهمته بأنه كان يسرق رزق زوجها القعيد ، لمجرد انه تقبل هدية مالية من عميل كادت زوجته تفقد حياتها – وهى تضع المولود الذى كانا يتلهفان شوقا الى انجابه – فأنقذ « اندرو » بتفانيه حياة الزوجة والوليد .

وثار من أجل كرامته ، فاستقال من منصبه .. ولم يكن يملك شيئا ، فقد كان فقيرا ، وكان مدينا لاحدى المؤسسات الخيرية بنفقات تعليمه ، فكان يقتطع من مرتبه – فى كل شهر – جزءا يسد به بعض هذه النفقات . وأخذ يتتبع اعلانات المجلة الطبية بحثا عن منصب .. وارسل طلبات عديدة ، ولكنه لم يكن يتلقى ردا .. وعندما اوشك اليأس أن يستبد به ، أطلعه صديقه « دينى » على ان جمعية

الاسعاف الطبى فى (ابيرالو) — وهى من مراكز مناجم الفحم — كانت بحاجة الى طبيب مساعد ، فأسرع يتقدم لهذا المنصب ، واستطاع ان يفوز به على من كانوا يستندون الى الوساطات والمحسوبية ..

وكان من الشروط الجوهرية لمن يشغل هذا المنصب ان يكون متزوجا .. وبادر « اندرو » الى « كريستين » يطلب يدها ، وسرعان ماتزوجا .. **وفى اليوم الذى عقد زفافهما فى صبيحته ، رحلا الى (أبيرالو) ، وتسلم « أندرو » المنصب الجديد**

وكم صدم « اندرو » فى مثله العليا ، عندما تبين أن كبير أطباء الجمعية — « الدكتور ليرلين » — كان يشغل حوالى خمسة مناصب فى آن واحد ، وكان يتقاضى من مساعديه خمس دخلهم ، ضريبة استحلها لنفسه بزعم أنه كان يعنى بمرضاهم .. وزاد من أساه أن بقية زملائه كانوا يمنحون « الشهادات المرضية » جزافا للعمال الذين كانوا يريدون التحايل للحصول على اجازات او على مبالغ تعويضية من ادارة المناجم .. بل ان الاطباء كانوا يجعلون من أنفسهم مطايا لاعضاء مجلس ادارة الجمعية من العمال ..

وآلى « أندرو » على نفسه أن يعالج هذه الاوضاع ، فأخذ العمال ينفضون عنه ، وبدأت سماء حياته تكفهر بغيوم المتاعب .. وقال لزوجته ذات مساء : « لكم أخشى يا كريس ان أكدر صفوك .. ويعلم الله اننى أحاول الاحتفاظ بالهموم لنفسى .. » . وابتسمت زوجته تشجعه على أن يفضفض اليها بما كان يكربه ..

والآن .. واصل قراءة هذه القصة الجبارة

ـ أنت تعرفين المستشفى ، ياحبيبتى . تذكرين أنك زرته معى مساء اليوم الذى قدمنا فيه الى هنا .. وتذكرين الى أى حد أعجبت به ، وكم كنت طموحا الى أن اقوم فيه بأعمال جليلة . وقد فكرت فى كل هذا طويلا ، اليس كذلك ؟ كانت لدى فكرة رائعة عن مستشفانا الصغير فى (ابيرالو) ..

ـ أجل أعرف هذا جيدا .

ـ لقد كنت واهما ، على نحو مزر ! انه ليس مستشفى (أيرالو) بل مستشفى « ليولين » .

التزمت الصمت ، وبدا فى عينيهـــا القلق وهى تنتظـر ايضاحا :

ـ كان عندى فى هذا الصباح ، يا كريس ، مريض ـ **(وبدأ أندرو يتكلم كالمحموم فى سرعة خاطفة)** ـ ولتلاحظى اننى أقول « كان » عندى . كان المريض يشكو من التهاب فى أعلى الرئة ، وأهم من هذا أن المريض أحد عمال مناجم الفحم الحجرى .. وكثيرا ماقلت لك كم اهتم بحالة الرئة عند هؤلاء العمـــال ، فانى على يقين من أن هذا ميدان فسيح لابحاث هامة . كنت اذن أقول لنفسى : « هذا أول مرضاى للمستشفى . هـذه حالة طيبة تصلح لاخذ مذكرات والقيام بدراسة علمية » .. واتصلت تليفونيا بـ « ليولين » ورجوته أن يرى المريض معى حتى يمكننى ادخاله المستشفى ـ **(وتوقف ليبتلع أنفاسه ، ثم مضى يقول بكل سرعة :)** ـ ووصل ليولين فى سيارته ، وفحص المريض فحصا سطحيا . انه يحذق مهنته كل الحذق ، لاحظى هذا جيدا ، انه قطب من أقطاب الطب ، قطب حقيقى .. وقد وافق على تشخيصى بعد أن ذكر نقطة أو نقطتين فاتتانى ، وأقر تماما نقل المريض الى المستشفى على الفور .. فبدأت أشكره ، موضحا له مبلغ سعادتى لو ذهبت الى عنبر المرضى وأتيحت لى تسهيلات خاصة من أجل هذه الحالة ـ **(وهنا توقف أندرو ثانية ، كاظما غيظه)** ـ وهنا ، يا كريس ، نظر

« ليولين » الى مرة أخرى ، نظرة ملؤها الود والرقة ، وقال لى : « لا فائدة يا مانسون فى أن تتعب نفسك بالحضور . سأعنى بالمريض بنفسى منذ الآن .. اذ لايمكننا أن نقبلكم أنتم المساعدين الذين تثرثرون فى الحجرات ! - (**ونظر الى طماقى ، ثم استطرد :**) وتنتعلون أحذيتكم ذات المسامير الغليظة ! »

وأمسك أندرو عن الحديث ، وأطلق زفرة مختنقة .. ثم مضى يقول : « ولكن ، ماجدوى اعادة كل ماقاله لى ؟ ! الامر يتلخص فى هذا : فى وسعى الذهاب الى مطابخ عمال المناجم مرتديا لباس العمليات ، وفحص مرضاى على ضوء مصباح خافت ، ومعالجتهم فى أسوأ الظروف . أما المستشفى فلا يحتاجون الى فيه الا لممارسة التخدير ! »

وهنا قاطعه جرس التليفون ، فنظرت اليه كريستين حانية مشفقة ، ثم نهضت بعد لحظة لتلبى نداء التليفون . وسمعها تتكلم فى الردهة ، ثم عادت بادية الانزعاج الى حد ما ، وابتدرته : **« المتكلم هو الدكتور ليولين . انى .. انى جد آسفة ياحبيبى ، انه فى حاجة اليك غدا فى الحادية عشرة ، لتخدير ! »**

لم يجب أندرو ، وانما ظل مطرق الرأس بين قبضتيه ، فى يأس قاتل .. فسألته كريستين قلقة : « ماذا أقول له ، يا عزيزى ؟ »

فصاح بها : « قولى له : الى الشيطان ! » .. ثم مر بيده على جبينه ، واستطرد : « لا ، لا ، بل قولى له انى سأكون هناك فى الحادية عشرة . » .. وابتسم فى مرارة وهو يكرر : « فى الحادية عشرة تماما ! »

وحين عادت بعد انتهاء الحديث التليفونى أحضرت له قدحا من قهوة ساخنة جدا - وكانت هذه احدى وسائلها الفعالة التى تتوسل بها لتهدئة روعه فى أوقات انفعاله ! - ثم ابتسمت له وهو يشربه ، مداعبة .. فلم يلبث ان قال :



– انى فى غاية السعادة معك هنا ياكريس ، ولا يشوب هنائى سوى أن كل شىء يسير على خلاف ماأريد . أوه ! انى اعترف بأن ابعاد « ليولين » اياى عن غرف المستشفى لا ينطوى على قصد شخصى أو أى شىء غير مألوف . ان هذا يحدث فى لندن وفى كل مكان ، فى المستشفيات الكبرى . هذه هى القاعدة ! .. ولكن ، لماذا يتعين أن يكون الامر كذلك ؟ لماذا ، ياكريس ، ينتزعون هؤلاء المرضى من طبيب معين ، فور دخولهم المستشفى ؟ انه يفقد كل اتصال بهم ، كما لو كانوا قد ماتوا ! .. ولعل هذا ما تريده منظمتنا ، منظمة الاخصائيين اللعينة التى لا تصلح لشىء ، لشىء على الاطلاق ! .. ولكن ، يا لله ، لماذا ألقى عليك محاضرة فى هذه الامور .. كما لو كانت متاعبنا الشخصية غير كافية ؟ ! انى كلما فكرت فى الروح الذى بدأت به هنا ! ما الذى كنت آبى ان افعله اذ ذاك ؟ .. ولكن ، بدلا من هذا اذا بالامور تتتابع ، امر فى اثر آخر .. كل شىء يفلت من يدى !

بيد انه فى نهاية الاسبوع استقبل على غير انتظار زائرا فى ساعة متأخرة .. اذ فيما هو يهم بالصعود مع كريستين الى غرفتهما ، دق جرس الباب .. كان القادم « أووين » سكرتير اللجنة .. **فشحب وجه أندرو ! انه يلمح وراء هذه الزيارة شبح أسوأ حدث .. شبح كارثة تفيض بها كأس نضاله وفشله فى هذه الاشهر القليلة ! ترى أتريده اللجنة على**

أن يقدم استقالته ؟ أهو على وشك ان يفصل من مركزه ويطرد مع كريستين ، كانسان فاشل ؟ .. انقبض قلبه حينما ابصر وجه السكرتير النحيل . ثم انبسط فجأة فى ارتياح واغتباط حينما رأى أووين يخرج من جيبه بطاقة صفراء ، قائلا :

ــ أبادر بالاعتذار لك ، يادكتور مانسون ، عن قدومى فى مثل هذا الوقت المتأخر ، فلقد بقيت طويلا فى المكتب ولم أجد متسعا من الوقت لزيارتك قبل الآن فى مكتبك . وقد كنت أتساءل : هل تتفضل بقبول بطاقتى الطبية ؟ لعله من الغريب انى ، وأنا سكرتير اللجنة ، لم أهتم حتى الآن باتخاذ قرار فى هذا الامر ! .. وقد كانت آخر مرة استشرت فيها طبيبا حين كنت فى (كارديف) . أما الآن فاذا تفضلت بقبولى فسأكون سعيدا بقيد اسمى فى قائمة مرضاك .

ولم يقو أندرو على الكلام . كان قد رد كثيرا من هذه البطاقات الى أصحابها ، فلا غرو ان يحس الآن ، وهو يتسلم واحدة ، ومن السكرتير شخصيا ، بالانشراح يغمر كيانه !

ــ شكرا لك يا سيد أووين . ان هذا يسعدنى كثيرا .

وأسرعت كريستين ، التى كانت فى الردهة ، الى التدخل .. فابتدرته قائلة : « هلا تفضلت بالدخول يا سيد أووين ؟ تفضل ، أرجوك . » .. فاعتذر السكرتير ، بيد أنه تركهما ــ بصورة ما ــ يقنعانه بالدخول الى الصالون . وجلس على مقعد مريح ، وعيناه الى المدفأة ، مستغرقا فى تفكير عميق ، وهو بادى الهدوء بشكل يلفت النظر . ولم يكن فى لباسه أو فى لهجته ما يميزه عن أى عامل عادى ، فانه يبدو ورعا ، تنم كل قسمة من قسماته عن التقشف والزهد . وقد لاح ، لبضع لحظات ، كأنه يعد ما يريد أن يقول ، ثم بدأ يتحدث :

« انى أغبط نفسى يا دكتور على أن أتيحت لى فرصة التكلم معك . لا تدع للهزيمة طريقا الى نفسك اذا صادفتك بعض الصعاب فى البداية . ان القوم هنا غلاظ شيئا ما ، ولكنهم فى

الحقيقة طيبو القلب .. ولسوف يأتون اليك بعد حين ، سيأتون .. » . وقبل أن يعقب أندرو بكلمة ، استطرد يقول : « هل بلغك شيء عن « توم ايفانز » ؟ .. كلا على الارجح . اذن فاعلم ان ذلك الدواء الذى حذرته منه قد أحدث بالضبط الاثر الذى خشيته . ان مرفقه الآن ملتو تماما ولم يعد يمكنه استخدامه ، الامر الذى أفقده عمله فى المنجم . وبما انه أصيب وهو فى بيته فليس له حق فى اى تعويض ! » .

غمغم أندرو ببضع كلمات تعبر عن أسفه . انه لا يضمر ضغينة لايفانز ، وانما يشعر بالاسى اذ يرى حادثا بهذا القدر من التفاهة يؤدى فى غير ما ضرورة الى هذه النتيجة الاليمة . وصمت « أووين » مرة أخرى ، ثم طفق يقص عليهما بصوته الهادىء قصة صباه التعس : كيف انه عمل وهو فى الرابعة عشرة تحت الارض ، وكيف انتظم فى المدرسة المسائية ، فنجح رويدا رويدا ، وتعلم الاختزال والكتابة على الآلة الكاتبة ، ثم حصل فى النهاية على وظيفة سكرتير الشركة !

وكان أندرو يدرك أن « أووين » قد كرس حياته لتحسين حالة العمال . وانه يحب عمله فى الشركة لانه يتلاءم مع مثله الاعلى ومع الغرض النبيل الذى يستهدفه . لكنه كان يتطلع الى المزيد ، الى قدر أكبر من المساعدات الطبية . انه يريد مساكن وعناية أوفى بالصحة العامة ، وأحوالا أفضل وضمانات اوفر ، ليس لعمال المناجم وحدهم ، بل لعائلاتهم أيضا . وعزز حديثه باحصاءات عن نسبة الوفيات بين الامهات وزوجات العمال والاطفال . انه على علم تام بكافة الارقام وكافة الحوادث . على أنه لا يقنع بالكلام فحسب ، بل يستمع أيضا . وقد ابتسم حين روى له اندرو قصة مجرى الفضلات فى (بلينيللى) ابان وباء التيفود . وأبدى اهتماما بالغا بالرأى القائل بأن عمال مناجم الفحم أكثر تعرضا لامراض الرئة من

غيرهم من العمال الذين يعملون تحت الارض . وحفز وجود أووين أندرو على الاسترسال فى الحديث عن هذا الموضوع بحماس بالغ . كان قد أزعجه ـ أثر فحوص عديدة دائبة ـ ارتفاع نسبة عمال مناجم الفحم الذين يصابون بأنواع مستترة من أمراض الرئة . فان الكثيرين من عمال مناجم الفحم الذين كانوا يجيئون اليه فى بلينيللى شاكين من سعال أو من بعض (البلغم) فى القصبة الهوائية ، كانوا فى الحقيقة فى بدء الاصابة ـ وربما فى عنفوان الاصابة ـ بالسل الرئوى .. وهو هنا يجد الآن نفس الحالات .. وخلص من هذا الى التساؤل عما اذا لم تكن هناك صلة مباشرة بين العمل والمرض . ثم صاح منفعلا أشد الانفعال :

ـ أنت تدرك ماذا أعنى . ان هؤلاء الرجال يعملون طوال النهار فى الغبار ، فى غبار ضار يتصاعد من تفجير الاحجار الصلبة فيؤذى رئاتهم . لقد كونت رأيى الآن : أن هذا أمر فتاك . ان الاصابات بين عمال التفجير الذين يستنشقون من هذا الغبار كمية أكبر ، هى على ما يبدو أكثر منها بين العمال الذين يستنشقون منه كمية أقل ، كعمال دفع عربات الاحجار مثلا ، قد أكون مخطئا فى تفكيرى .. ولكنى لا أحسبنى مخطئا . والذى يحملنى على الاندفاع فى هذا السبيل هو ـ وأقولها دون أن أخشى شيئا ـ ان احدا لم يجر ابحاثا فى هذه الناحية . ان قائمة وزارة العمل لا تشير الى مرض متميز من هذا القبيل . وعندما يلزم هؤلاء العمال الفراش لا يصرف لهم بنس واحد كتعويض !

واستأثر هذا الحديث باهتمام أووين ، فمال الى أمام وقد عرا وجهه الشاحب انفعال شديد ، وهتف : « يا لرحمة السماء يا دكتور ، انك تفسر لى أمورا ! منذ زمن بعيد لم أسمع كلاما فى مثل هذه الاهمية ! »

وراحا يناقشان هذه المشكلة فى حماس بالغ ، وكان الوقت

متأخرا حينما نهض السكرتير للانصراف ، معتذرا عن أنه بقى وقتا طويلا .. لكنه كان قد حفز أندرو من صميم قلبه على مواصلة أبحاثه ، ووعده بأن يكون فى عونه بقدر ما يسعه العون .

وحينما أغلق الباب الخارجى خلف أووين ، كان قد ترك فى نفس مضيفيه أثرا حارا لاخلاصه ووفائه . وقال أندرو لنفسه ، كما قال فى اجتماع اللجنة حينما ابلغه اووين نبأ تعيينه : « هذا الرجل صديقى ! »

— ٧ —

• ذاع فى الحى نبأ ايداع السكرتير بطاقته لدى أندرو ، فساعد ذلك — بعض الشىء — على الحد من أعراض الجمهور عن الطبيب الجديد !

والواقع ان تلك الزيارة ، بصرف النظر عن هذا النفع المادى ، جلبت خيرا لاندرو ، ولكريستين معه .. فانهما كانا حتى الآن قد بقيا على هامش الحياة الاجتماعية فى (ابيرالو) . كانت كريستين — وان لم تنطق بالشكوى فى أى وقت — تعانى أثناء غياب أندرو فى جولاته الطويلة ، لحظات تحس فيها بعزلة خانقة . وكانت زوجات كبار موظفى الشركة من الغطرسة بحيث يستنكفن ان يعقدن صلات مع زوجات الاطباء المساعدين ! أما مسز ليولين التى كانت قد وعدت كريستين بالود الدائم ، وبرحلات ترفيهية قصيرة بالسيارة الى (كارديف) ، فصارت تمر لتترك بطاقتها حين تكون كريستين قد برحت الدار .. ثم لم تعد هذه تسمع عنها شيئا ! ومن جهة أخرى ، لم تكن زوجتا الدكتورين « ميدلى » و« اكسبورو » — طبيبى العيادة الشرقية — تتمتعان بقدر كاف من الجاذبية .. فقد كانت أولاهما امرأة ذابلة ، يذكرك مرآها بأرنب أبيض .. وكانت الاخرى امرأة متعصبة تظل ساعة كاملة — كما تشهد بذلك ساعة الحائط المستعملة المشتراة من (الريجنسى) —

تثرثر عن البعثات التبشيرية فى افريقيا الغربية ! .. **وهكذا لم تكن هناك أية وجهة نظر مشتركة أو أية صلات اجتماعية يمكن انماؤها مع الاطباء المساعدين أو زوجاتهم المتواضعات ، بل « المظلومات » فى هذه المدينة !**

وفيما كان اندرو ، ذات أصيل من ديسمبر ، عائداً الى (فيل فيو) من الطريق الخلفى المحاذى للتل ، رأى شابا فى مثل سنه يتقدم فى اتجاهه .. كان رجلا طويل القامة نحيل الجسم ، سرعان ما تبين انه « ريتشارد فوجان » . وكان اول خاطر خطر له أن ينحرف جانبا ليتجنب لقاءه ، لكنه لم يلبث أن قال لنفسه مستنكراً : « لماذا أهرب منه ؟ انه لا يعنينى فى قليل أو كثير ! » .. ورد بصره متأهبا لمقابلة « فوجان » ، واذا به يسمعه — فى دهشة بالغة — يناديه باسمه ، ثم يردف قائلا : « هالو ، انك أنت بالتأكيد الذى قرر قدرة « بين تشينكن » على العمل ؟ » .. فتوقف أندرو ورفع عينيه فى حذر ، كما لو كان يريد أن يقول : « ثم ماذا ؟ .. اننى لم أفعل ذلك من أجلك ! » .. ورغم انه أجابه فى أدب ملحوظ ، فانه حدث نفسه بأنه لن يدع أحداً يتحكم فيه ، ولو كان ابن « أدوين فوجان » ! .. وكانت أسرة « فوجان » هى صاحبة شركة (ابيرالو) التى تقبض ايرادات جميع الآبار ، وهى أسرة ذات ثراء عريض ، قليلة الاختلاط بالناس .. والآن وقد تقاعد عميدها « أدوين » فى دار بالقرب من (بريكون) ، فقد تولى ابنه الوحيد «ريتشارد» ادارة الشركة . وكان ريتشارد قد تزوج منذ قليل ، وشيد داراً حديثة هى أعلى الدور فى المدينة !

وحينما أبصر أندرو ، عبث بشاربه الدقيق ، ثم قال : « لكم كان يسليني أن أرى وجه «بين» العجوز ! »

— انى لم أر فيه شيئا يبعث على التسلية !

.. وازاء هذا الصلف الاسكتلندى البحت ، بدا على

ريتشارد تجهم حاول اخفاءه ، فقال مغمغما : « لقد أصبحت أقرب جار لنا .. والآن وقد استقر مقامك ، فان زوجتى ، التى كانت منذ حين فى سويسرا ، سوف تذهب لزيارة زوجتك . »

فقال أندرو فى لهجة جافة : « أشكرك . » .. ثم واصل سيره !

وأثناء تناول الشاى عصرا ، روى لكريستين ما حدث ، فى سخرية لاذعة .. وأردف : « **قولى لى بربك ، ما قصده ؟ لقد رأيته يصادف « ليولين » فى الشارع فلا يلقاه بأكثر من ايماءة بالرأس . ربما تصور أنه بهذا المسلك يغرينى بتقرير قدرة المزيد من العمال على العمل فى مناجمه اللعينة ! »**

فاحتجت كريستين : « هذه نقيصة من نقائصك ، انك تسىء الظن بالناس ، تسىء الظن بشكل شنيع ! »

ــ أعرف تماما أنى أسيىء الظن به ، هذا الدعى المتكالب على المال الذى يضع ربطة عنق قديمة تحت ذقنه البغيض .. وكأنى به يقول : « ان زوجتى ، التى كانت تتنقل فى ربوع الالب بينما كنت أنت تسير فى أوحال (ماردى) ، ستذهب لزيارة زوجتك ! » .. أوه ! أجل يا حبيبتى ، انى أراها منذ الآن ــ بخيالى ــ تزورنا .. اذا اعتزمت هذا حقيقة ! ــ **(واحتدت لهجته فجأة)** ــ احذرى أن تستعلى عليك !

فأجابت « كريس » بلهجة جافة لم يعهدها فيها خلال هذه الاشهر الاولى ، أشهر الحنان والعطف : « أحسب انى أعرف ماذا ينبغى لى أن أفعل ! »

ولكن حدس أندرو لم يصدق ، فقد جاءت مسز فوجان لزيارة كريستين ، فمكثت معها وقتا أطول مما تسمح به آداب الزيارة المرعية ! .. وعندما عاد اندرو فى ذلك المساء ، الفى زوجته منشرحة الصدر ، وقد تبدل لونها قليلا وبدا عليها بشكل واضح تماما انها استمتعت بوقت طيب .. وأجابت

باقتضاب على اسئلته الساخرة ، بيد أنها اعترفت بأنها قضت ساعات طابت لها كثيرا .. فقال زوجها مستهزئا : « لابد انك أخرجت فضية الاسرة : أجمل الاقداح والاكواب المذهبة !! .. آه ، ولعلك جلبت حلوى من محل (بارى) ! »

فقالت فى رصانة : « كلا .. كان عندنا خبز وزبد، وابريق الشاى الخزفى القمحى ! » . فتساءل فى سخرية : « وهل استطابت ذلك ؟ » . وكان جوابها : « أرجو ذلك » .

وخامر أندرو شعور غريب بعد هذا الحديث ، انفعال ماكان ليستطيع تحليله لو انه أراد . حتى اذا اتصلت به مسز فوجان تليفونيا ـ بعد عشرة أيام ـ فدعته وزوجته للعشاء ، بهت وذهل .. وكانت زوجه فى المطبخ تصنع فطيرة ، ومن ثم فقد كان هو الذى لبى نداء التليفون ، فلم يتمالك ان اجاب : « آسف .. اخشى الا يكون هذا فى مقدورنا ، فاننى أستمر فى الكشف على المرضى الى حوالى التاسعة من كل مساء » . فقالت مسز فوجان : « ولكنك لا تفعل هذا يوم الاحد ، بالتأكيد ! » . وكان صوتها رقيقا عذبا ، وهى تستطرد : « وعلى هذا فنحن فى انتظاركما مساء الاحد .. اتفقنا ! »

وهرول الى المطبخ ، صائحا فى كريستين : « ان صديقيك المتنفخين المستعلين يدعواننا الى العشاء .. ولكنا لانستطيع الذهاب .. بل انى على يقين من أننى سأشغل بعملية توليد فى مساء الاحد ! » . فقالت تحاضره فى صرامة ، رغم ان عينيها لمعتا عند سماعها نبأ الدعوة ! .. **الا اصغ الى يا اندرو مانسون .. يجب أن تقلع عن الغباء ! .. اننا فقيران ، وكل امرىء يعرف ذلك . وأنت ترتدى ملابس رثة ، وأنا أطهى الطعام ، ولكن هذا لا يغير من الامر شيئا ، فأنت طبيب ، وطبيب من خيرة الاطباء ، وانا زوجك ! »** .. وهدأ روعها لحظة ، ثم

أردفت : « اتصغى الى ؟ .. قد يدهشك أن تعلم اننى أحتفظ ــ فى اعتزاز ــ بعقد زواجى ، فى خزانة ملابسى ! .. ولقد أوتى الزوجان فوجان مالا كثيرا ، ولكن لا ضير فى هذا اذا تذكرنا ماهما عليه من رقة الجانب ولطف المعاشرة والذكاء . اننا هنا فى أبهى سعادة ياحبيبى ، غير أنه لابد لنا من أصدقاء ، فلماذا لانعقد أواصر الود مع هذين ، مادامـا راغبين فى ودنا ؟ .. ليس لك أن تخجل من الفقر ، ولا تفكر فى المال ، او المركز ، أو أى شىء ، بل رض نفسك على أن تأخذ النـاس على حقيقتهم ! » . فغمغم وهو كاره : « أوه .. حسنا ! »

* * *

وذهب ــ فى يوم الاحد ــ دون أن يبدى اعتراضا ، بل كان هادئا ، وادعا . ولم يكد يجشم نفسه عناء فتح شفتيه ــ وهما يعبران الدرب الممهد بمحاذاة ملعب جديد للتنس ــ ليقول : « احسبهما لن يسمحا لنا بالدخول ، عندما يريان اننى لم أرتد لباس السهرة ! » .. **ولكنهما استقبلا بكل حفاوة ، على عكس ماتوقع** . فقد ابتسم لهمـا وجه فوجان القبيح ، البادى العظام ، وهو يرج قنينة من الفضة رجا عنيفا ، لسبب لم يحفل بذكره . أما مسز فوجان ، فقد استقبلتهما فى بساطة وبغير ماكلفة اطلاقا . وكان هناك مدعوان آخران ، هما البروفيسور « تشاليس » وزوجه ، اللذان كانا يقضيان نهاية الاسبوع فى ضيافة آل فوجان .

وبينما كان أندرو يشرب أول كأس تذوقها فى حياته من الكوكتيل ، راح يتأمل القاعة المستطيلة ــ ذات البساط الاشقر ــ بأزهارها ، وكتبها ، وأثاثها القديم ذى الرونق العجيب . **وأخذت كريستين تتحدث فى اغتباط تام مع فوجان ، وزوجته ، ومسز تشاليس ، وكانت امرأة مسنة ــ بعض الشىء ــ ذات ثنايا ضاحكة حول عينيها !** .. واحس اندرو بأنه فى عزلة ،



وبأنه محط الابصار ، فاقترب من تشاليس ، الذى كان يبدو مهيبا بلحيته المرسلة البيضاء ـ وان بدأت الخمر تلعب برأسه ، وهـو يحتسى قدحه الثالثة ـ واذ ذاك قال له الكهل مبتسما : « هل لطبيب شاب ان يقوم ببحث عن سر وضع زيتونة فى كأس نبيذ « المارتينى » ؟ .. لا تتعجل ، فانى انذرك مقدما بأن لدى بعض الحدس .. ولـكن ، مارأيك انت يادكتور ؟ » . فغمغم أندرو متلعثما : « لست .. لست أدرى تماما ! » . وهنا اشفق عليه تشاليس ، فبادر قائلا : « اليك نظريتى ! .. انها مؤامرة من اصحـاب الحـانات ، ومن عديمى الـكرم كصديقنا فوجان .. انه استغلال لقـاعدة ارشميـدس ! » وغمز بعينه وهو يستطرد قائلا : **« انهم يأملون أن يقتصدوا فى مقدار « الجن » ، اذ يضعون الزيتونة فى الكأس ، فتحل محل بعض الشراب ! »**

ولم يستطع أندرو ـ لشدة ارتباكه ـ أن يبتسم .. لم يكن قد خبر بعد الحياة الاجتماعية ، ولا دخل دارا فخمـة من قبل . فلم يكن يدرى ماذا يفعل بقدحه الفارغة ، ولا برماد سيجارته ، ولا ... ولا بيديه ، فى الواقع ! .. واغتبط عندما انتقلوا الى المائدة ، على أنه أحس بالارتباك هنا ايضا .. وكان العشاء بسيطا ، ولكنه تسلسل بنظام بديع : حساء ساخن ، يتلوه لحم الدجاج مع خضر طازجة كلهـا من قلوب الخس

الناصعة البياض ، التى اضيفت اليها مواد غريبة النكهة ! وكان أندرو بجانب مسز فوجان ، فقالت له : « أن زوجتك فاتنة يادكتور مانسون ! » . وكانت ربة الدار امـرأة طويلة القامة ، نحيلة الجسم ، رقيقة الجانب الى درجة واضحة . ولم تكن على أى نصيب من الجمال ، بيد ان عينيها كانتا واسعتين، يشع منهما الذكاء ، وتوحيان بطمأنينة يرتاح اليها المرء . وكان فمها على شيء من الاعوجاج ، يشيع فى شفتيها حيوية تنم عن حضور بديهة . وقد شرعت تكلم اندرو عن مهنته ، قائلة ان زوجها سمع الناس يتحدثون عن المهارة التى أبداها فى مناسبات عدة .. وراحت تحاول جـاهدة ــ فى رقة ــ أن تستدرجه الى الكلام ، فسألته باهتمام عما يراه لتحسـين ممارسة الفن الطبى فى المنطقة. وهنا قال بارتباك ؛ وقداهتزت ملعقته فأراقت بعض الحساء : « الواقع .. لسـت ادرى تماما . احسبنى .. أود ان أرى مزيدا من الاساليب العلمية مطبقا ! »

وشعر بأنه كان عييا ، جافا فى الحديث فى موضوعه المفضل، الذى كان يفتن كريستين ساعات كاملة بحديثه فيه . ولهذا ظل منكس العينين نحو طبقه ، الى أن أخذت مسز فوجان تتحدث مع تشاليس جارها الآخر ، فأحس بارتياح .. وكان هذا الرجل ــ الذى عرف أندرو بعد قليل انه أستاذ للتعدين فى (كارديف) ، ومحاضر فى هذه المواد عينها بجامعة لنـدن ، وعضو فى مجلس العمل فى المناجم ــ محدثا مرحا لامعا .. كان يتكلم بكل جسمه : بيديه وبلحيته ، مناقشـا ، ضاحكا ، صاخبا .. وكان يفعل كل هذا وهو ماض فى التهام كميـات كبيرة من الطعام والشراب ، كسائق قطار يغذى النار فى انهماك ليزداد البخار الذى يدفع قاطرته . بيد أن حديثه كان ممتعا، يلقى من الجميع تقديرا . ومع هذا ، فقد أبى أندرو على نفسه الاعتراف بقيمته ، واستمع اليه ــ وهو كاره ــ اذ راح يتحدث

فى الموسيقى عن صفات « باخ » ، ثم ينتقل ـ بوثبة بعيدة المدى ـ الى الادب الروسى .. وراح أندرو يصر على اسنانه وهو يسمع اسماء تولستوى ، وتشيكوف ، وتورجينيف ، وبوشكين . وقال فى نفسه مغيظا : « هراء .. هراء فارغ ! ماذا يحسب نفسه هذا الكهل الشبيه بكلب البحر ؟ .. وددت لو أراه يجرى جراحة ـ مثلا ـ فى أحد مطابخ شارع (سيفن) القذرة .. انه اذ ذاك جدير بأن ينسى بوشكينه ! »

أما كريستين فكانت ـ على العكس ـ بادية السرور . ولاحت من اندرو التفاتة الى الجانب الآخر ، فرآها تبتسم لتشاليس وتشترك فى المناقشة .. ولم تكن متكلفة ، بل بدت طبيعية تماما . وقد نوهت بمجلس ادارة مدرستها الكائنة فى شارع البنك . ودهش اندرو اذ رآها تجادل « البروفيسور » ، **ولاحظ كيف كانت تبدى حججها بسرعة واعتداد ، فبدأ يرى زوجته ـ لاول مرة ـ بمنظار جديد كل الجدة ..** وبدا له انها على معرفة عميقة بتلك الحشرات الروسية . وحينما داعب تشاليس ـ فيما بعد ـ يد كريستين ، مؤمنا على كلامها ، قال أندرو فى نفسه : « الا يستطيع هذا الكاهن البوذى أن يبقى ساكنا ؟ .. أليست له زوجة ؟ » . وفطن ـ مرة او اثنتين ـ الى ان عينى كريستين كانتا تبعثان اليه بومضات ودية فى سرعة البرق ، كما انها حولت مجرى الحديث اليه عدة مرات . وقالت فى احدى هذه المرات : « ان زوجى يهتم ـ يا سيدى البروفيسور ـ بعمال مناجم الفحم ، وقد بدأ سلسلة من الابحاث عن أثر الغبار الذى يستنشقونه » . فنظر تشاليس الى مانسون فى عطف ، وقال : « آه ، أجل ! » .

وهنا التفتت كريستين الى اندرو تشجعه قائلة : « اليس كذلك ، يا حبيبى ؟ .. لقد شرحت لى هذا طويلا ، ذات ليلة » . فغمغم أندرو : « آه ، لست أدرى .. ربما لم يكن بحثا جديا ، فليست لدى بعض البيانات الكافية .. بل الراجح أن هذا

النوع من السل لاينشأ عن الغبار » .

ولا بد أنه حنق على نفسه ، اذ كان من المحتمل أن يستطيع تشاليس مساعدته . ومع انه لم يكن من المستساغ أن يطلب هو معونته ، الا أن عضويته لمجلس العمل بالمناجم ، كانت تتيح له ـ دون شك ـ فرصة ذهبية .

ولسبب لم يدرك كنهه ، تحول غضبه الى كريستين . فلما اتخذا طريقهما الى « فيل فيو » فى نهاية السهرة ـ سيرا على الاقدام ـ لاذ بالصمت ، وقد برحت به الغيرة ، وسبقها الى غرفتهما دون أن يفوه بكلمة واحـدة . وكان من عـادته ان يحدثها عن أعماله فى النهار ، وهو يخلع ملابسه ، وقد تدلت « حمالة » بنطلونه ، وأمسك بيده فرشاة اسنانه . غيرَ أنه تعمد الليلة أن يحول عنها نظره فى اصرار . حتى اذا قالت كريستين : « لقد قضينا وقتا ممتعا ، اليس كذلك ياحبيبى؟ »، أجاب فى أدب : « آه حقا .. وقت ممتع ! » .. واذ اضطجعا فى سريرهما ، حرص على أن يتخذ مكانه على حافة المضجع ، بعيدا عنها ، وراح يصعد غطيطا مسموعا كلما أحس بحركة تحاول بها الاقتراب منه .

* * *

وظل التوتر مخيما فى الصباح التالى ، فذهب الى عمله وهو مكتئب ، مشتت البال ، على غير طبيعته . . وفيما كانا يتناولان الشاي ـ حوالى الساعة الخامسة ـ دق جرس الباب ، واذا الطارق سائق أسرة « فوجان » ، وقد حمل بعض الكتب وباقة كبيرة من أزهار الخريف . وقال وهو يبتسم : « هذه من مسز فوجان ، يا سيدتى » . ورفع قبعته وانصرف .

وعادت كريستين الى « الصالون » مثقلة الذراعين ، مشرقة الوجه .. وصاحت فى غبطة : « أنظر ياحبيبى ، أليس هذا بديعا جدا ؟ ! .. ان مسـز فوجان تعيرنى جميـع مؤلفات « ترولوب » التى كنت دائما اتوق الى قراءتها .. وهـذه

الازهار ما أبدعها ! » . فغمغم وهو ينهض : « بديعة جدا ! .. كتب وأزهار من سيدةالقصر ؟!.. أحسب ان هذا هو مايلزمك لتحتملى الحياة معى ، فأنا كئيب فى عينيك .. لست من هؤلاء المحدثين المتعين الذين أعجبت بهم أمس كثيرا فيما يبـدو . فأنا لا أعرف من الروسية حتى اسمها ، ولسـت الا طبيبـا مساعدا تافها ! » .. ففاض اللون من وجهها تماما ، وهتفت : « اندرو ، كيف .. ؟ »

ـ هذا صحيح ، أليس كذلك ؟ لقد أحسست به أثناء ذلك العشاء اللعين ، فلقد أوتيت عينين فى رأسي .. انك سئمتنى ، فلست اصلح الا للسير فى الطرق الموحلة ، ورفع الاغطيـة القذرةعن المرضى ، وصيد البراغيث . اننى ثقيل الظل عليك !

وبدت عيناها شديدتى السواد ، فى وجههـا الشـاحب ، وامتلأتا شفقة ، بيد انها قالتفىهدوء : « كيف تتكلمهكذا ؟.. انما احببتك لذاتك ، ولما أنت عليه ، ولن أحب أحدا سواك » . فقال ساخرا وهو يصفق الباب خلفه ، بعنف : « هكذا يبـدو لى حقا ! » . وظل خمس دقائق غاضبا ، يذرع المطبخ وهـو يعض على شفتيه . ثم استدار فجأة وهرول الى الصالون ، حيث كانت كريستين واقفة تحملق فى المدفأة ، وقد أحنت رأسها فى يأس . وهتف فى ندم حار : « كريس ، ياحبيبتى!.. ياحبيبتى ، لكم أنا آسف .. سامحينى بحق السماء ، فاننى لم أعن كلمة واحدة مما قلت . لست الا غيورا مجنونا . اننى أعبدك ! » .

وتشبث كل منهما بالآخر بشدة . وكان عبير الازهار يعطر جو الغرفة . وقالت وهى تنتحب : « الا تعرف اننى بدونك أموت ؟ » . واذ جلست بعد ذلك ، وقد لامس خـدها خد أندرو ، قال هذا فى خجل وهو يتناول أحد الكتب : « ترى من يكون ترولوب هذا ، هلا حدثتنى عنه يا حبيبتى ؟ .. ما أنا الا جاهل بائس ! »

- ٨ -

• **وانقضى** الشتاء .. وازداد اندرو تحمسا لبحثه الخاص بتسرب الغبار الى الرئتين مع الهواء .. ذلك البحث الذى بدأه بتنظيم ومواصلة فحوص دقيقة راح يجريها على جميع عمال مناجم الفحم المقيدين فى قائمته . واصبحت امسياته مع كريستين اسعد واهنأ من ذى قبل . فقد كانت تساعده فى اعادة كتابة مذكراته ـ حينما يؤوب متأخرا من العيادة ـ وهى تعمل أمام موقد عامر بالفحم . فقد كان من ميزات المنطقة توفر الوقود عندهما بثمن زهيد . وكثيرا ماكانت تجرى بينهما أحاديث طويلة ، **تدهشه فيها بسعة مداركها وتنوع اطلاعها ، وان لم تكن تتعمد ابداء ذلك .. فضلا عن انه بدأ يكتشف عندها ذكاء فطريا والهاما كأنا يمكنانها من أن تبدى احكاما سليمة فى الادب ، والموسيقى ، وفى الاشخاص بوجه خاص !**

وكان يقول لها مداعبا : « عجبا ! .. هاأنذا قد بدأت اعرف زوجتى ، الآن فقط .. اذا كنت قد تعبت ، فلنسترح نصف ساعة ، وسأغلبك فى لعب الورق ! » .. وكانا قد تعلما لعبة « البيكيت » عند أسرة فوجان .

واذ بدأ النهار يزداد طولا ، شرعت كريستين تعمل فى اصلاح الحديقة المهملة ، دون أن تقول لاندرو شيئا عن ذلك . وكان لوالد جينى عم اعتادت الفتاة أن تعتز بقرابته ، وكان عاملا مسنا متقاعدا من عمال المناجم . وقد أصبح يتردد على كريستين ليساعدها ، لقاء عشرة بنسات . وقد وجدهما مانسون ـ وهو يعبر القنطرة المتهدمة ، فى عصر يوم من أيام شهر مارس ـ يقومان بحملة على العلب الصفيحية الفارغة القديمة ، التى كانت متناثرة حول مجرى الجدول . فصاح بهما : « ماذا تفعلان ؟ .. هل تزعجان السمك حتى لا أجد ما أصيده ؟ » .

فأجابت كريستين على دعابته بايماءة فيها اصرار ، وقالت : « انتظر تر ! »

وان هى الا أسابيع قلائل حتى كانت قد اجتثت الاعشاب الضارة ، ونظفت دروب الحديقة ، وطهرت حوض الجدول وهذبت شاطئيه .. واصبحت فى طرف الحديقة الاقصى « جبلاية » حديثة من صخور وضع بعضها الى جوار بعض.. **وظل بستانى أسرة فوجان يكثر من التردد ، جالبا أبصالا و « شتلات » ، وموجها ارشاداته ، حتى جاء صباح أمسكت كريستين فيه بذراع أندرو ، وقادته ليرى بواكير النرجس ، وهى فى نشوة الفوز .**



وفى يوم الاحد الاخير من شهر مارس ، أقبل « دينى » لزيارتهما على غير انتظار ، فاستقبلاه بترحاب ، وأثقلاه بالحفاوة . وشعر مانسون بفرحة غامرة لرؤيته تلك القامة القصيرة ، وهذا الوجه الاحمر .. وأرياه كل شىء ، وقدما له خير ما وسعهما أن يقدماه من طعام ، وأجلساه على أنعم مقعد عندهما ، ثم سألاه متعطشين عما لديه من أنباء . فقال فيليب : « لقد فارقنا « بيدج » .. أجل ، مات المسكين منذ شهر . اصابته صدمة ثانية . لقد كان الموت خيرا له ! » . وجذب انفاسا من غليونه ، ثم غمز بعينه فى سخريته المألوفة،

وقال : « ويبدو ان أرملته « بلودوين » وصديقكما « ريس » قررا أن يتزوجا ! » . **فقال أندرو فى مرارة قلما كان يبديها : « زواج ذهبى منذ بدايته .. مسكين بيدج ! »** . وعقب دينى : « لقد كان بيدج رجلا طيب الخصال ، وطبيبا بارعا فى الطب العام . أنتما تعرفان اننى افزع من مجرد نطق هاتين الكلمتين ، ومن كل ما تعبران عنه . بيد أن بيدج كان يحتمل ذلك بغير ألم ! »

وساد صمت اتجهت خلاله افكارهم الى ادوارد بيدج ، الذى ظل يتوق الى (كابرى) وشمسها وطيورها ، وهو دائب على العمل بين أكداس النفايات فى (بلينيللى) ، طيلة سنى عمره البغيضة . وأخيرا تساءل أندرو : « وانت يادينى كيف حالك الآن ؟ »

ــ أوه ! لا ادرى تماما .. اننى الآن قلق ..

وابتسم فى مرارة ، وهو يردف قائلا : « لقد تغيرت بلينيللى منذ غادرتماها . أحسب انى ذاهب فى رحلة بحرية الى مكان ما .. كطبيب سفينة ، اذا قبلت سفينة بائسة خدماتى ! » . ولم يجب اندرو بكلمة . فلكم كان يؤلمه التفكير فى أن هذا الرجل الذكى ، هذا الجراح البارع « فيليب دينى » ، كان يربك حياته بنفسه ، بنوع من البوهيمية الارادية . ومع هذا ، فهل تراه كان يربكها حقيقة ؟ .. كثيرا ما تكلما ــ هو وكريستين ــ عن فيليب ، محاولين حل هذا اللغز .. كانا يعرفان ــ بطريقة مبهمة ــ أنه كان قد تزوج من امرأة تفوقه فى المركز الاجتماعى ، **وان هذه الزوجة حاولت ترويضه على العمل فى مقاطعة ما . وما كان للعمليات التى يجريها هناك خلال أربعة أيام من الاسبوع ، أى أثر فى اعلاء شأنه ، مالم يتفرغ فى الايام الثلاثة الاخرى للصيد مع علية القوم !**

وبعد خمس سنوات من جهد دائب ، من ناحية دينى ، كافأته الزوجة بأن تركته فى هدوء ، الى رجل آخر ! .. فلا عجب

اذا اعتزل دينى المجتمع ، وهام على وجهه فى الغابات ، وقد أصبح يزدرى العهود والمواثيق ، ويكره الفضائل والمثل العليا .. ولعله يعود يوما الى المدن وأضوائها !

وظلوا يتجاذبون أطراف الحديث طيلة الوقت ، فلم يرحل فيليب الا فى آخر قطار ، وقد أثار ماقاله له أندرو عن تنظيم المهنة فى (أبيرالو) اهتمامه الى حد كبير . وعندما ذكر له صاحبه كيف أن « ليولين » يقتطع لنفسه جانبا من أتعاب الاطباء المساعدين ، قال فى ابتسامة صفراء : « أعتقد أنك لن تحتمل هذا طويلا ! » . وما ان انصرف « فيليب » ، حتى بدأ « أندرو » يشعر رويدا — وعلى مر الايام — ان ثمة فراغا .. ثغرة غريبة فى عمله ! .. لقد كان يشعر فى (بلينيللى) — وفيليب الى جانبه — بوجود رابط مشترك بينهما .. **كانا يستهدفان غرضا واحدا . اما فى (أبيرالو) ، فان هذا يعوزه ، فهو لايحس عند زميل من زملائه بهذه الارادة التى تلتقى مع ارادته ..**

لقد كان الدكتور « أوركهارت » — زميله فى العيادة الغربية — رجلا لطيفا رغم حدة مزاجه . غير انه كان طاعنا فى السن ، يميل الى التواكل فى عمله ، ولا نصيب له من الالمعية . وصحيح أنه كان ذا خبرة طويلة تمكنه — على حد تعبيره — من أن يشم رائحة الالتهاب الرئوى فور ولوجه غرفة المريض ، وصحيح كذلك أنه كان موفقا فى علاج الكسور وأعمال التجبيس ووضع الجبائر ، الا أنه — فى نواح كثيرة — كان عاجزا بدرجة مثيرة . فكان أندرو يتمثل فيه بجلاء ، النموذج المثالى لطبيب الاسرة الكهل ، على حد تعبير « دينى » .. **أجل ، فقد كان على قدر من الذكاء والنشاط والتجربة والقدرة على التأثير فى مرضاه وفى عامة الناس .. ولكنه لم يفتح كتابا منذ عشرين عاما ، فأوشك تأخره أن يصبح خطرا !**
.. ومع ان اندرو كان على استعداد دائما لفتح باب المناقشات

معه ، الا ان الرجل ــ الطاعن فى السن ــ لم يكن يفسح وقتا ما للكلام فى المهنة . فكان يبادر ــ بمجرد أن يفرغ من عمله اليومى ــ الى تناول حسائه المحفوظ ، (وكان حساء الطماطم هو المفضل لديه) ، ثم يبدأ فى صقل كمانه الجديد بورق « الصنفرة » ، ويستعرض أوانيه الخزفية ، ثم يهرول الى النادى الماسونى حيث يدخن ويلعب الشطرنج .

أما الطبيبان المساعدان ــ فى العيادة الشرقية ــ فكانا بعيدين عن قلب أندرو : كان أكبرهما ــ الدكتور ميدلى ــ يناهز الخمسين من عمره ، ذا وجه يشع منه الذكاء وينضح بالحساسية ، ولكنه ــ للأسف ــ كان أصم . **وكان من المحتمل أن يغدو شارل ميدلى شخصا غير مجرد طبيب مساعد فى منطقة المناجم ، لولا هذه العاهة ، التى يراها العامة مثارا للسخرية دائما ، دون ما مبرر !** .. فلقد كان كأندرو ، طبيبا بمعنى الكلمة ، يشخص المرض فى دقة ملحوظة . غير انه لم يكن يسمع كلمة واحدة مما يقوله مرضاه . ولاشك انه كان يفهم مريضه من خلال حركة شفتيه ، ولكنه كان شديد الخجل ، لانه كثيرا مايقع فى أخطاء مضحكة . وكان من المؤلم حقا أن ترى نظراته المكتئبة الحائرة ، وهو يركز بصره على شفتى محدثه فى نوع من التساؤل والوجل . ولخوفه من أن يرتكب خطأ جسيما ، كان لايأمر لمريض الا بأقل الجرعات من أى دواء .. **فضلا عن انه لم يكن ناعم البال . فان أسرته الوفيرة العدد ، كانت تسبب له كثيرا من الهموم ، وتبهظه بالنفقات .** وكما ذبلت زوجته ، فانه أصبح خابى الرواء ، جديرا بالاشفاق .. وكان يعيش فى ذعر من الدكتور ليولين ومن اللجنة ، خشية أن يفصل فجأة من عمله !

أما المساعد الآخر ــ الدكتور اكسبورو ــ فكان يختلف كثيرا عن ميدلى المسكين ، وكان أبعد منه عن قلب أندرو . كان شابا بدينا ، متهدل الجسم ، غليظ الاصابع ، يهتز كل

جسمه اذا ضحك . وكثيرا مابدا لاندرو أنه يستطيع ـ بمزيد قليل من الحيوية ـ ان يحترف تجليد الكتب بنجاح ! وكيفما يكن الامر ، فان اكسبورو كان يذهب بصحبة زوجته ، التى تعزف على « الاكورديون » ، الى مدينة (فيرنلى) المجاورة ـ فى أصيل يوم الاحد من كل أسبوع ـ لانه لم يكن مما يليق بزوجته أن تعزف فى (ابيرالو) .. وهناك ـ فى ميدان السوق ـ كان يقيم منصة صغيرة ، يغطيها بساط ، ويعقد اجتماعا دينيا . فلقد كان اكسبورو أنجيليا . وكان من المحتمل ان يعجب اندرو ـ وهو المؤمن بالمثل السامية ، وبأن هناك قوة عليا تهيمن على العالم وتدبر شئونه ـ بهذه التقوى . **بيد أن اكسبورو كان ـ للأسف الشديد ـ مشبوب العواطف الى الحد الاقصى . فكان ينخرط فى البكاء على غير انتظار ، ويصلى فى ظروف أبعد من أن تتطلب الصلاة .** وقد كان ذات يوم يشرف على ولادة عسرة ، واذا به يجثو بغتة على ركبتيه أمام سرير المرأة ، وينهمك فى التمتمة بأدعيات الى الله أن يصنع معجزة مع هذه المرأة المسكينة !.. وكان اوركهارت ـ الذى يكره اكسبورو ـ هو الذى روى هذه الواقعة لاندرو ، اذ كان هو الذى أسرع واعتلى المضجع بحذائيه ، ونجح بادواته الجراحية فى انقاذ المريضة !

وكان أندرو كلما أمعن فى تأمل زملائه والظروف التى يعملون فيها ، تزايدت عنده الرغبة فى التقريب بينهم .. فما كانت ثمة رابطة تجمع بينهم ، ولا أى شعور بالتعاون .. وكانت الصداقة بينهم فاترة كل الفتور . بل انهم كانوا متنافرين ، كما يفعل التنافس بأبناء كل مهنة ، فكان كل منهم يسعى لان يكفل لنفسه أكبر عدد ممكن من المرضى . وكثيرا ماأدى ذلك الى شكوك حادة وشعور بالعداء . من ذلك أن أندرو رأى ـ ذات يوم ـ « اوركهارت » يأخذ من أحد مرضى « اكسبورو » زجاجة دواء لم يبق فيها غير نصفها ، فيفتحها

ويشمها باشمئزاز ، ثم ينفجر قائلا : « أهذا ما أعطاك اكسبورو ؟ ! ليأخذه الشيطان .. لقد سممك ببطء ! »

وبينما يجرى هذا ، كان الدكتور « ليولين » ماضيا ــ فى هدوء ــ يقتطع حصته من المرتب الشهرى لكل مساعد . ولكم كان أندرو يتألم لهذه الحال ، ويتوق الى نظام أفضل ، والى توطيد تفاهم أقوى ، يتيح للمساعدين أن يتعاونوا ويتساندوا ، ويعفيهم من ضريبة « ليولين » ! .. غير أن متاعبه الشخصية ، وشعوره بأنه آخر من جاء ــ فضلا عن الاخطاء التى ارتكبها فى مستهل حياته العملية فى منطقته ــ كانت تدعوه لان يتريث ويتبصر . ولم يصح عزمه على القيام بمحاولته الكبرى الا بعد أن تعرف ب « كون بولاند » .

ــ ٩ ــ

• **اكتشف** أندرو ذات يوم ــ فى أوائل ابريل ــ ثقبا فى أحد أضراسه الداخلية ، فذهب عصر أحد أيام الاسبوع التالى الى طبيب أسنان الشركة ، ليعرض الامر عليه . ولم يكن قد رأى « بولاند » من قبل ، ولذلك فانه لم يكن يعرف مواعيد عمله . **واذ وصل الى الميدان الذى تقع فيه عيادة « بولاند » المتواضعة ، وجد الباب مغلقا ، وقد ثبت اليه الاعلان التالى بالمداد الاحمر : « خرج لخلع ضرس .. فى الحالات العاجلة ، اتصل بالمنزل »** .. وفكر أندرو لحظة ، ثم رأى أنه مادام الطبيب قد خرج من العيادة ، ففى وسعه ان يذهب اليه فى منزله .. فسأل غلاما كان يتسكع بالقرب من بائع ثلج ــ فى المنطقة ــ عن موقع منزل طبيب الاسنان ، حتى اذا عرفه ، اتجه نحوه . وكان عبارة عن « فيلا » صغيرة منعزلة شيئا ما ، عند الطرف الشرقى للمدينة . وسمع أندرو ــ وهو يصعد الطريق القذر المؤدى الى مدخل الدار ــ صوت ضربات مطرقة ، فنظر ، واذا باب حظيرة

خشبية خربة – الى جوار المنزل – مفتوح على مصراعيه ، وقد بدا خلاله رجل طويل القامة ، قوى البنية ، احمر الشعر ، قد شمر عن ساعديه ، وراح يهوى بمطرقة على سيارة مفككة ..

وفى اللحظة ذاتها ، أبصر الرجل أندرو ، فقال له محييا : « هالو ! » . ورد أندرو فى تؤدة : « هالو ! » .. وعاد الرجل يسأله : « ماذا تريد ؟ »

– أريد موعدا من طبيب الاسنان . أنا الدكتور مانسون .

فأجاب الرجل وهو يلوح بمطرقته : «تفضل بالدخول !» ..

كان هو الدكتور بولاند نفسه .. ودلف أندرو الى الحظيرة الخشبية التى كانت قد انتثرت فوق ارضها اطلال سيارة قديمة ، يتوسطها « الشاسيه » وقد استقر فوق صناديق خشبية ، وبدا واضحا أنه كان مشطورا الى جزئين .. فحول أندرو عينيه عن هذا المنظر الى بولاند ، قائلا له : **« أهذا هو خلع الضرس الذى تركت العيادة من أجله ؟ »** . فقال «كون» موافقا : « اجل ، فعندما أضجر من عيادتى أهرع الى «جراجى» لاعمل قليلا فى سيارتى ! »

وكان – بصرف النظر عن نبراته الغليظة كل الغلظة – يستعمل كلمة « جراج » للدلالة على هذه الحظيرة الخشبية المتهدمة ، وكلمة « السيارة » للتعبير عن هذه المركبة المحطمة ، التى يستعملها فى زهو عظيم . ثم أردف قائلا : « لن تتصور مقدار سعادتى بما أفعله فى هذه الآونة ، الا اذا كنت قد اوتيت مزاجا ميكانيكيا . فانى املك هذه السيارة الصغيرة منذ خمسة أعوام ، وكان عمرها عندما اشتريتها ثلاثة .. **قد لا تصدق هذا وانت تراها فى هذه الحال . ولكنها – مع ذلك – سريعة سرعة الارنب الجبلى . على أنها يامانسون صغيرة بالنسبة لحجم عائلتى فى الوقت الراهن** . ولذلك أخذت فى تكبيرها كما ترى ، اذ شققتها فى النصف تماما وسأضع لها وصلة طولها

قدمان أو أكثر قليلا .. انتظر يامانسون حتى تراها وقد انتهى العمل فيها !» . ثم استطرد وهو يتناول سترته قائلا : « لسوف تستطيل بحيث تتسع لكتيبة من الجند . والآن هيا الى عيادتى لاعالج ضرسك » .

ولم تكن العيادة تقل عن « الجراج » فوضى وقذارة . وأقبل « كون » يحشو الضرس فى عجلة وخشونة مؤلمة ، وخصلات شعره القمحية – وهو ينحنى ليدس الحشو الذى عجنه بأصابعه الغليظة – تطرف عينى أندرو . ولم يكلف نفسه عناء غسل يديه ، اذ لم يكن لذلك قيمة فى نظره ! .. وهكذا كان شابا طيب القلب ، مهملا ، مستهترا ، كريما . **وأخذ أندرو – كلما اوغل فى معرفته – يزداد افتتانا بمسلكه وبساطته وقوة شكيمته وعدم مبالاته** . ولم يكن « بولاند » قد ادخر بنسا واحدا فى السنوات الست التى قضاها فى (ابيرالو) ، اذ كان يقبل على متع الحياة فى نهم ، وكان مشغوفا بالميكانيكا ، ولا يني يصنع الدمى الصغيرة . وكان يكاد يجن بسيارته . كان امتلاكه سيارة ، أمرا تافها فى حد ذاته . غير أنه كان يعبد السيارات ، ولو كان ضحية لها ! .. وقد روى لاندرو ماحدث له ذات يوم ، اذ ذهب لخلع ضرس تالف لاحد أعضاء اللجنة ، وكان يحسب ان أداة الخلع فى جيبه . **غير أنه فطن – أثناء عملية الخلع – الى أنه كان يحاول تناول الضرس بمفتاح انجليزى !!**



وبعد أن فرغ من حشو الضرس ، ألقى بأدواته فى علبة خزفية مليئة بالليزول .. وهذا هو التطهير كما كان يفهمه فى بساطته وقلة اكتراثه ! .. ثم دعا أندرو لتناول الشاى معه ، قائلا فى الحاح : « هيا معى فلابد من ان تتعرف الى اسرتى ، والوقت الآن ملائم لذلك . انها الخامسة مساء » .. وكانت الاسرة تتأهب لتناول الشاى فعلا ، عندما وصلا . وبدا انهم كانوا قد ألفوا نزوات عميدهم ، الى حد انهم لم يبدوا أى انزعاج حين رأوا بصحبته غريبا . وكانت مدام بولاند تجلس الى طرف المائدة فى الغرفة الحارة الجو ، غير المرتبة ، وهى ترضع طفلها . وما لبثت أن أقبلت الابنة « مارى » ، وكانت فى الخامسة عشرة من عمرها ، هادئة ، خجولا ، ذات شعر أسود ، على النقيض من أفراد الاسرة الآخرين ، وكان أبوها يدعوها « شوشو » !

هكذا قدم « كون » أفراد أسرته لاندرو ، فسرعان ماعرف أن مارى كانت — رغم سنها — تحصل على مرتب لا بأس به ، كمستخدمة لدى « جو لاركنز » مجلد الكتب بالمنطقة . وتليها « تيرانس » — التى كانت فى الثانية عشرة من عمرها — ثم يعقبهما ثلاثة اطفال راحوا يركضون فى الحجرة ويصيحون ليستلفتوا نظر أبيهم اليهم .. **والواقع ان جوا من المرح المشوب بالاستهتار كان يلف الجميع ، أللهم الا « مارى » فقد كانت خجولا ، جادة !**

وكانت الغرفة كلها تعج بصخب شديد . وفى أعلى المدفأة ، كانت ثمة صورة بالالوان للبابا بيوس العاشر ، مزينة بسعف عيد الفصح .. وتحتها نشرت أقماط الرضيع لتجف . وعلى « البوفيه » وضع قفص « الكناريا » الذى لم يبد نظيفا ، ولكنه كان يعج بتغريد الطير ، والى جانبه مشد — « كورسيه » — مسز بولاند ، وكانت قد خلعته تحررا من ضغطه ! .. وعلى المدفأة ، كان ثمة كيس مخروق ، به بسكويت رفيع .. أما

خزانة الثياب (البورو) ، فكانت تحمل ست زجاجات من البيرة القوية - وصلت لتوها من لدى البدال - والى جوارها قيثارة « تيرانس » .. وفى أحد الاركان، تكدست لعب محطمة، وأحذية قديمة ، وزلاجات للعب على الجليد يعلوها الصدأ ، ومظلة يابانية ، وكتاب للصلاة فى حالة رثة ، وعدة صور فوتوغرافية !

على أن أكثر ما فتن اندرو ، وهو يتناول الشاى ، كان شخصية مسز بولاند ، حتى انه لم يستطع ان يكف عن النظر اليها .. كانت شاحبة الوجه ، حالمة ، رصينة . وقد ظلت صامتة ، تجرع أقداحا من الشاى الثقيل - دون انقطاع - بينما راح الاطفال يتشاجرون من حولها ، والرضيع يتزود بالغذاء من ثديها المغداق ! .. **وكانت تبتسم ، وتومىء برأسها، وتقطع الحلوى للاطفال، وتصب الشاى ، وتشرب ، وترضع..** كانت تفعل كل هذا بطريقة آلية ، وكأنها غائبة عن ذاتها ، أو كأن أعواما من الضجيج ، والقذارة ، والتفاهة ، وغرابة أطوار « كون » ، قد نقلتها آخر الامر الى عالم من خبل ناعم هادىء ، كانت تطوى فيه نفسها .. وكاد أندرو أن يقلب قدحه عندما خاطبته معتذرة بصوت عذب ، قائلة : « كنت اعتزم أن أزور مسز مانسون يادكتور ، ولكنى شغلت .. » . فانفجر « كون » يقول ضاحكا : « باسم الله ! .. لقد شغلت حقا ! .. لم يكن لديها ثوب جديد .. هذا ماتعنيه ! كنت قد أدخرت المبلغ اللازم ، غير أن « تيرانس » - أو شخص آخر - احتاج الى حذاء .. لا عليك يا ماما ، انتظرى حتى تكبر السيارة ، وسأقلك فى أبهة ! » .. ثم وجه الخطاب الى أندرو فى لهجة طبيعية قائلا : **« ان دخلنا لايكاد يكفينا يامانسون .. ياللشيطان ! .. اننا قد نحصل على قوت وفير ، ولكننا نستغنى أحيانا عن بعض اللوازم .. فان أعضاء اللجنة شحيحون ، كما ان الرئيس الاعلى يتقاضى حصته ! »**

فسأله أندرو فى دهشة : « من ؟ » . فأجاب : « ليولين !.. انه يأخذ منى خمس دخلى .. تماما كما يأخذ منك ! » . وهنا هتف اندرو : « ولكن .. بأى حق ؟ »

ـ أوه ! انه يفحص ـ من آن لآخر ـ مريضا أو اثنين من مرضاى .. لقد أجرى جراحتين ـ خلال السنوات الست الاخيرة ـ لمريضين من مرضاى ، احتاجا الى استئصال اورام فى اللثة . وهو اخصائى أشعة « اكس » التى قد نحتاج اليها أحيانا .. ولكنه انسان قذر !

وكان الاطفال قد ذهبوا ليلعبوا فى المطبخ ، فأصبح فى استطاعة « كون » أن يتكلم بصراحة ، فاسترسل قائلا : « قبحا له ولصالونه الكبير ! .. ان المكان كله ملىء بالنقوش الزيتية ! .. **دعنى أروى لك يامانسون اننى كنت ذات يوم أصعد شاطىء (ماردى) خلفه فى سيارتى الصغيرة ، وبدا لى أن اضاعف السرعة .. آه ، ليتك رأيت وجهه حينما لفه غبارى ! »**

فقال مانسون بجد : « اصغ الى يابولاند . ان هذا الاقتطاع الذى يستبيحه ليولين على اتعابنا ضريبة مثيرة .. لماذا لانحتج ؟ » . فهتف الآخر : « نحتج ؟ ! » .. فردد « اندرو » السؤال بصوت مرتفع ، واستطرد قائلا : « **لماذا لانحتج ؟ .. انه لظلم صارخ ، فنحن لا نكاد نوفر عيشنا .. اسمع يا بولاند ، انك نفس الرجل الذى كنت أتوق الى لقياه ..** أتريد مساندتى فى هذه المسألة ؟ .. سندعو المساعدين الآخرين ، ونبذل جهدا موحدا .. » . ولمعت عينا «كون» شيئا فشيئا ، ثم قال فى لهجة متشددة : « **مانسون ! .. سنعمل معا ياصديقى ! »**

* * *

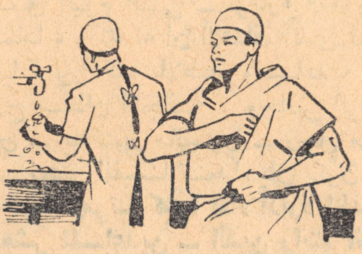
وسارع اندرو عائدا الى « كريستين » وهو مفعم بالحماس ، متعطش للنزال ، وبادرها صائحا : «كريس ، كريس .. لقد

وجدت رجلا فذا ، طبيب أسنان ذا شعر أحمر .. انه مجنون حقا .. أجل ، مثلى ! .. اعرف أنك كنت على وشك أن تقوليها .. ولكن ، اسمعى ياحبيبتى ، لسوف نقوم بثورة ! » .. وضحك بانفعال شديد ، وهو يردف : « يالله ! .. لو أن ليولين الكهل ادرك مايحاك له ! »

ولم يكن « مانسون » فى حاجة الى ان تنصحه زوجته بالحذر ، اذ كان قد صمم على المضى فى حيطة وتكتم . ومن ثم فانه بدأ — فى اليوم التالى — بزيارة « أووين » . فأبدى السكرتير اهتماما ، وأكد له أن الاتفاق الذى تحدث عنه كان اتفاقا اختياريا ، بين كبير الاطباء ومساعديه . ومن ثم فان الامر كله خارج سلطان اللجنة . وخلص الى القول : « ان الدكتور ليولين — يادكتور مانسون — رجل ماهر جدا ، عظيم الكفاءة ، ونحن نعتبر انفسنا سعداء بأن يكون بيننا . **على انه يتقاضى من الجمعية مرتبا كبيرا لقاء ادارة الخدمات الصحية ، وانتم — يا معشر المساعدين — الذين رأيتم انه جدير بقسط من دخلكم !** » .. فقال اندرو فى نفسه : « حقا ! .. نحن ! »

وانصرف راضيا ، فاتصل تليفونيا باكسبورو وميدلى ، وحملهما على الموافقة على الحضور الى داره فى المساء . وكان أوركهارت وبولاند قد سبقاهما فى الوعد بالحضور . ولقد ادرك « اندرو » — من أحاديث سابقة — أن اربعتهم كانوا فى أشد الحنق لفقدانهم خمس أتعابهم ، فرأى انه اذا جمعهم معا فى صعيد واحد ، أصبح الامر مفروغا منه .. وكانت الخطوة التالية — التى ينبغى اتخاذها — هى مفاتحة « ليولين » نفسه فى الامر . فقد رأى اندرو — بعد تفكير — ان من الخسة الا يطلعه مقدما على مقاصده .. وذهب — فى عصر ذلك اليوم — الى المستشفى لتخدير مريض كان ليولين يجرى له جراحة طويلة معقدة لاستئصال ورم فى البطن . ولم يتمالك نفسه من الاعجاب به وهو يرقبه . كان ماقاله أووين صحيحا ، **فان ليولين**

كان فذا فى مهارته ، وفى مرونته كذلك. كان هو الاستثناء. أو الحالة الفذة التى تثبت القاعدة ، كما اعتاد « دينى » أن يعبر.
ولم يكن ثمة مايربكه أو يغلبه على أمره .. فمن الشؤون الادارية المتصلة بالصحة العامة - والتى كان يعرف عن ظهر قلب أدق قواعدها - الى كل طرائق التصوير بالاشعة ، التى كان يتقنها .. كل هذه المجموعة من المهام المتعددة ، كان ليولين ينهض بها فى استعداد وخبرة وابتسام !



وبعد أن انتهت الجراحة ، وأخذ ليولين يغسل يديه ، اقترب منه أندرو - وهو يخلع مرولته - قائلا : « اسمح لى يادكتور ليولين أن أقول لك .. اننى لم أستطع ان أغفل الطريقة البارعة التى استأصلت بها الورم ! » . فسرى الدم فى بشرة ليولين المربدة ، دليلا على ارتياحه ، واشرقت اساريره قليلا ، وقال : « يسعدنى أن يكون هذا شعورك . وبهذه المناسبة ، انك تتقدم تقدما حثيثا فى التخدير ! » .. فتمتم اندرو قائلا : « لا ، لا .. ما اراني سأبرع يوما فى ذلك ! »

وساد الصمت ، بينما واصل ليولين غسل يديه بالصابون فى هدوء . ثم سعل أندرو ليجلو حلقه . فلقد ألفى نفسه - وقد دنت لحظة الكلام - عاجزا عن أن ينبس ببنت شفة . بيد أنه نجح أخيرا فى أن ينطق ببضع كلمات : « أرجو أن تستمع الى يادكتور ليولين . من الصواب أن أقول لك ... أننا جميعا

ـ معشر المساعدين ـ نرى أنه كثير علينا أن ندفع لك نسبة مئوية من دخلنا . انه أمر يشق قوله ، غير انى .. سأقترح الغاء ذلك . وسنجتمع الليلة فى دارى ، وقد آثرت أن تعرف هذا قبل حدوثه ، وليس بعده .. اننى اود ان تشعر ـ على الاقل ـ بأننى أمين ، شريف ، لا أخادع ! »

وقبل أن يتمكن ليولين من الاجابة ، استدار أندرو ـ دون أن ينظر فى وجهه ـ وخرج .. **لكم أساء القول ، بيد أنه قال ما بنفسه ، على أية حال . ولن يستطيع ليولين ـ عندمايتلقى انذار المساعدين ـ ان يتهمه بأنه طعنه من خلف !**

وكانت الساعةالتاسعة هى موعد الاجتماع فى (فيل فيو) .. وأخرج أندرو زجاجات « البيرة » ، ورجا كريستين أن تعد بعض الشطائر ، فلما فعلت ، ارتدت معطفها وبرحت الدار ، لتقضى ساعة عند أسرة فوجان . وراح اندرو ـ وقد امضه الانتظار ـ يذرع الردهة طولا وعرضا ، جاهدا أن يجمع شتات أفكاره . وما لبث الآخرون ان وصلوا : جاء بولاند أولا ، ثم اوركهارت ، ثم ـ أخيرا ـ اكسبورو وميدلى معا . وحرص أندرو على أن يشيع بينهم جوا وديا ، وهو يصب لهم الجعة ويقدم الشطائر . واذ كان يحس بنوع من الجفاء نحو اكسبورو ، فقد وجه الخطاب اليه أولا : « تفضل يااكسبورو ، ان عندى مزيدا من البيرة ! »

ـ شكرا يامانسون .. انا لا أشرب الخمر فى أى شكل كانت ، فهى ضد مبادئى .

فصاح «كون» وقد امتلأ شاربه بزبد البيرة : «ياللسماء!» . ولم يكن هذا من حسن الاستهلال فى شىء . وراح ميدلى ـ وهو يأكل الشطائر ـ يرقب الحضور ، ووجهه يشى بقلق الاصم . أما اوركهارت فقد بدأت الخمر تثير طبيعته الجانحة الى الشر ، فركز بصره على اكسبورو بضع دقائق ، ثم قال محتدا فجأة : « أما وأنا فى صحبتك يادكتور اكسبورو ، فهل

تتفضل فتفسر لى كيف نقل تيودور ايفانز - ١٧ (تيراس جلين) - اسمه من قائمتى الى قائمتك ؟ »
- لست اذكر الظرف الذى حدث فيه هذا .
- ولكنى اعرفه .. انه أحد المرضى الذين سرقتهم منى يادكتورى المبجل .. واكثر من هذا ..
وهنا صاح أندرو وقد جن جنونه : « ارجوكم ياسادة ، ارجوكم ! .. كيف يمكننا الوصول الى شىء اذا كنا نتشاجر فيما بيننا . اذكروا الغرض الذى اجتمعنا من أجله ! » .
فسأله « اكسبورو » فى تراخ نسوى : « ولماذا نحن هنا ؟ .. كان على أن أعود مريضا الآن ! » . ووقف اندرو امام المدفأة بادي الصرامة وصدق العزيمة ، ثم لخص الموقف المحفوف بالمزالق ، قائلا : « اليكم جلية الامر ياسادة ! » . وتنفس ملء رئتيه ، ثم استطرد : « اننى أصغركم جميعا ، كما اننى حديث العهد بالمهنة . بيد أننى آمل ان تغضوا الطرف عن كل هذا . **ولعل حداثة عهدى بينكم هى التى تجعلنى أنظر غير نظرتكم الى الامور .. الامور التى ارتضيتموها زمنا طويلا ! ..** يبدو لى - أولا - أن جهازنا هنا فى حالة يرثى لها ، فان كل مانفعله هو اننا نسير فى عملنا متفككين ، غير مترابطين ، وكأننا ثلة من الاطباء العاديين فى قرية او بلدة ، يناهض كل منا الآخر ، ولسنا أعضاء جمعية طبية واحدة ، لديهم فرص رائعة للعمل متكاتفين .. ما من طبيب قابلته الا واقسم ان ممارسة المهنة ازرى من حياة الكلاب ! .. وانه ليستطيع ان يروى لكم مدى ارهاق العمل ، اذ يجرى طيلة يومه على قدميه ، دون أن ينعم بدقيقة يخلو فيها الى نفسه ، ولا بوقت لتناول الطعام ، بل انه دائما يلبى دعوات المرضى ! .. فما سبب ذلك ؟ .. انه راجع الى انه ما من محاولة تبذل لتنظيم مهنتنا . اليكم مثلا واحدا لما أعنى ، وفى وسعى أن أسرد لكم عشرات الامثلة : الاستدعاء ليلا ! .. فأنتم تعرفون أننا جميعا نأوى الى فراشنا

مساء ، ونحن نخشى دائما أن نوقظ لنستدعى لعيادة خارجية . كم من ليال أفسدناها على أنفسنا لاننا قد نستدعى لعيادة مريض . فلماذا لايعرف كل منا ــ مقدما ــ انه لن يوقظ فى ليلته ؟ .. لم لا نضع ــ كبداية ــ نظاما تعاونيا للعيادات الليلية ، فيتكفل طبيب واحد بكل العيادات الليلية لمدة أسبوع ، ثم يعفى بقية الشهر منها ، ليتناوبها الآخرون ؟ .. الا يكون هذا رائعا ؟ .. تصوروا مدى الانتعاش الذى تكونون عليه حين تستقبلون عملكم اليومى فى الصباح .. » . وامسك عن الحديث ، اذ لم ير شيئا من التحمس على وجوههم . وما لبث أوركهارت ان قال فى حدة : « هذا لايصلح . ياللشيطان ! اننى لاوثر الاستيقاظ فى كل ليلة على أن أكل احد مرضاى الى اكسبورو المعمر ! .. ها ، ها ! انه اذا استعار واحدا لايرده ! » . فصاح أندرو محموما : « اذن ، دعونا من هذا ، ولنرجئه الى اجتماع آخر ، مادمنا غير متفقين بصدده .. ولكن هناك نقطة أخرى نحن مجمعون عليها ، ومن أجل هذا اجتمعنا هنا ، واعنى الاتاوة المئوية التى ندفعها ليوابن ! » . وسكت برهة ، فاذا بهم جميعا يركزون انظارهم عليه فى اهتمام . فقد كان الموضوع يمس جيوبهم ! .. واستطرد يقول : « لقد اعترفنا جميعا بأن هذا ظلم ، وقد تكلمت فيه مع أووين ، فاذا به يقول ان لا شأن للجنة بهذا ، وانها مسألة أبرمت بين الاطباء ! » .

وهنا قال أوركهارت : « هذا صحيح ، فانى أذكر يوم تقرر هذا .. منذ تسع سنوات تقريبا . وكان لدينا ــ فى ذلك الوقت ــ طبيبان بائسان كمساعدين ، أحدهما فى العيادة الشرقية ، والثانى معى . فكانا يكبدان ليولين عناء شديدا من أجل مرضاهما .. ولهذا جمعنا ليولين ــ ذات يوم ــ ليعلن لنا أنه ماكان ليستطيع ان يمضى على هذا النحو ، وانه يتعين أن نتفاهم معه . هكذا بدأت المسألة وهكذا سارت ! »

ـ ولكن المرتب الذى يتقاضاه من اللجنة ، يشمل كل عمله فى الجمعية ، فضلا عن أنه يحصل على أتعاب سخية من الوظائف الاخرى التى يشغلها .. انه يتمرغ فى الذهب !

فقال اوركهارت وكأنه يأخذه بالحيلة : « اعرف هذا ، اعرفه .. لكن خذ حذرك يامانسون ، فان ليولين ـ بالذات ـ عظيم النفع لنا ، وهو يعرف هذا . ولو شاء أن يعاملنا بخشونة لاتعبنا كثيرا ! » . فقال اندرو ، دون ان ينثنى : « ما الذى يدعونا الى أن ندفع له ؟ » . وهنا صاح « كون » ، وهو يملأ قدحه : « أحسنت ، احسنت ! » . فرمق أكسبورو طبيب الاسنان ، ثم قال : « اذا سمح لى بكلمة ، فاننى من رأى الدكتور مانسون .. فمن الظلم أن يقتطع جزء من أتعابنا . ولكن الحق أن الدكتور ليولين رجل ذو مكانة رفيعة ، ومؤهلات عالية ، وهو فخر للجمعية . ثم انه يضحى بأعماله الخاصة ليتولى عنا الحالات السيئة ! »

وحدجه أندرو بنظرة ، وقال : « اتحب ان تنفض يديك من الحالات السيئة ؟ » . فقال اكسبورو فى مشاكسة : « بالطبع ، ومن الذى لايتمنى هذا ؟ » . **فصاح اندرو : « أنا ! .. اننى أحب الاحتفاظ بها وتتبعها الى النهاية ! »** . ولكن ميدلى قال : « ان اكسبورو محق ، فهذه اولى قواعد ممارسة الطب كمهنة . ولسوف تتحقق من هذا عندما تتقدم بك السن يامانسون ! .. تخلص من الحالات السيئة ، تخلص منها ، تخلص ! » . وعارضه اندرو فى حرارة . واستطال النقاش ثلاثة أرباع الساعة ، وهم يدورون فى حلقة مفرغة . وفى النهاية ، قال أندرو عفوا : « لابد من تسوية هذا الامر ، أتسمعوننى ؟ .. لابد لنا من ذلك ، فان ليولين يعلم اننا سنناقشه الحساب ، فقد اخبرته بهذا عصر اليوم ! »

وصاح اكسبورو واوركهارت وميدلى بصوت واحد : « ماذا ؟ » .. وهم اكسبورو بالنهوض من مكانه ، وقد ثبت

بصره على أندرو ، وقال : « أتقصد يادكتور انك قلت للدكتور ليولين .. ؟ » . فصاح أندرو : « أجل ، وبالتأكيد . كان من حقه ان يعرف قبل أن نقطع الاتاوة بفترة . فهلا ترون ان ليس علينا الا ان نتكاتف ، وان نقف صفا واحدا ، فنضمن النصر ؟ » . وقال أوركهارت ، وهو شاحب الوجه : « ياللعنة! .. ان لك لاعصابا قوية يادكتور ! .. كأنك لاتعرف ما لليولين من نفوذ . ان له يدا فى كل شيء ، وسنكون محظوظين اذا لم نطرد جميعنا . تصور لحظة اننى قد اضطر — وأنا فى هذه السن — الى البحث عن مرتزق آخر ! » . **ثم اتجه نحو الباب بخطى ثقيلة ، وهو يقول : « انك زميل طيب يامانسون ، ولكنك لاتزال فى مقتبل العمر .. طابت ليلتك ! »**

وكان ميدلى قد عجل بالنهوض ، وبدا من عينيه أنه كان يتعجل الانصراف ليتصل بالدكتور ليولين تليفونيا فيقول له — بمثابة الاعتذار — انه (اى ليولين) طبيب رائع ، وانه (اى ميدلى) يؤيده كل التأييد !.. وتبعه اكسبورو ، **وبعد دقيقتين لم يكن فى الحجرة سوى « كون » ، وأندرو ، و .. وما تبقى من البيرة** . فأتيا على هذه البقية فى صمت . ثم تذكر أندرو أنه مازالت هناك ست زجاجات أخرى لم تمس ، فأفرغاها . واخذا يتجاذبان اطراف الحديث ، متناولين أصل ، وأهل ، وأخلاق اكسبورو وميدلى واوركهارت . وأوليا اكسبورو وآلته الموسيقية — الاكورديون — نصيبا أوفر ! .. ولم ينتبها الى أن كريستين عادت — فى تلك الاثناء — وصعدت الى مخدعها مباشرة ، اذ كانا منهمكين فى الحديث ، كزميلين تعرضا لغدر مشين !

وفى الصباح التالى ، قام « أندرو » بجولته — لزيارة مرضاه — وهو يشعر بصداع يكاد يفلق رأسه . وصادف ليولين فى سيارته — فى الميدان — فرفع قبعته يحييه فى تجهم يشوبه استحياء . وأجاب ليولين تحيته بابتسامة عريضة !

— ١٠ —

• ظل أندرو أسبوعا ، وهو متبذمر من جراء هزيمته وانصراف زملائه عنه . حتى اذا كان يوم الاحد — الذي يركن فيه عادة الى راحة طويلة هادئة — أنفجر بغتة قائلا : « ليس المال هو الذي يغريني يا كريس ، ولكن المبدأ هو الذي يعنيني . انني اكاد اجن كلما فكرت فى الموقف .. لماذا لا اتجاهل الامر ؟ .. **لماذا لا أحب ليولين ، أو — على الاقل — لماذا يكون قريبا الى قلبى حينا ، بعيدا عنه حينا آخر ؟** .. اصدقينى الراى يا كريس : لماذا اناهضه ، أأغار منه ؟ .. ما حقيقة الامر ؟ »

وكأنما كان ردها صدمة ترنح لها ، اذ قالت : « أجل .. اظنك تغار منه ! » . فهتف : « ماذا ؟ » .. فقالت : « لاتخرق اذنى بصياحك ياعزيزى .. لقد سألتنى ان اصدقك القول .. انك غيور ، غيور الى حد فظيع !.. ولماذا لا تكون كذلك ؟ .. انني لا احب أن اكون زوجة قديس !.. ان على ان انظف فى هذا البيت أشياء كثيرة ، فلا يضيرنى ان انظف ايضا اكليل غارك ! »

— امضى فى حديثك ، واكشفى لى عن كل عيوبى : اننى — فى رأيك — متشكك ! غيور !.. لقد لمتنى من قبل . أوه ! .. ثم اننى صغير السن ، فوق ذلك ! هكذا قال لى أوركهارت الكهل فى وجهى من أيام .. ولماذا اغار من ليولين ؟

— لانه قدير فى مهنته ، ويعرف أشياء كثيرة .. وأهم من ذلك أنه حصل على مؤهلات من الدرجة الاولى .

فقال : « .. وأنا لا أحمل سوى شهادة « بكالوريوس الطب » المتواضعة ، من جامعة اسكتلندية . بالله !.. اننى الآن اعرف رأيك فى ! » . وقفز من السرير مهتاجا ، وشرع يذرع الحجرة ، قائلا : « ومع هذا ، فما قيمة الشهادات ؟ .. مجرد تظاهر فارغ ! .. انما العبرة بأسلوب الطبيب وفنه ..

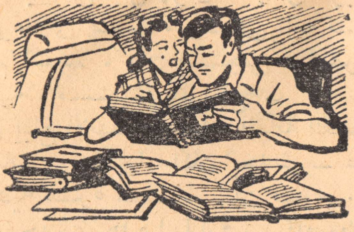
لست اومن بشىء مما يقدم لنا فى الكتب ، وانما اومن فقط بما يطرق أذنى خلال مسماعى . فأنا أنصت الى أشياء كثيرة، اذا لم تكونى تعرفين .. **لقد بدأت أكشف عن معالم جدية فى ابحاثى فى مناجم الفحم . وقد أفاجئك يوما يا مولاتى ! .. ياللعنة !.. جميل أن يستيقظ المرء فى صباح يوم الاحد ، فتعيره زوجته بأنه لايعرف شيئا ! »**

واستوت كريستين فى السرير ، وتناولت ادوات تجميل الاظافر فأخذت تطلى اظافرها الى أن أفرغ ماكان فى جعبته ، فقالت : « لم أقل هذا يا أندرو . كل ما قلته ياحبيبى ، هو انك لن تظل العمر كله مساعدا . انك فى حاجة الى أشخاص يصغون لك ، وينتبهون الى أعمالك والى آرائك . **أوه ، أنك تدرك ما أعنى .. أو انك حصلت على درجة رفيعة كالدكتوراه فى الطب ، أو الزمالة فى كلية الطب الملكية ، لرفع هذا من قدرك وحسن مركزك ! »** . فردد فى دهشة : « زميل فى كلية الطب الملكية ؟ ! » . ثم أردف فى نفسه : « اذن فقد كانت ترهق نفسها بالتفكير فى هذا ! زمالة كلية الطب الملكية .. هه ، أيختارون زميلا ممن يمارسون الطب فى المناجم ؟ ! » . ولو أنه أبدى هذه السخرية لكريستين لصعقها . ولكنه اكتفى بأن قال : « الا تدركين أن هذا اللقب لا يمنح الا للرؤوس المتوجة فى أوربا ؟ ! » . ثم دفع الباب ، ودلف الى الحمام ليحلق ذقنه . وعاد بعد خمس دقائق و أحد صدغيه حليق ، والنصف الآخر يعلوه الصابون . وكان نادما ، ومنفعلا ، فقال متوددا : « أتظنين ياكريس ان فى مقدورى بلوغ هذا الهدف ؟ .. انك محقة تماما ، فنحن بحاجة الى بعض اضافات براقة الى اللوحة التى تحمل اسمنا القديم ، حتى نتبوأ مكانتنا . **بيد أن الحصول على لقب زميل فى كلية الطب الملكية ، لا يكون الا بعد امتحان هو أصعب الامتحانات فى المهنة كلها .. انه انتحار ! ومع ذلك .. صبرا ، سآتى بكافة البيانات ! »**

وهرول الى الدور الاسفل ليطلع على الدليل الطبى .. وكان وجهه ــ حينما عاد ــ ينم عن قنوط .. وغمغم مكتئبا : «دعك من هذه الفكرة !.. لقد قلت لك انه امتحان فى عداد المستحيل .. ويجب ان يسبقه امتحان تمهيدى فى اللغات : اللاتينية ، والفرنسية ، واليونانية ، والالمانية .. ولابد للمرء من أن ينجح فى اثنتين منها ، قبل ان يسمح له بالاشتراك فى الامتحان اللعين ! .. وانا أجهل هذه اللغات ، فلست أعرف من اللاتينية سوى أشياء تافهة ، أما الفرنسية ..! » . ولم تعقب كريستين ، فسادهما الصمت .. وكان اندرو يقف الى النافذة مسرحا بصره فى اكتئاب ، غير مكترث بما كان يرى .. وأخيرا ، استدار مقطب الجبين مهموما . وتساءل : « **ولماذا لا أستطيع ؟.. ويحى ياكريس !.. لماذا لا أدرس هذه اللغات بقدر يكفى للامتحان ؟ »** . فقفزت من المضجع ، وضمته بين ذراعيها هاتفة : « هذا ياحبيبى ماكنت أتحرق لسماعه .. انه الشىء الجدير بك . وفى وسعى ... قد يكون فى وسعى أن أساعدك ، فلا تنس أن زوجتك معلمة متقاعدة ! »

* * *

ظلا النهار بطوله يرسمان الخطط فى حماس بالغ . كدسا مؤلفات ترولوب ، وتشيكوف ، ودستوفسكى فى الغرفة غير المشغولة ، وأعدا « الصالون » للكفاح .. وفى هذا المساء عينه ، بدأ الدراسة متتلمذا على كريس .. وكذلك فعل فى الغد ، وفى الايام التالية ! .. وكان أندرو يشعر أحيانا بما فى هذا من محاولة للسمو تثير الضحك ، بل انه كان يسمع ضحكات الآلهة الساخرة تنساب من بعد ، وهو يجلس الى المائدة العارية الى جانب زوجته يتلقى عليها أصول النطق باللغتين الفرنسية واللاتينية ، فى تلك البلدة النائية فى منطقة المناجم بمقاطعة ويلز !.. وكان يقول أحيانا : « **لو رآنا ليولين فى هذه الحال لسخر منا !..**



ثم تصورى اننا لا نزال فى البداية ، وعلى أن استذكر المواد الطبية بعد ذلك ! »

وحوالى نهاية الشهر التالى ، بدأت طرود الكتب تصل تباعا الى (فيل فيو) ، من فرع « المكتبة الطبية الدولية » بلندن، فشرع أندرو يستأنف الدراسات الطبية من حيث تركها عند تخرجه فى الجامعة . وسرعان ماتبين أنه قد تركها قبل الاوان، اذ اكتشف ـ والتهم ـ التقدم العلاجى للكيمياء الحيوية . وارتاد أبواب العلاج الحديث للكلى ، والاوعية الدموية ، والبول الدموى ، واحتمال أخطاء اختبارات الزلال .. **وكان يئن بصوت عال ، كلما تداعت النظريات التى تعلمها خلال سنى دراسته فى الجامعة ، ويصيح : « اننى لا أعرف شيئا ياكريس .. ان هذه الدراسة تقتلنى ! »**

وكان مضطرا لاداء مطالب عمله ، فلم يكن لديه للدرس سوى الليالى الطويلة . وراح يكافح ـ فى عزم ـ مستعينا بالقهوة وبمنشفة مبللة كان يلف بها رأسه ، مكبا على القراءة حتى الساعات الاولى من الصباح . فاذا ارتمى على فراشه ـ وقد نال منه الاعياء ـ فقلما كان يجد الى النوم سبيلا . وكان يستيقظ أحيانا ـ بعد سنة من النوم ـ والعرق يتصبب منه كالمحموم ، ورأسه يضطرم بالمصطلحات والصيغ الطبية، وبعض عبارات جوفاء من اللغة الفرنسية ! .. وأخذ يسرف

فى التدخين، واصابه شيء من الهزال . ولكن كريستين كانت الى جواره دائما ، ترعاه فى صمت ، وتصغى اليه لتشجعه على ان يتكلم وأن يرسم أشكالا ، وأن يستجلى غوامض ما يغلق عليه فى دراسته الطبية ، مستعينا بالمراجع .

وكان — حين يبلغ الانهاك بأعصابه الغاية القصوى — يصيح فى وجهها بالسباب . وكثيرا ماكان يحدث — عندما تقدم له القهوة فى الحادية عشرة مساء — أن يصرخ : « ألا تدعينى وشأنى ؟ . . ثم ما جدوى هذه القذارة ! « كافيين » . . انه عقار ضار . **انك تعرفين اننى أنتحر ، أليس كذلك ؟ . . كل هذا من أجلك ، فأنت قاسية ، قاسية الى درجة فظيعة ! . . لكانك — وأنت تدخلين وتخرجين فى حذر — سجان ! . .** لن احصل على تلك الدرجة المعينة ، فهناك مئات يتنافسون على الظفر بها ، من أطباء (الويست ايند) فى لندن ، ومن المستشفيات الكبرى ، فى حين اننى . . من أبيرالو ! ها ، ها ، ها ! . . من أطباء جمعية المعونة الصحية العتيقة ! . . ياالله ، لكم أنا مكدود ! ومع ذلك ، فاننى اوقن من أنهم سيأتون فى طلبى هذه الليلة لولادة بشارع (سيفن) ، و . . »

وكانت كريستين أقدر منه على النضال . فقد كانت تتمتع برصانة تساعدها على الاتزان فى كافة الازمات . **وكانت لها — هى الاخرى — فوراتها ونزواتها ، ولكنها كانت تكبح جماح نفسها ، وتؤثر التضحيات . .** فكانت ترفض جميع دعوات أسرة فوجان ، وتأبى على نفسها الذهاب الى حفلات الموسيقى السيمفونية ، فى صالة «التامبيرانس» . . وكانت تنهض مبكرة فى كل صباح — مهما تكن مسهدة فى ليلتها السابقة — فترتدى ملابسها، وتعد له افطاره ليتناوله قبل أن يغادر الدار .

وفى نهاية ستة أشهر من هذا الجهد المضنى ، مرضت عمة كريستين فجأة ، فى (بريدنجتون) ، وكتبت ترجوها ان

تخف اليها . ودفعت كريستين بالرسالة الى اندرو ، قائلة — على الفور — بأنه من المستحيل أن تتركه . أما هو فغمغم مستاء ، واعتدل فى جلسته ، وهو يتناول طعامه : **« اود أن تذهبى ياكريس .. فاننى وقد اشتد وطيس الاستذكار ، قد أجد مجالا أوسع فى غيابك . ثم ان كلا منا بدأ يفقد أعصابه مع الآخر .. آسف ، ولكن هذا يبدو خير علاج ! »**

وسافرت فى آخر الاسبوع على مضض . ولم تكد تنقضى أربع وعشرون ساعة على سفرها ، حتى فطن أندرو الى خطئه ، فقد كانت الحياة بدونها عذابا . فعلى الرغم من أن جينى كانت تنفذ — بدقة تامة — التوصيات التى أوصيت بها ، الا أنها كانت مصدر ضيق لاينقطع .. ولم يكن الذى يثيره منها يتمثل فى طريقتها فى طهو الطعام ، ولا فى انهاكانت تقدم له القهوة باردة او تكاد ، ولا فى رداءة تنسيقها السرير .. **انما الذى كان يعنيه هو غياب كريس .. كان يعذبه ان يعرف انها لم تكن فى البيت ، وأن يفتقدها فلا يستطيع اللجوء اليها .. وكان كثيرا ما يحملق فى كتبه فى وجوم ، مضيعا ساعات الاستذكار فى التفكير فيها !**

وما لبثت كريستين ان ابرقت اليه — بعد أسبوعين — بأنها عائدة ، فترك كل شىء جانبا ، ليتأهب للقائها . لكم كان يود ان يحتفل بلقائها احتفالا رائعا . ولكنه لم يجد فسحة من الوقت — بعد وصول البرقية — للاستعداد . ففكر بسرعة ، ثم هرول الى البلدة وقد اعتزم أن ينفق فى اسراف ، فابتاع أولا زهورا ، ثم كان من حظه أن وجد — فى ذلك الصباح — « جمبرى » طازجا ، فاختطفه اختطافا ، خشية أن تسبقه مسز فوجان الى طلبه بالتليفون ! .. ثم ابتاع ثلجا كثيرا ، وخضرا وفاكهة ، وطلب — فى النهاية — زجاجة من أفخم نبيذ ، من « لامبيرت » ، البدال الذى فى الميدان !

وقال لجيني — بعد تناول الشاي — ان لها ان تنصرف ،

فشعر بنظراتها الشابة ترمقه فى تساؤل وعجب .. **ثم عكف على العمل ، فاعد ـ وهو فى نشوة الحب ـ الوان الطعام ، ووضع الثلج فى اناء من آنية المطبخ تأهبا لتثليج النبيذ .** أما الزهور فقد اصطدم ـ بشأنها ـ بعقبة لم تكن فى حسبانه، اذ أن جينى كانت قد أغلقت الخزانة التى تضم جميع الزهريات ، وأخفت المفتاح عن غير عمد . بيد أنه ذلل هذه الصعوبة بأن وضع جانبا من الزهور فى ابريق الماء ، والجانب الآخر فى حامل فراجين الاسنان ، الذى احضره من دورة مياه الطابق الاعلى .. الامر الذى أضفى على الزينة لونا من الطرافة ! .. واذ اكتملت هذه الاستعدادات ، راح يتفقد المنظر بعين مشرقة . حتى اذا فرغ من العيادة ـ فى الساعة التاسعة والنصف ـ أسرع الى المحطة ، ليستقبل القطار .

لكأنما وقع فى الهوى من جديد .. هوى عذب ، رائع !.. فقد أحاط كريستين بكل حنان ، وهو يرافقها الى وليمة حبهما . وكان المساء حارا ، والهواء راكدا ، والقمر يتألق فوقهما .. ونسى دراساته المعقدة ، وراح يقول لها انه يخال أنهما فى (بروفانس) ، أو فى مكان يشبهها ، وقد حلا بقلعة تطل على احدى البحيرات !.. وأخذ ينبئها بأنها طفلة حبيبة، شهية ! .. وقال لها أنه كان غاية فى الغلظة والقسوة نحوها، ولكنه سيتحول مابقى من عمره بساطا ـ غير احمر ، اذ انها كانت تكره هذا اللون ـ لتسير عليه .. وقال لها أشياء كثيرة غير ذلك .. على انه لم ينقض الاسبوع حتى رفع الكلفة فعاد يكلفها بأن تحضر له نعليه المنزليين الخفيفين !!

* * *

أقبل شهر اغسطس بقيظه الشديد وغباره .. واذ فرغ « أندرو » من الدراسة النظرية ، واجهته ضرورة صقل درايته العملية ، وخاصة فى علم أنسجة الجسم .. **وكانت**

هذه الضرورة عقبة من العسير تذليلها ، فى تلك الظروف . وكانت « كريستين » هى التى فكرت عندئذ فى البروفيسور « تشاليس » ومركزه فى جامعة كارديف .

وما ان كتب اليه أندرو ، حتى رد فورا ، مبديا حفاوة ، واعدا بأن يبذل نفوذه — عن طيب خاطر — فى هذا الصدد لدى قسم « الباثولوجيا » . وأضاف ان مانسون سيجد فى الدكتور « جلين جونز » رجلا من الطراز الاول . ثم ختم رسالته بعبارات طيبة للسؤال عن كريستين .

وقال أندرو — بعد أن قرأ الخطاب — « اننى مدين لك بهذا ياكريس .. هذه ثمرة أن يكون للانسان أصدقاء .. تصورى اننى كدت أرفض التعرف الى تشاليس عند أسرة فوجان ! .. انه رجل ثرثار طيب . ومع ذلك ، فأنا أكره أن أسأل الغير صنيعا . ثم ماهذه العبارات الرقيقة التى يسأل بها عنك ! ؟ »

وفى حوالى منتصف أغسطس ، ظهرت فى (فيل فيو) دراجة بخارية مستعملة ، كانت عتيقة ، متعبة لراكبها ، وان حدد وصفها صاحبها السابق — فى اعلانه — بأنها « فائقة السرعة » . وأخذ أندرو ، خلال أشهر الصيف التى يقل فيها العمل ، ينصرف الى دروسه ثلاث ساعات بعد الظهر . **فكان يستقل دراجته البخارية — بعد الغداء مباشرة ، من كل يوم — فتهبط به الوادى فى صخب ، نحو (كارديف) ، على مسافة ثلاثين** ميلا .. ثم يعود فى الخامسة الى (فيل فيو) ، وقد علا الدراجة مزيد من الغبار ! .. وكانت هذه الاميال تقطع فى قيظ خانق .. وبين الذهاب والعودة ، كانت ثمة ساعة من العمل على عينات « جلين جونز » وقطاعاته ، يستعمل خلالها أندرو الميكروسكوب بيدين ترتعشان وهما لاتزالان متأثرتين باهتزازات مقبضى قيادة دراجته .

* * *

وكان أقسى مايؤلم كريستين — فى كل هذا — هو أن ترى أندرو يبرح الدار على الدراجة البخارية الصاخبة ، فتظل تنتظر — فى قلق بالغ — أول قرقعة تؤذن بعودته ، وهى تخشى طيلة الوقت أن يقع له حادث ما ، وهو يجلس محدودب الظهر على تلك الآلة الشيطانية . وبالرغم من الاسراع الذى أصبح أندرو مضطرا اليه ، فانه كان يجد من وقته لحظة — بين الحين والحين — ليبتاع « الفراولة » من كارديف ، ثم يحتفظان بها ليأكلاها بعد أن يفرغ من عيادة مرضاه . واصبح يجلس ليتناول الشاى وقد علاه الغبار ، واحمرت عيناه ، وراح يتساءل مكتئبا عما اذا كان بوسعه أن يقوم بزيارتين لمريضين — طلباه أثناء غيابه — قبل أن يحين موعد العيادة !

وقدر له أن يقوم — أخيرا — بالرحلة الختامية . اذ لم يعد لدى « جلين جونز » مايطلعه عليه ، فقد أصبح يعرف عن ظهر قلب كل قطاع وكل نموذج ، ولم يبق الا أن يسجل اسمه ويدفع رسوم الامتحان الباهظة .. وقد سافر وحده الى لندن — فى الخامس عشر من اكتوبر — ليؤدى الامتحان فصحبته كريستين الى المحطة .. واذ أصبح قاب قوسين أو أدنى من الأمر الحقيقى الذى بذل كل هذا الجهد من أجله ، استولى عليه هدوء غريب .. واذا نضاله ، وجهوده الجبارة ، وثورات غضبه التى كانت تصل الى حد الهياج .. اذا كل هذا يبدو بعيدا ، عفى عليه الزمن ! .. ولم يعد عقله نشيطا ، بل ران الى خمول خيل له معه أنه لم يتعلم أو يعرف شيئا .. على انه لم يكد يبدأ — فى اليوم التالى — القسم التحريرى من الامتحان الذى كان يعقد فى المعهد العالى للأطباء ، حتى ألفى نفسه يجيب عن الاسئلة فى استرسال تلقائى أعمى . وراح يكتب ويكتب دون ان يتطلع الى ساعة الحائط ، مالئا ورقة بعد ورقة ، حتى دار رأسه ..

وكان قد نزل فى فندق « الميوزيوم » ، حيث مكث مع كريستين فى زيارتهما الاولى للندن . وكانت الاقامة زهيدة الاجر ، ولكن الطعام الفث الذى كان يقدم للنزلاء ، ضاعف مما كان يعانيه من اختلال معدته ، وأدى الى عسر هضم اليم . فاضطر الى أن يقصر غذاءه على اللبن . وأصبح غداؤه قدحا كبيرا من اللبن ، فى أحد « صالونات » الشاى . وكان ـ فيما بين الاختبارات التحريرية ـ يعيش فى شبه ذهول ، لايفكر فى الذهاب الى أى ملهى ، ولا يكاد يرى المارة فى الشوارع .. ومن وقت لآخر ، كان يصعد الى الطابق الاعلى من احدى الحافلات (الاتوبيسات) ، ليقوم بجولة يجلو فيها ذهنه !

وبدأت الاختبارات العملية والشفهية بعد التحريرية . وأحس أندرو بأنه يتهيبها كما لم يتهيب شيئا من قبل .. كان معه نحو عشرين آخرين ، يكبرونه جميعا فى السن ، وتنم ملامحهم جميعا عن اطمئنان وثقة لاتخطئهما العين . فكان جاره فى الاختبارات التحريرية رجلا يدعى « هاريسون » جاذبه الحديث مرة أو مرتين ، وعرف انه كان يحمل شهادة متوسطة فى الجراحة من اكسفورد ، وانه كان موكلا بالعيادة الخارجية فى مستشفى « سانت جون » ، كما كانت له عيادة خاصة للاستشارات فى (بروك ستريت) .. **فكان أندرو كلما قارن بين مظاهر هاريسون الخلابة ومركزه البارز ، وبين ارتباكه هو كريفى ، أحس بأن حظه ضئيل فى التأثير على نفوس الممتحنين !**

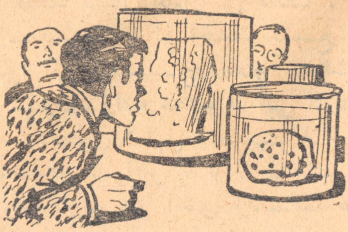
وسار اختباره العملى ـ فى مستشفى جنوبى لندن ـ سيرا طيبا ، على مابدا له . كانت « الحالة » ـ التى عرضت عليه ـ نزلة شعبية أصيب بها صبى فى الرابعة عشرة من عمره ، فكان هذا من حسن حظه ، اذ كان على دراية واسعة بالرئتين . وشعر أنه وضع عن الحالة تقريرا جيدا .. بيد أنه

حين انتقل الى الاختبار الشفهى ، شعر بأن الحظ قد تخلى عنه تماما .. فان لهذا الاختبار فى معهد الاطباء طريقة خاصة، اذ كان كل طالب يختبر يومين متتاليين ، بمعرفة أستاذين مختلفين . فاذا ظهر بعد الجلسة الاولى أنه ضعيف ، قدمت له مذكرة مهذبة تعفيه من الحضور فى اليوم التالى !.. وقد تبين « أندرو » ـ وهو يرتعد تحت تأثير هذا الخطر ـ أنه سيؤدى امتحانه أمام الدكتور « موريس جادسبى » ، وهو أستاذ سمع هاريسون يتحدث عنه فى تخوف .

كان « جادسبى » رجلا قلة فى الجسم ، ذا شارب اسود متهدل ، وعين صغيرة بادية القسوة . وكان قد عين حديثا كممتحن ، فلم يؤت شيئا من تساهل الممتحنين الذين كانوا أقدم منه عهدا ، بل بدا وكأنه يميل عمدا الى عدم اجازة الطلبة الذين يمتحنون أمامه .. وقد نظر الى أندرو فى ترفع، ووضع أمامه ست قطاعات من الانسجة ، سمى « أندرو » خمسة ، وعجز عن معرفة السادس . فركز «جادسبى» أسئلته على هذا النسيج ، الذى كان ـ فيما يبدو ـ من نسيج بويضة أحد طفيليات أفريقيا الغربية غير المعروفة للكثيرين .. وظل يرهق أندرو بالاسئلة لخمس دقائق ، ثم أحاله فى فتور الى الممتحن الآخر ، السير « روبرت آبى » . فنهض أندرو وعبر القاعة شاحب الوجه ، وقد تضاعفت ضربات قلبه ، وتلاشى كل ما كان يحسه ـ فى بداية الاسبوع ـ من اعياء وتبلد ، **وأصبح توافا الى النجاح فى استماتة ! .. بيد انه كان موقنا من أن « جادسبى » سيعمل على أن يرسب !**

ورفع « أندرو » عينيه ، فاذا « روبرت آبى » يرمقه فى ود ، وعلى شفتيه طيف ابتسامة .. وما لبث ان سأله: «ماذا هناك ؟ »

ـ لاشىء يا سيدى .. أخشى الا اكون قد وفقت مع الدكتور جادسبى .. هذا كل ما هناك !



ـ لا يقلقنك هذا ! .. الق نظرة على هذه العينات ، وقل لى رأيك فيها !

وظل يبتسم مشجعا . كان فى الخامسة والستين ، حليقا ، حاضر اللون ، ذا جبهة عالية ، كما كانت شفته العليا طويلة تنم عن مزاج صاف . **ومع أن « آبى » كان قد أصبح أبرز ثلاثة أطباء فى أوربا ، الا أنه عرف محنا وصعابا قاسية فى** شبابه ، حينما وفد الى (لندن) من (ليدز) ـ مسقط رأسه ـ غير مستند الى أكثر من سمعة اقتصرت على الريف . ومن ثم فقد قوبل بتعنت واعراض فى لندن . وبينما كان يتأمل أندرو ـ دون أن يبدى ذلك ـ لاحظ ياقته غير المنشاة ، وربطة عنقه الرخيصة ، ووجهه الجاد المعبر ، **فتذكر أيام شبابه هو فى الاقاليم ، وأحس بقلبه يميل بغريزته الى هذا الطالب غير العادى** . وألقى نظرة على القائمة التى كانت أمامه فاستبان فى ارتياح أن درجاته ، لاسيما درجات آخر امتحان عملى ، فوق المتوسط المطلوب !

* * *

وفى تلك الاثناء ، كان أندرو يتفرس فى الاوانى الزجاجية التى وضعت أمامه ، ويدلى بتعليقاته عن العينات فى تلعثم وارتباك . فقال « آبى » بغتة : « حسنا » .. ثم تناول

احدى الاوانى ، فأخذ يسأل أندرو فى عطف . وبدت اسئلته - فى أول الامر - بسيطة ، ثم أخذت تتسع وتزداد عمقا ، حتى انتهت أخيرا الى استنتاج علاج حديث للملاريا . **واستطاع أندرو - وقد زاده عطف ((ابى)) ثقة بنفسه - أن يجيد الاجابة** . فتحول ((آبى)) متسائلا : ((هل تعرف شيئا عن تاريخ تمدد الشرايين ؟)) . فأجاب أندرو : ((من الشائع ان امبرواز بارى هو الذى اكتشف هذا الداء)) . فتساءل ((آبى)) والدهشة تعلو أساريره : ((لماذا تقول من ((الشائع)) يادكتور مانسون ؟ .. ان بارى هو مكتشف تمدد الشرايين حقا !))

واحمر وجه أندرو، ثم شحب .. وقال : ((أجل ياسيدى، هذا ما تقوله الكتب ، وهو مذكور فيها جميعا . لقد تكبدت مشقة تحرى ذلك ، فوجدته فى ستة منها !)) . وتهدجت أنفاسه، وهو يسترسل قائلا : ((على اننى قرأت مصادفة - وأنا أراجع دروسى فى اللاتينية - **ان ((سيلسوس)) كان يعرف تمدد الشرايين ، وانه وصفه وصفا كاملا قبل ((بارى)) بنحو ثلاثة عشر قرنا !))**

وساد صمت .. ورفع أندرو عينيه متوقعا نقدا رقيقا ، غير أن ((آبى)) تأمله ، وعلى وجهه المتورد تعبير غريب ، وقال : ((انك يادكتور مانسون أول طالب وفد على هذه القاعة ليقول لى شيئا جديدا من ثمار بحثه .. شيئا صحيحا، وشيئا لم أكن أعرفه .. اننى أهنئك !)) .. فتضرج وجه أندرو مرة أخرى ، بينما وجه اليه ((آبى)) سؤالا أخيرا : ((بقى شىء أرجو أن تحدثنى عنه ، لمجرد اشباع فضولى .. ما الذى ترى انه المبدأ الرئيسى ، او قل الفكرة الجوهرية الاساسية التى تضعها نصب عينيك وأنت تمارس المهنة ؟)) . وساد الصمت مرة أخرى ، وأخذ أندرو يفكر فى استماتة ، وهو يشعر بأنه يوشك أن يفسد الاثر الحسن الذى أحدثه .

ثم قال فى مجازفة : « أحسب .. أحسب اننى أروض نفسى على ان لا تقبل أى شىء على أنه اكيد مسلم به ! » .. فقال له الممتحن : « شكرا يادكتور مانسون ! »

وبينما كان أندرو يغادر الحجرة ، مد « آبى » يده الى قلمه ، وقد عاوده الشعور بالشباب ، وبالتهور انسياقا لعواطفه . وقال فى نفسه : « لو انه قال لى ان مبدأه أن يمضى فى علاج الناس ، وأن يحاول مساعدة الانسانية المعذبة ، لاقصيته عن الامتحان ، لفرط استيائى » .. **ورسم قلم « آبى » أمام اسم « أندرو مانسون » رقما لم يسبق أن ظفر به أحد : « ١٠٠ » . ولو كان يملك أن يضاعفه ، لفعل !**

وبعد بضع دقائق ، هبط أندرو ، لينضم الى بقية الطلاب .. وفى نهاية السلم ، كان البواب يقف بجوار غرفته ، وأمامه كومة من المظاريف ، فكلما مر به طالب ، سلمه مظروفه . وفض هاريسون ـ الذى خرج خلف أندرو ـ مظروفه متعجلا ، ثم شحب وجهه ، وقال فى تجلد : « يبدو أنهم فى غير حاجة الى غدا » . ثم سأل فى ابتسامة مصطنعة : « وأنت ؟ » . وكان أندرو قد تناول مظروفه بيد مرتعشة ، فلم يكد يقوى على قراءته .. وفى شبه ذهول ، سمع «هاريسون» يهنئه .. كان حظه لايزال مواتيا . فذهب الى المقصف ليتناول قدحا من اللبن ، وهو يقول فى نفسه : « اذا لم أنجح بعد كل هذا ، فسألقى بنفسى تحت عجلات سيارة عامة ! »

وكان اليوم التالى مضنيا . فلقد تبقى من الذين تقدموا للامتحان نصفهم فقط . وتواترت الشائعات بأن نصف هؤلاء لن يلبث أن يستبعد . ولم يدر أندرو ما اذا كان موفقا او غير موفق .. كل الذى كان يدريه ، هو ان رأسه كان يعانى أوجاعا لا تطاق ، وان قدميه كانتا باردتين كالثلج ، وأن جوفه وعقله وكيانه كانت خاوية ! .. وأخيرا ، انتهى كل شىء . وفى الرابعة بعد الظهر ، خرج اندرو من الغرفة التى كانت

تودع فيها القبعات والمعاطف ، وهو منهوك القوى ، مكتئب ، واذا به يلمح « آبى » واقفا امام المدفأة فى الردهة . **وهم بالانسحاب ، لولا أن « آبى » مد له يده مبتسما ، لسبب لم يدركه اندرو الا حين سمعه ينبئه بنجاحه !**

يالله ! .. لقد تحقق الامل ، لقد نجح ! .. وسرعان ما تلاشى الصداع ، ولم يعد يذكر الاعياء ، بل اسرع الى اقرب مكتب للبريد وقلبه يتواثب فى صدره فرحا .. لقد نجح وهو الذى لم يأت من (الويست اند) بلندن ، وانما جاء من بلدة نائية فى منطقة للمناجم .. وفاض كل كيانه بالفرح .. **لم تكن عبثا – بعد كل شىء – تلك الليالى الطويلة ، وتلك الرحلات الجنونية الى كارديف ، وتلك الساعات من العمل المضنى !** .. وانطلق يشق طريقه وسط الجموع فى عناء – مجانبا ، أو يكاد ، سيارات الاجرة والحافلات – وقدتألقت عيناه .. كان يود ان يسابق الزمن ، ليبرق الى كريستين بالنبأ العظيم !

— ١١ —

• **كان الليل** قد انتصف حينما وصل القطار الى المحطة متأخرا عن موعده نصف ساعة . فقد اضطر الى أن يقاوم – طوال عبوره الوادى – ريحا عاتية كادت تجندل « أندرو » حينما قفز الى رصيف (أبيرالو) . وكانت المحطة خالية ، وأشجار الحور القائمة عند مدخلها – على شكل قوس – ترتعش وترسل صفيرا كلما هزتها الريح ، بينما كانت النجوم فى السماء تتألق تألقا يخطف البصر .

وسار أندرو فى شارع المحطة معتدل القامة ، وهو يشعر بلذة لسياط الهواء .. **وكان مزهوا بنجاحه واتصاله بعلية القوم فى عالم الطب .. وكانت كلمات « روبرت آبى » تتردد فى أذنيه دون انقطاع** . وأخذ يسرع السير وهو يود لو يطير

الى كريستين ليشرح لها كل ماحدث . لقد حملت لها برقيته النبأ السعيد ، ولكنه ظل يتحرق شوقا الى أن يروى لها القصة المثيرة ، بكل دقائقها ! .. وفيما كان يمعن السير فى شارع (تالجارث) — وهو منكس الرأس — فطن فجأة الى أن شخصا كان يعدو وراءه .. واقترب الشخص مسرعا فى خطى ثقيلة ، كانت الريح العاصفة تبددها .. فتوقف أندرو بدافع غريزى . حتى اذا أصبح الرجل على خطوات قليلة منه ، عرف فيه « فرانك ديفيز » .. وهو أحد عمال النقل فى بئر الفحم رقم « ٣ » ، وكان فى الربيع الماضى أحد تلاميذه فى دراسة الاسعافات الاولية . وبادره ديفيز قائلا : « لقد كنت فى طريقى الى دارك يادكتور ، اذ اقتلعت الريح أسلاك التليفون فلم استطع الاتصال بك » . فهتف اندرو : «ماذا جرى ؟»

— وقع حادث فى رقم « ٣ » ، ودفن أحد العمال تحت الانقاض أو كاد . ويلوح أنه لا سبيل الى اخراجه .. انه « سام بيفان » أحد الذين فى قائمة عملائك . يجب أن تسرع يادكتور الى اغاثته !

وخطا مانسون بضع خطوات مع ديفيز ، ثم توقف لفكرة مباغتة . وقال لديفيز : « سأحتاج لحقيبتى الطبية ، فاذهب واحضرها من المنزل . وسأهرع الى رقم ٣ » . ثم اردف : « فرانك ، انبىء زوجتى بأننى ذاهب الى هناك ! » .. وان هى الا أربع دقائق حتى كان قد وصل الى البئر رقم ٣ ، مجتازا خطوط مخزن قطارات السكة الحديدية ، وطريق (سانت روث) ، والريح تلفح ظهره .

وفى غرفة الانقاذ ، وجد المدير المساعد وثلاثة من عمال المناجم فى انتظاره ! .. فما ان أبصره المدير المساعد ، حتى سرى عنه بعض القلق ، وقال : «اننى سعيد برؤيتك يادكتور . ان العاصفة تبطش بكل شىء . وزاد الامر سوءا ان انهارت بئر .. ولم يقتل أحد ، ولكن ذراع أحد الشبان محشورة تحت

الانقاض ، ولا نستطيع أن نحركه قيد شعرة ، فضلا عن أن السقف متداع ! »

وذهبوا الى مهبط البئر ، وقد حمل اثنان من العمال محفة ربطت اليها بعض الجبائر ، وحمل ثالث صندوق أدوات الاسعاف الاولى . وبينما كانوا يلجون المصعد - ويطلقون عليه « القفص » - اذا بشبح يقبل مهرولا عبر الفناء . ذلك كان ديفيز الذى جاء لاهثا وفى يده الحقيبة . فقال له مانسون : « انك لم تبطىء يا فرانك ! » . ولم يستطع ديفيز الكلام ، فاكتفى بايماءة برأسه .. وسمعت قرقعة ، تبعتها لحظة كانوا فيها معلقين فى الهواء ، ثم هبط « القفص » ولامس القاع . فخرج منه الجميع ومضوا الواحد وراء الآخر ، يتقدمهم المدير المساعد ، ثم أندرو ، ثم ديفيز حاملا الحقيبة ، ثم العمال الثلاثة .

وكان أندرو قد هبط من قبل الى الاعماق ، وألف سراديب المناجم فى (بلينيللى) ، تلك المسالك المظلمة ، المدوية بأصداء الاصوات ، الموغلة فى أعماق الارض حيث تحطم كتل الصخور المعدنية ، أو تفجر بالديناميت . **بيد أن هذه البئر - رقم ٣ - كانت قديمة ، ذات درب ملتو ، به خط لعربات الفحم ، يفضى الى مكان العمل .. وكان المكان أقرب الى سرداب منخفض السقف ، منه الى دهليز** . فساروا فيه زحفا - وكثيرا ماكانوا يحبون على أربع - قرابة نصف ميل . وفجأة ، وقف الضوء الذى كان يحمله المدير المساعد ، فأدرك أندرو أنهم وصلوا الى مسرح الحادث .. وتقدم زاحفا فى بطء ، فاذا ثلاثة رجال - فى لباس العمال - منبطحين على وجوههم عند الطرف المسدود ، يعملون جهدهم ليجذبوا رجلا آخر كان ملقى على الارض ، وقد التوى جسمه جانبا ، وارتدت احدى كتفيه الى الخلف ، وقد كاد يخفيه ركام الاحجار المنهارة .. وخلف العمال ، كانت هناك أدوات وعدد مبعثرة

وجرتان مقلوبتان ، وسترات خلعها أصحابها وألقوا بها جانبا. وتساءل المدير المساعد بصوت خافت : « وبعد ياشباب ؟ ». فالتفت اليه وجه مجلل بالعرق . وقال صاحبه : « ليس بوسعنا أن نحركه اطلاقا . . لقد جربنا كل شيء ! »

وقال المدير المساعد ، وهو يلقى نظرة خاطفة على السقف : « لا تحاولوا ، فها هو ذا الطبيب . تراجعوا قليلا ، أيها الشجعان ، وافسحوا لنا مكانا ! » . فتراجع العمال الثلاثة ، حتى اذا ماتمكنوا من المرور خلال السرداب الضيق ، تقدم أندرو . واذ ذاك ، أومضت فى خياله ــ للحظة عابرة ــ ذكرى الامتحان الذى أداه أخيرا ، **وما كان فيه من كيمياء حيوية ذات مستوى عال ، ومن مصطلحات وعبارات علمية طنانة . . انها جميعا لم تورد شيئا عن هذه الحالة !**

وكان « سام بيفان » فى كامل وعيه ، غير أن قسماته كانت متقلصة تحت طبقة من الغبار . وحاول ــ فى وهن ــ أن يبتسم لمانسون ، وهو يقول : « يبدو انك ستحظى بتجربة طيبة يادكتور ! » . وكان هو أيضا قد أتم دراسة الاسعافات الاولية ، وكثيرا ما استدعى للتضميد . فاقترب اندرو منه ، وعلى ضوء المصباح الذى كان المدير المساعد يسلطه عليه من وراء كتفه ، راح يتحسس جسم المصاب ، فاذا به سليم ، فيما عدا أعلى ساعده الايسر ، الذى كان تحت الجزء المنهار ، وقد انسحق تحت ما كان للصخرة من ثقل هائل ، وشد الفتى فلم يكن يريم حراكا . ورأى أندرو ــ على الفور ــ أن الوسيلة الوحيدة لانقاذ بيفان ، هى بتر ساعده . **وأدرك الرجل ــ وهو ينظر الى الطبيب بعينين زاخرتين بالالم ــ قراره ، فغمغم : « هيا اذن يا دكتور . لا تحفل الا بما يخرجنى من هنا سريعا ! »**

ــ لا تخف ياسام . فسأخدرك ، وعندما تفيق ستجد نفسك فى مضجعك !

وخلع سترته فجعلها تحت رأس بيفان ، ثم طوى كمى قميصه ، وطلب حقيبته . فمدها اليه المدير المساعد ، وهو يهمس فى أذنه : « أسرع بالله يادكتور ، والا انهار هذا السقف علينا قبل أن نفطن ! » . وما ان فتح أندرو حقيبته ، حتى انبعثت منها رائحة الكلوروفورم قوية نفاذة . وقبل أن يولج يده داخلها ، أبصر قنينة قد كسرت فوهتها ، فأدرك فى الحال ماحدث .. فلا بد أن الحقيبة سقطت من يد فرانك ديفيز ، وهو يعود مسرعا الى المنجم ، فانكسرت زجاجة الكلوروفورم ، وانسكب ماكان فيها .. **وعرت أندرو قشعريرة باردة .. لم يكن ثمة وقت يسمح بارسال أحد الى خارج المنجم ، برغم أنه لم يعد لديه اى مخدر !**

وظل نحو ثلاثين ثانية بغير حراك ، ثم بحث بسرعة عن محقنة ، وحقن « بيفان » بأقصى قدر من المورفين يمكن أن يحتمله . ولم يستطع أن ينتظر حتى يفعل المخدر فعله كاملا ، بل وضع حقيبته بحيث تكون أدواته فى متناول يده ، ثم مال نحو بيفان وقال : « اغمض عينيك يا سام ! » .. وكان الضوء خافتا ، والظلال تتحرك فى ذبذبة مضطربة . **وزمجر بيفان لاول حركة من المبضع ، وصر على أسنانه . ثم زمجر ثانية ، و .. استولى عليه مفعول المورفين لحسن الحظ .**
وغمر أندرو عرق بارد ، وهو يتخذ حذره حتى يمنع انسياب الدم من العروق اذا مافصل اللحم المنسحق .

ولم يكن فى وسعه ان يرى ما كان يفعل .. وشعر بأنه يكاد يختنق فى ذلك الجحر العميق ، وقد انبطح على الوحل ، وراح يعمل بلا مخدر ، ولا مائدة جراحة ، ولا ممرضات يجرين لتنفيذ أوامره .. ثم انه لم يكن جراحا ، فراح يتلمس سبيله فى يأس واستماتة ، وقد خيل اليه انه لن يجتاز هذا الموقف ، وأن السقف لن يلبث أن ينهار فوقهم جميعا .. وكانت أنفاس المدير المساعد تتهدج متسارعة وراءه ..



وقطرات من الماء البارد تتساقط على عنقه .. وأصابعه تعمل محمومة ، ملطخة ، ساخنة .. وصوت المنشار ... وصوت سير روبرت آبى يواتيه من بعيد : « فرصة ممارسة المهنة على أسس علمية .. » . آه ، يالله ، ألن يفرغ ؟

وفرغ أخيرا ، فكاد يبكى ارتياحا ، وألصق قطعة سميكة من « الشاش » والقطن مكان القطع من الذراع المبتور ، ثم نهض على ركبتيه وقال : « انقلوه ! »

* * *

وأنهى مهمته فى جزء متسع من سرداب نقل الفحم ، على خمسين ياردة من موقع الحادث ، حيث اتسع المجال لكى يقف وحوله أربعة مصابيح ، فأصبحت مهمته ميسرة . فربط العروق ، ونظف الجرح ، وخاطه بغرزتين .. وظل بيفان فاقد الرشد ، ولكن نبضه كان منتظما رغم وهنه .. وفرك أندرو جبينه بيده ، اذ انتهت مهمته ، وقال : « سيروا بالمحفة فى رفق، واحكموا لف الاغطية حوله . ولسوف نحتاج الى زجاجات ماء ساخن عندما نخرج . »

وسار الموكب وئيدا ، وأفراده يحنون ظهورهم فى الاماكن المنخفضة السقف .. ولم يسيروا ستين خطوة ، حتى سمعوا خلفهم دويا مكتوما فى الظلمة . **فلم يعن المدير المساعد بمجرد**

الالتفات وراءه، وانما قال لاندرو : ((لقد انهارت بقية الدهليز !))

واستغرقوا للوصول الى الهواء الطلق نحو ساعة ، اذ اضطروا — فى الاماكن الوعرة — الى أن يحملوا المحفة بانحراف. ولو ان أندرو كان قد سئل ، لما عرف كم من الوقت قضوا فى الاعماق . على أنهم بلغوا آخر الامر المصعد .. وانطلقوا الى أعلى .. الى الفوهة، خارج الاغوار . وهناك ، استنشق أندرو الهواء ملء رئتيه . ووقف فى أسفل السلم المفضى الى خارج المنجم ، مستندا الى حافته . وكان الظلام لايزال مخيما على المكان ، ولكن القوم علقوا فى الفناء مصباحا زيتيا (كلوب) انبعث منه فحيح ، وتراقص لهبه .. وعلى ضوء هذا اللهب ، لمح أندرو ثلة من الناس فى انتظارهم ، بينهم نساء لففن رؤوسهن فى أوشحتهن .

وفجاة ، سمع أندرو — والمحفة تتجاوزه ببطء — صوتا يناديه بفرحة طاغية . وما هى الا لحظة حتى كانت ذراعا كريستين تطوقانه .. وتعلقت به وهى تنتحب فى انفعال .. وكانت عارية الرأس ، ترتدى معطفا فوق قميص نومها ، وقدماها عاريتين فى حذاءيهما .. كانت أشبه بنسمة مقبلة فى الظلام ! .. وسألها ، محاولا الافلات من ذراعيها ليرى وجهها : ((ماذا هناك ؟)) . بيد أنها لم تفلته ، بل ظلت متشبثة به فى لهفة ، وكأنها تغرق .. وقالت بين الشهقات : **((قيل أن الدهليز انهار .. وأنك لن .. تعود !))** . وكانت بشرتها زرقاء من البرد ، وأسنانها تصطك . فحملها أندرو الى مدفأة غرفة الاسعاف مستحييا ، وان كان جياش العواطف .. وكان هناك كاكاو ساخن ، فأخذا نصيبا منه فى قدح واحدة . وانقضت لحظة طويلة ، قبل أن يذكرا شهادته الجديدة العظيمة !

— ١٢ —

• **كان** انقاذ ((سام بيفان)) أمرا عاديا بسيطا ، فى بلدة

عرفت من قبل أحزان وأهوال كوارث أفدح ، فى المناجم . على أن هذا الحادث جلب لاندرو خيرا كثيرا فى منطقته . ولو أنه كان قد اقتصر على النجاح الذى أحرزه فى لندن ، لما عاد عليه ذلك الا بمزيد من السخرية ، ولوصف نجاحه بأنه « تقليعة جديدة » ! .. **أما بعد العمل الذى قام به فى هذا الحادث ، فان الاشخاص الذين كانوا يأبون أن يتفضلوا عليه بمجرد النظر ، أصبحوا يشيرون اليه بالبنان ، بل ويبتسمون له ..** ومن السهل الحكم على مدى حب الجمهور لطبيب ما – فى (ابيراو) – بما يلقاه هذا الطبيب عند مروره فى الشوارع .. وبعد أن كان أندرو يلقى أبوابا موصدة ، أصبح يرى أبوابا مفتوحة .. وصار العمال المنصرفون من نوبات العمل يميلون – وهم يدخنون ، وقد حسروا أكمام أقمصتهم – الى تبادل بعض الكلمات معه .. وباتت النساء ميالات الى دعوته – أثناء مروره – الى دخول دورهن ، كما صار الصبية يحيونه باسمه مبتسمين !

واستطاع « جس بارى » – رئيس « خراطى » البئر رقم ٢ ، وعميد المنطقة الغربية – ان يلخص الرأى الجديد لزملائه ، وهو يتبع أندرو الذى كان يبتعد عنهم ، فقال : « ايه ياأصدقائى ، انه فتى يحب الكتب بلا شك ، ولكنى أعتقد أنه يعرف كيف يفيد منها عند الضرورة . » .. وبدأت البطاقات تعود الى « أندرو » فى بطء أول الامر . فلما تبين انه لم يكن يلوم العائدين اليه أو يسفههم ، اشتد الاندفاع .. **وقد سر « أووين » بتزايد عدد المرضى المقيدين فى قائمة أندرو ، فلما قابله ذات يوم فى الميدان ، ابتسم له وقال : « أما قلت لك هذا من قبل ؟ »**

وأبدى « ليولين » اغتباطا كبيرا لنجاح أندرو فى الامتحان ، فهنأه تليفونيا بحرارة ، ثم دعاه – بعبارات رقيقة – للاشتراك معه فى جراحة بغرفة العمليات .. وقال له مبتسما ، عقب

الجراحة التى استغرقت وقتا طويلا : « بهذه المناسبة ، هل قلت للممتحنين انك مساعد فى جمعية للخدمات الطبية ؟ » .
فأجاب مانسون فى مداهنة : « لقد ذكرت لهم اسمك يا دكتور ليولين ، مما يسر الامور ! »

ولم يأبه اكسبورو وميدلى بنجاح زميلهما ، أما أوركهارت فقد سر فى اخلاص ، وان صاغ تهنئته فى قالب لوم ، اذ قال : « بالشيطان يا مانسون، ما الذى تسعى اليه ؟ .. أتحاول أن تبهر عينى وتخطف بصرى ؟ ! » .. واكراما لزميله الممتاز، دعاه ليشترك معه فى فحص مريضة بالتهاب رئوى كان يعالجها فى ذلك الحين ، وطلب رأيه فى احتمالات تطور الحال . فقال مانسون : « لسوف تبرأ هذه المريضة » . وأدلى بأسباب علمية تبرر رأيه . فهز أوركهارت رأسه الاشيب متشككا ، وقال : « ماسمعت أن أمصالكم ، أو مضاداتكم الحيوية ، أو وحداتكم الدولية (الفيتامينات) قد أفلحت ! .. انما هذه المرأة من آل « باول » ، وعندما تنتفخ بطون آل باول — أثناء مرضهم بالتهاب رئوى — فانهم يموتون بعد ثمانية أيام ! .. اننى أعرف أسلاف الاسرة ! .. ألم تجد انها كانت منتفخة البطن ؟! » .. ولم يخف الرجل المسن زهوه بالانتصار على « الاسلوب العلمى » ، عندما ماتت المريضة فى اليوم السابع !

***

ولم يدر « دينى » شيئا عن الدرجة العلمية الجديدة لصديقه ، اذ كان فى الخارج . على أن تهنئة لم تكن مرتقبة ، وصلت — فيمابعد — فى خطاب مطول من « فريدى هامبتون » . اذ انه كان قد اطلع على نتائج الامتحان فى الصحيفة الطبية « لانسيت » ، فأطنب فى اطراء أندرو لنجاحه ، ودعاه لزيارته فى لندن . ثم أسهب فى ذكر انتصاراته هو المثيرة فى (شارع الملكة آن) ، حيث تلمع اللوحة النحاسية التى تحمل اسمه ،

كما قدر فى أمسية (كارديف) التى لا تنسى !

وقال أندرو لكريستين : « اننى لأخجل من النحو الذى انتهجناه فى قطع اتصالنا بفريدى . يجب أن أكتب له من آن لآخر ، واحسب اننا سنراه عما قريب .. ان خطابه رقيق ، أليس كذلك ؟ » . فأجابت بجفاء : « بلى .. انه رقيق جدا ، غير أنه يتحدث فيه عن نفسه .. بوجه خاص ! »

واقترب عيد الميلاد ، وبرد الطقس ، وأصبح النهار لاذعا ، ولكن الليل ظل صافيا متألقا بالنجوم . وكانت أرض الشوارع الصلبة ترن تحت وقع قدمى أندرو ، والهواء النقى البارد يفعل فعل الصهباء .. وكان أندرو قد بدأ يتمثل — فى مخيلته — خطوته الثانية فى معالجته لمسألة تسرب الغبار الى الصدر . وكان ما اكتشفه — عند مرضاه — يذكى آماله .. **وقد حصل من « فوجان » على اذن بتوسيع نطاق أبحاثه ، وذلك باجراء فحص دقيق على جميع عمال آبار الفحم الحجرى الثلاث** .. وكانت فرصة ذهبية ! .. وفكر أندرو فى الاستعانة بعمال الاعماق ، وعمال السطح جميعا ، للتأكد .. ورأى أن يبتدىء فى مطلع العام الجديد .

وفى عشية عيد الميلاد ، عاد اندرو من العيادة الى (فيل فيو) فى حالة ترقب نفسى خارقة ، وانتعاش بدنى عظيم ، حتى لقد تعذر عليه أن يجتاز الطريق دون أن يلحظ امارات العيد الوشيك .. كان عمال المناجم — فى هذه المنطقة — يحتفون بعيد الميلاد ايما احتفاء . وكانت الغرفة الكبرى فى كل بيت توصد دون الاطفال — قبل العيد بثمانية أيام — وتغص بصنوف من الزينات الورقية ، بينما تخبأ اللعب فى أدراج الخزانات ، وتصف على المائدة مأكولات كثيرة : من حلوى ، وبرتقال ، ومثلجات ، اشتريت جميعها بمال النادى ، الذى يوزع على العمال فى هذه الفترة من العام .

ولقد زينت كريستين دارها اجمل زينة ، ارتقابا للعيد

وابتهاجا به . ولكن أندرو لحظ ـ لدى عودته فى تلك الامسية ـ اشراقا غير مألوف فى وجه كريستين .. **وصاحت به وهى تمد اليه يدها : « لاتنبس ببنت شفة ! .. ولا بكلمة واحدة! .. بل أغمض عينيك ، وتعال معى ! »** .. وتركها تقوده الى المطبخ .. كانت المنضدة حافلة بأشياء كثيرة ، ملفوفة بغير اتقان ، وبعضها مغلف بصحف قديمة ، ولكن كلا منها كانت مرفقة برسالة قصيرة . وأدرك أندرو على الفور انها هدايا من مرضاه .. وكان بعض هذه الهدايا غير مغلف اطلاقا !

وصاحت كريستين : « أنظر يا أندرو ! أوزة ، وبطتان ، وحلوى فاخرة مثلجة ! .. وزجاجة شراب ! .. أليس هذا كرما منهم ! .. أليس من البديع أن يعنوا باهدائك كل هذا ؟! » .. ولم يقو على الكلام ، بل ظل حائرا أمام هذا الدليل البين على التقدير الذى بدأ أهل منطقته يظهرونه نحوه . وأخذ يقرأ البطاقات ، وكريستين تطل من فوق كتفه .. كانت كلها مكتوبة بأيدى عمال غير مثقفين ، وقد دون بعضهم عباراته بالقلم الرصاص ، وبخط ردىء ، على ظروف خطابات قديمة ، قلبوها بحيث صار جوفها هو ظاهرها : « مريضك المعترف بالجميل ، رقم ٣ شارع سيفن » .. « مع شكر مسز وليمز » .. **وبطاقة منحرفة الجوانب من سام بيفان جاء فيها : « شكرا اذ أبرأتنى فى وقت مناسب للاحتفال بعيد الميلاد » .. وعلى هذا النسق كانت بقية البطاقات !**

وقالت كريستين بصوت خفيض : « يجب أن نحتفظ بكل هذا يا حبيبى . سأضع هذه البطاقات داخل أحد الادراج فى الطابق الاعلى » .

وحينما استطاع أن يتكلم ـ وقد ساعدته على ذلك كأس من الشراب ـ أخذ يذرع المطبخ طولا وعرضا ، بينما أخذت كريستين تطهى الاوزة ، وقال فى هذيان عذب : « هكذا كان ينبغى أن تدفع الاتعاب ياكريستين ، فلا نقود ، ولا كمبيالات

لعينة ، ولا اقتطاع من المرتبات ، ولا احصاء للجنيهات ، وانما دفعات عينية . . أحسبك تفهمينني ، أليس كذلك ياحبيبتي ؟ **. . تشفين مريضا ، فيبعث اليك بشيء صنعه أو أنتجه بنفسه . . فحما اذا أردت ، أو كيسا مليئا ببطاطس من حديقته ، وربما بيضا ان كان عنده دجاج ! . . أترين فكرتي؟ هذه هي الاخلاق المثلى !** . . وبهذه المناسبة، لقد ظل ليسلي يعالج مسز وليمز – التي ارسلت لنا البطتين – بالاقراص والعقاقير طيلة خمس سنوات ، في حين انني شفيتها من قرحة في المعدة بتنظيم غذائها لمدة خمسة أسابيع ! . . ماذا كنت أقول ؟ آه ، **أجل . . لو أن جميع الاطباء ألغوا فكرة الكسب – كما ترين – لتطهرت المهنة كلها ! »**

– اجل يا حبيبي . . هلا ناولتني الزبيب الجاف ؟ . . على الرف الاعلى من « البوفيه » !

فصاح : « يا للشيطان ! . . لماذا لاتصغين الى يا امرأة ؟ . . ولكن حشو الاوزة سيكون شهيا والله ! »

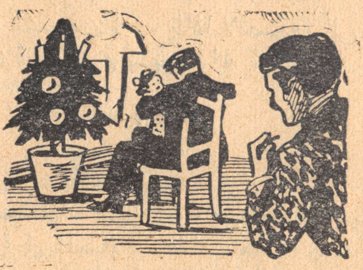
* * *

كان الطقس في اليوم التالي – يوم عيد الميلاد – بديعا صحوا . . وبعدبضع استشارات صباحية ، برح اندرو العيادة – والبوادر تبشر بأن لاعيادة في المساء – فقام بجولته . وكانت قائمة زياراته قصيرة . . وكانت أصناف الطعام تطهى ساعتئذ في البيوت الصغيرة، وفي بيته – هو الآخر – استعدادا للغداء . وظل يعمل بغير عناء ، ويتقبل التهاني بالعيد في كافة الشوارع التي مر بها . **ولم يتمالك أن يقارن بين هذه البهجة الراهنة، وبين الكآبة التي كانت تلازمه وهو يجوس خلال هذه الشوارع عينها قبل عام !**

ولعل هذه الفكرة هي التي جعلته يقف في شيء من التردد

أمام المنزل رقم ١٨ بشارع سيفن ، حيث كان « توم ايفانز »(١) .. المريض الوحيد الذى لم يعد اليه من بين مرضاه جميعا ، (فيما عدا « تشينكين » الذى لم يكن هو راغبا فى عودته) . واستولى على « أندرو » فى هذا اليوم ـ وقد هفت به عواطفه أكثر مما ألف ، وكأنما أسكرها شعور بالاخوة بين البشر ـ استولى عليه حافز مفاجىء راح يدفعه الى ان يسعى الى ايفانز ويتمنى له عيدا بهيجا .

وطرق الباب مرة ، ثم فتحه واتخذ طريقه الى المطبخ ، الذى كان فى مؤخر البيت . وهناك ، بهت اذ رأى المطبخ يكاد أن يكون عاريا ، خاليا ، وليس فى المدفأة سوى جذوة من نار ، جلس أمامها « توم ايفانز » ـ على مقعد خشبى مكسور الظهر ـ وقد التوت ذراعه المشوهة ، وكأنها جناح ، وتقوس منكباه فى هم وقنوط .. وعلى ركبتيه ، جلست طفلته الصغيرة ـ التى لم تكن تتجاوز الرابعة من عمرها ـ وقد



راحا يتأملان فى صمت غصنا من شجرة شربين ، غرس فى دلو قديم ، وكأنه شجرة عيد الميلاد .. **وفى هذه الشجرة المصغرة ، التى سار « ايفانز » ميلين فوق الجبل ليحصل عليها ، كانت هناك ثلاث شموع غير مضاءة ، أستقرت تحتها**

---

(١) هو غير الرسام « سام بيفان » الذى بتر ذراعه داخل المنجم ، ويذكر القارىء أن « توم ايفانز » هو العامل الذى حرق ذراعه وأبى أن يأخذ بالعلاج الذى وصفه له « مانسون » فى بداية عهده بالعمل فى (ابيرالو) .

وليمة الاسرة فى عيد الميلاد .. ثلاث برتقالات هزيلة !

واستدار ايفانز فجأة ، وابصر اندرو .. فأجفل ، ثم سرت فى وجهه حمرة استحياء مشوب بجلد واباء !.. وادرك اندرو انه كان من المؤلم لايفانز ان يراه الطبيب - الذى كان قد نبذه - وهو متعطل ، عاجز ، وقد رهن نصف متاعه .. وكان اندرو يعرف - بطبيعة الحال - ان ايفانز كان يعانى الفاقة ، ولكنه لم يحسب بحال ان الامر قد بلغ به هذا الحد الذى يستثير الاشفاق والعطف .. وارتبك وقد ساءه مارأى ، فهم بأن ينسحب ، لولا ان أقبلت - فى تلك اللحظة - مسز ايفانز ، خلال الباب الخلفى للمطبخ ، متأبطة كيسا من الورق .. واجفلت حين رأت أندرو ، حتى لقد سقط منها الكيس وتمزق ، وظهرت قطعتان من لحم العجول ، وهو ارخص مايمكن ابتياعه فى (ابيرالو) .. واذ رأت الطفلة ما ارتسم على وجه أمها ، اخذت تبكى . واستجمعت مسز ايفانز جرأتها اخيرا ، لتتساءل : « ماذا هناك يا سيدى ؟ .. ما اراه قد ارتكب ذنبا ؟ »

وصر أندرو على اسنانه ليكبح تأثره البالغ لهذا المنظر الذى وقع عليه عفوا . ولم يجد غير سبيل واحد يرضى نفسه ، فقال ، وهو يثبت بصره فى الارض : « أعرف يامسز ايفانز انه كان ثمة سوء تفاهم بسيط بين زوجك وبينى ، ولكن .. اليوم عيد الميلاد ، و .. أرغب .. » . وأمسك عن الحديث عيا . ولكنه لم يلبث ان استطرد : « اريد ان اقول انه يسرنى كل السرور لو حضرتم ثلاثتكم ، فشاطرتمونا تناول غداء العيد ! » .. فغمغمت : « لكن يادكتور .. » . وهنا قاطعها زوجها قائلا فى فظاظة : **« صه يا امرأة .. لن نتناول الغداء خارج دارنا . واذا كان لحم العجل هو كل مالدينا ، فلسوف يكون هو كل ما نأكل . فلسنا نبغى صدقة ذميمة من أى أحد ! »**

فصاح أندرو فى استياء : « ماهذا الذى تقول ؟ .. انى أدعوكم كصديق ! » . ولكن ايفانز أجاب فى غل : « آه ! انكم جميعا سواء ، فما ان يقدر لكم أن تغلبوا امرءا ، حتى تطوحوا فى وجهه ببعض الفضلات !.. احتفظ لنفسك بغدائك اللعين، فلسنا بحاجة اليه ! » . واعترضته زوجته ، قائلة فى وهن : « ماهذا ياتوم ؟ » . فتحول اليها أندرو مستاء ، وان ظل مصمما على بلوغ ما كان يريد : « اقنعيه يامسز ايفانز ، فلسوف يحزننى حقا ألا تحضروا . سنكون فى انتظاركم فى الواحدة والنصف ! »

وقبل أن يتمكن أحد منهما من ان يضيف كلمة ، كان قد برح الدار .

* * *

ولم تعقب كريستين بأية ملحوظة ، عندما روى لها أندرو ماجرى .. وخيل اليه اذ راح يتأملها — وقد أدار ظهره نحو المدفأة — وهى تضيف ثلاثة أماكن الى المائدة ، انها كانت تقول فى نفسها : **لقد كان من المحتمل ان يفد فوجان وزوجته لزيارتهما — فى ذلك اليوم — لو لم يرحلا الى سويسرا ليمارسا رياضة التزحلق على الجليد .. ومع ذلك ، فها هو ذا زوجها يدعو الى غداء العيد عاملا متعطلا واسرته !!**

وما لبث ان قال : « امستاءة انت يا كريس ؟ » . فأجابت : « كنت احسبنى قد تزوجت الدكتور مانسون ، لا القديس أندرو . انك يا حبيبى عاطفى ، ولا سبيل الى اصلاح هذا العيب فيك ! »

وأقبلت أسرة ايفانز فى الموعد تماما ، وقد اغتسلوا ، وارتدوا ثيابا نظيفة ، وبدوا غاية فى الارتباك ، وقد تنازعهم الفخر والتوجس .. وأحس أندرو — وهو يغمرهم بالترحاب — بهاجس قوى راح يوحي اليه بأن كريستين كانت على حق

فيما قالت ، وان هذه الدعوة لن تؤدى الا الى فشل يخيب رجاءه ! .. وبدا ايفانز مرتبكا على المائدة ، بسبب ذراعه المشوهة ، فراح يرمق أندرو بنظرة غريبة . واضطرت زوجته الى أن تدع طعامها لتقطع له خبزه وتمسحه بالزبد !

ثم سنحت مصادفة طيبة. فبينما كان اندرو يضيف بعض التوابل الى حسائه ، وقع غطاء الوعاء ، وانسكب نصف الفلفل فى الحساء .. ومرت لحظة صمت ، ثم أطلقت الطفلة « آجنس » ضحكة مرحة ، على حين غرة . فارتاعت الام ومالت نحوها لتأنيبها ، ولكنها عدلت حينما أبصرت وجه أندرو .. وما هى الا لحظة حتى كانوا جميعا يضحكون . **وتخلص ايفانز من تجهمه الناشىء عن شعوره بأن الغير يتصدق عليه ، فكشف عن الجانب الانسانى من نفسه .. فقد كان من غلاة هواة لعبة « الرجبى » ، ومن أشد الناس شغفا بالموسيقى** . وقد ذهب الى (كارديجان) ـ قبل ثلاث سنوات ـ ليغنى فى احدى المباريات الموسيقية .. وراح يتناقش مع كريستين فى شتى الموضوعات، فخورا بأن يكشف عن معرفته ، بينما راح أندرو يداعب « آجنس » !

وبعد قليل ، قادت « كريستين » مسز ايفانز والطفلة الى الغرفة المجاورة .. واذ خلا كل من أندرو وايفانز الى الآخر، سادهما صمت غريب .. وكانت تسيطر على ذهنيهما فكرة واحدة ، ولكن كلا منهما لم يكن يدرى كيف يفتح باب الحديث عنها. وما لبث أندرو ان قال ـ أخيرا ـ فى شىء من المجازفة : « آسف لما أصاب ذراعك ياتوم .. ولقد عرفت أنك فقدت وظيفتك فى المناجم ، لهذا السبب .. ولا يجولن بخاطرك اننى شامت أو لائم أو أى شىء من هذا القبيل ، وانما انا جد حزين ! » .. فقال ايفانز : « لن تكون اشد منى حزنا ! » .

وبعد صمت ممض ، عاد أندرو يقول : « ترى هل تحب ان اتكلم فى شأنك مع السيد فوجان ؟ .. مرنى بأن اصمت اذا

رأيت انني اتدخل فى ما لا يعنينى . ولكنى أوتيت شيئاً من التأثير عليه ، وأعتقد ان فى مقدورى ان احصل لك على عمل فوق سطح الارض .. كمراقب لساعات العمل ، أو ما الى ذلك ! » . ثم أمسك عن الحديث ، دون أن يجرؤ على التطلع الى ايفانز . وطال الصمت فى هذه المرة . وأخيرا رفع أندرو عينيه ، غير أنه اسرع ينكسهما .. **فقد كان الدمع يبلل خدى ايفانز ، وكان كل جسده يهتز لفرط الجهد الذى راح يبذله ليسيطر على دموعه .. حتى اذا أخفق الجهد ، ارتكز بذراعه السليمة على المائدة ، ودفن وجهه فى ثناياها ..** فنهض أندرو وسار الى النافذة ، حيث قضى بضع دقائق ، استطاع ايفانز فى نهايتها ان يسترد هدوءه . ولم يقل شيئا .. لم يقل شيئا على الاطلاق .. وتحاشى أن تلتقى عيناه بعينى أندرو ، فى صمت أكثر تعبيرا من الكلمات !

وانصرف آل ايفانز فى الساعة الثالثة والنصف ، وهم فى اغتباط يفوق ما كانوا عليه من توجس حين جاءوا .. وانتقل أندرو وكريستين الى « الصالون » ، فقال أندرو فى تفلسف : « انك تعرفين ياكريس مصدر متاعب هذا الرجل البائس .. اعنى ضمور مرفقه !.. وما كان هذا نتيجة خطأ منه ، ولكنه لم يثق بى اذ كنت حديثا هنا .. وما كان من الممكن ان يكون على معرفة بتأثير زيت الكتان اللعين .. ولكن كان من الخليق بالصديق « اكسبورو » ـ الذى قبله بين مرضاه ـ أن يعرف ! .. جهل ، جهل ، جهل مطلق لعين ! .. **يجب أن يكون ثمة قانون يلزم الاطباء بأن يكونوا على إلمام بأحدث مايصل اليه الطب ! .. هذه هى نتيجة نظامنا الفاسد . يجب أن تكون ثمة دراسات عليا اجبارية ، يتلقاها الطبيب مرة فى كل خمس سنوات ! »**

فقاطعته كريستين مبتسمة : « لقد احتملت حبك للبشر طول النهار ياحبيبى ، وراقبت جناحيك وهما ينبتان لتغدو

شبيها بالملائكة ، فلا تلق موعظة خطابية فوق ذلك . تعال فاجلس بجانبى ، فقد كنت أتمنى — لسبب هام — لو اننا مكثنا اليوم معا .. وحيدين ! » . فقال فى تردد : « نعم ؟ ». ثم أردف مستنكرا : « أرجو الا تكونى راغبة فى الشكوى ، اذ احسب اننى تصرفت تصرفا لائقا .. سيما واننا فى يوم عيد الميلاد .. »

— أواه ، ياحبيبى ، ما اجملك ! أحسب لو هبت عاصفة ثلجية بعد لحظات ، لسارعت الى ارتداء الفراء حتى أنفك ، وضربت فى الجبل مع كلاب الانقاذ ، لتعود فى ساعة متأخرة — متأخرة جدا — من الليل ، ومعك شخص انقذته !

فقال يرد عليها السخرية بمثلها : « أعرف انسانا هرع الى البئر رقم ٣ ، فى جنح الليل ، بدون أى فراء ! » . فمدت اليه ذراعها قائلة : « أجلس هنا ، فان لدى ما أقوله لك ! ». واذ سار ليجلس بجوارها ، اذا بعواء نفير سيارة غليظ ، ينبعث فجأة فى الخارج . فقالت كريستين متأففة : « ياللعنة! » .. لم يكن فى (ابيرالو) سوى سيارة واحدة ، يمكن أن يكون لنفيرها هذا الصوت ، وهي سيارة طبيب الاسنان !.. فهتف أندرو فى شيء من الدهشة : « الا تريدينهم ؟ .. لقد قال «كون» — فى شبه وعد — بأنهم سيحضرون لتناول الشاى» . فغمغمت : « آه ، لابأس ! » . ونهضت ترافقه الى الباب .

* * *

وتقدما ليستقبلا أسرة بولاند ، التى جلس أفرادها — فى سيارتهم المستصلحة — أمام باب الدار .. وكان « كون » فى المقدمة — وعلى رأسه قبعة محدودبة الحافة ، وفى يديه قفازان جديدان ضخمان — والى جانبه مارى وتيرانس .. بينما كانت مسز بولاند والاطفال الثلاثة الآخرون متزاحمين فى المؤخرة . وقد احتوت الام رضيعها بين ذراعيها .. كانوا

مكدسين في السيارة ، وكأنهم محشورون في علبة سردين .. وعاد صوت جهاز التنبيه ينبعث بغتة ، وباستمرار .. كان « كون » قد ضغط زر الجهاز دون أن يفطن ، وهو يدير مفتاح الاتصال ليوقف المحرك ، فتشابكت أسلاك الجهاز وانطلق صوته المزعج .. **وارتبك « كون » وراح يسب ويصخب .. وفتح الجيران نوافذهم .. ولكن مسز بولاند ظلت جالسة فى مكانها ، محتضنة رضيعها ، وفى عينيها نظرة حالمة !**

وصاح « كون » وشعيرات شاربه تمس لوحة القيادة : « عجبا !.. اننى أفرغ « البطارية » ! ما الذى حدث ؟.. هل بالدائرة الكهربائية خلل ما ؟ » . فقالت مارى بهدوء : « انه الزر يا أبى ! ».وأعملت ظفرها الصغيرفى الزر فأصلحت وضعه . واذ ذاك انقطع الصوت المزعج . فقال كون متنفسا الصعداء : « آه ، أحسنت !.. كيف أنت يا صديقى مانسون؟ .. ماذا انت قائل فى سيارتى القديمة ، وقد زدت طولها حوالى بوصتين أو اكثر . اليست مدهشة ؟ .. لاحظ انه لايزال بها عيب بسيط فى جهاز تغيير السرعة ، فنحن لم نصعد التل بالسرعة المرجوة ! » . فتدخلت مارى معقبة : « اننا لم نتوقف يا ابى سوى بضع دقائق ! » .

ـ أوه ، لا بأس .. سوف أصلح هذا العيب ، عندما أفك اجزاء السيارة مرة ثانية . كيف انت يامسز مانسون ؟ .. هانحن جميعا قد حضرنا نهنىء بالعيد ، ونتناول الشاى معكما .

فقالت كريستين مبتسمة : « تفضل ياكون ! .. ما ابدع قفازيك ! » . فأجاب وهو يرمق ـ باعجاب ـ القفازين **الطويلين : « انهما هدية عيد الميلاد من زوجتى .. من مخلفات الجيش ! .. تصورى انهم لايزالون يبيعون المخلفات حتى الآن ! .. آه ، ما الذى أصاب هذا الباب ؟ ! »** . واذ عجز

عن فتح باب السيارة المجاور له ، رفع ساقيه الطويلتين فوقه ، وقفز الى الارض . ثم ساعد زوجه وأبناءه على الهبوط ، وأخذ يفحص السيارة ، فنزع قطعة من الوحل علقت باطار الباب .. ثم تحول وتبع الآخرين الى داخل (فيل فيو) !

ونعموا بفترة بهيجة ، تناولوا فيها الشاى .. وكان حديث « كون » يدور كله — وقد صفا مزاجه — حول سيارته التى خلقها خلقا جديدا : « انك لن تعرفها بعد ان يتم طلاؤها ! » .. اما مسز بولاند ، فقد تناولت — وهى شاردة البال — ستة أقداح من الشاى الثقيل .. وبدأ الاولاد ببسكويت بالشيكولاتة ، واختتموا بتنازع آخر شريحة من الخبز ، وقد التهموا كل ما احتوته أطباق المائدة .

وبعد تناول الشاى ، اصرت مارى على ان تغسل الآنية ، لان كريستين كانت تبدو متعبة .. وأخذ أندرو الطفل الرضيع من ذراعى مسز بولاند ، وراح يلاعبه فوق البساط ،



امام المدفأة .. كان أسمن طفل رآه فى حياته ، ذا عينين واسعتين وادعتين ، وثنايا من الشحم فى جميع أعضائه .. ولم يكف الصغير عن محاولة وضع اصبعه فى عين أندرو ، وهو يبدى الحيرة والوجوم كلما اخفق .. أما كريستين ، فقد

جلست ويداها فى حجرها .. ترقب زوجها وهو يلاعب الطفل .

* * *

على ان « كون » واسرته لم يستطيعوا البقاء طويلا ، اذ بدأ ضوء النهار يخبو ، فأبدى « كون » قلقا بشأن « بطارية » السيارة ، كما انتابته هواجس — لم يشأ أن يجهر بها — بشأن مصابيحها .. حتى اذا نهضوا مودعين ، دعا مضيفيهما قائلا : « تعالا فانظرا كيف تنطلق بنا السيارة ! » .. فوقف أندرو وكريستين عند الباب ، بينما راح « كون » يحشر سلالته فى السيارة . وبعد لفتين باليد ، دبت الحياة فى المحرك ، فدس « كون » يديه فى قفازيه ، وأصلح من وضع قبعته ، ثم اومأ لمضيفيه مزهوا ، وقفز الى مقعد القيادة باعتزاز .. **وفى هذه اللحظة بالذات ، ترنحت السيارة ، وأرسلت أنينا ، ثم انهارت بمن فيها على الارض ، كدابة تنفق اعياء ..** وتحت بصر أندرو وكريستين — اللذين تولاهما الذهول — انفصلت العجلات ، وسمعت جلبة قطع تسقط .. وتقيأت السيارة سيلا من أجزائها ، ثم جمدت مفككة الاوصال ، وقد استوت على أرض الطريق ! .. وبعد ان كانت سيارة ، اذا بها — بعد لحظة — تغدو أشبه بقوارب الاراجيح ، فى مدينة للملاهى .. و « كون » فى المقدمة وقد تشبث بعجلة القيادة .. وزوجته فى المؤخرة تضم رضيعها بين ذراعيها ، وقد فغرت فاها ، وعلق بصرها بالفضاء !

وكان الذهول الذى تجلى على وجه « كون » — اذ هبط فجأة من عليائه — مثيرا الى درجة لا سبيل الى مقاومتها ، فانفجر أندرو وزوجته ضاحكين ، ولم يستطيعا أن يتمالكا نفسيهما فظلا يضحكان حتى خارت قواهما !

وصاح كون وهو يفرك رأسه ، وينهض : « عجيبة ! » .. واذ لاحظ ان احدا من الاطفال لم يصب بسوء ، وان مسز

بولاند ظلت فى مجلسها ـ وان شحب وجهها ـ راح يتأمل الحطام فى ذهول ، ثم هتف ـ وهو يتطلع الى نوافد الجيران ـ وقد خطرت له فكرة : « هذه عملية تخريب متعمد ! .. ان بعض غلمان الشارع قد عبثوا بها ولا ريب ! » . ثم أشرق وجهه ، وأمسك بذراع أندرو ـ الذى لم يكن يتمالك نفسه من الضحك ـ واراه فى زهو حزين مقدمة السيارة ، والمحرك لايزال يدور تحت غطائها فى اختلاجات واهنة .. وهتف : « اترى يا مانسون ؟.. لا يزال يدور ! »

وجروا الحطام ، كيفما اتفق ، الى الفناء الخلفى لدار مانسون. وما لبثت اسرة بولاند ان عادت الى دارها سيرا على الاقدام .. وهتف أندرو لزوجته اذ استعادا جوهما الهادىء : « ياله من نهار ! .. لن أنسى منظر وجه « كون » ما حييت ! » . وسيطر الصمت لحظة ، ثم التفت اليها متسائلا « هل استمتعت بعيد الميلاد ؟ » . **فأجابت بلهجة غريبة : « لقد استمتعت بأن اراك تلاعب طفل بولاند ! »** .. فنظر اليها متسائلا : « ولماذا ؟ » . فقالت وهى تتجنب أن تلتقى عيناها بعينيه : « لقد ظللت طيلة اليوم أحاول أن أفاتحك .. أواه ، أليس بوسعك ان تحدس يا حبيبى ؟.. اذن فلست طبيبا ذكيا ، سريع الخاطر ! »

— ١٣ —

• **ربيع** آخر ، ثم الصيف ، فاذا حديقة (فيل فيو) رقعة من ألوان هادئة لطيفة ، اعتاد عمال المناجم أن يقفوا عندها ، وأن يتأملوها معجبين ، وهم عائدون من عملهم .. وكانت هذه الالوان تنبعث من الشجيرات المزدهرة التى كانت كريستين قد زرعتها فى الخريف الماضى .. **أما الآن ، فقد أصبح أندرو يمنعها من القيام بأى عمل مضن . وقد قال لها بلهجة حازمة : « لقد اعددت عشنا ، فاجلسى الآن**

واستريحى ! »

وكان المكان المحبب الى نفس كريستين ، مقعدا فى طرف الحديقة الصغيرة ، الى جانب نافورة دقيقة الحجم ، حيث كانت تسمع خرير الماء المهدىء للاعصاب . وكانت هناك شجرة صفصاف وارفة تحجبها عن صفوف الدور المرتفعة المجاورة. فقد كان عيب الحديقة يتمثل فى ان اندرو وكريستين لم يكونا يستطيعان أن يجلسا فى أى مكان آخر منها ، اللهم الا عند مدخل الدار ، اذ كانت كل نوافذ الدور المجاورة تعمر بالمطلين ، وكان التهامس يدور : « آه ، هذا جميل ! تعالى وانظرى يافانى !.. ان الدكتور وزوجه يتشمسان ! » .. بل لقد حدث فى أيامهما الاولى ، ان أحاط أندرو خصر كريستين بذراعه — وهما مضطجعان على حافة الجدول — **واذا به يلمح وميض منظار مقرب كان مسددا من قاعة الجلوس فى منزل الشيخ « جلين جوزيف »** ، فهتف أندرو محنقا : « ياللشيطان ! .. ان الكلب المكتهل يسلط منظاره علينا ! » .. أما شجرة الصفصاف ، فكانت تحجبهما تماما عن الانظار ..

وفى هذا المكان ، راح أندرو يشرح لها سياسته ، وهو يعبث بالترمومتر ، اذ كان قد خطر له أن يقيس حرارتها ، مبالغة منه فى العناية بها ، مذ علم انها حبلى .. وقال : « تدركين ياكريس أن علينا أن نلتزم الهدوء ، فنحن لم نعد .. آه ، أقصد .. من عامة الناس . فأنت — على أية حال — زوجة طبيب ، وأنا .. أنا طبيب . لقد رأيت هذا يحدث مئات — او فى القليل عشرات — المرات ، وهو حادث عادى جدا .. انه ظاهرة طبيعية لبقاء النوع ، وما الى ذلك .. انك تدركين هذه الامور ، فلا تسيئى فهم مقصدى .. ان الامر بديع بالنسبة لنا ، طبعا ! .. والواقع اننى بدأت أعجب اذ اراك أشبه بصبية صغيرة بعض الشىء .. بل كثيرا .

اوه ! الحق انني مغتبط . لكن هذا ليس وقت ابداء العواطف .. أعني ان ليس لنا الآن ان نسرف في الاحاديث الحالمة ، بل لندع هذا لاى زوجين عاديين . الا يكون من السخف المضحك ان اشرع في .. ان استسلم للاحلام استلهمها من تلك الاشياء الصغيرة التي تنهمكين في حبكها من الصوف اوتطريزها، او ما لست ادريه ؟ ! .. كلا ، انني اقتصر على النظر اليها ، والغمغمة : « آمل أن تكون باعثة للدفء ! » .. ثم ذلك الهذر الذي يقال عما سيكون عليه لون عينيه .. أو عينيها ، وعن المستقبل الوردي الذي سنكفله للوليد .. هذا كله خارج عن طوقي ! » . وأمسك عن الحديث وعبس ، ثم ارتسمت على شفتيه ــ تدريجا ــ ابتسامة حائرة ، وهتف : **« ومع ذلك ، يا كريس ، فانى اتساءل : هل سيكون الجنين انثى ؟ »**

وضحكت كريس حتى سال دمعها على خديها .. وكان الضحك يتعبها حتى ان اندرو اعتدل في مجلسه وصاح : « كفى يا كريس ! .. انك قد تتعرضين لشيء ما ! » . فقالت وهي تجفف عينيها : « اواه يا حبيبي .. انني لاعبدك كفيلسوف عاطفي . أما كرجل جاد ، فلا أرجو لك في البيت بقاء ! » .. ولم يفهم ماتعني تماما ، ولكنه كان يدرك انه يتبع أسلوبا علميا ، مشوبا بالقلق ، ازاء حالتها .. وكان ــ في فترات الاصيل ــ يصحبها الى المتنزه العام ، حين يشعر بأنها بحاجة الى الرياضة ، اذ بات تسلق الاماكن العالية محرما عليها أثناء حملها .. وفي المتنزه العام ، كانا يروحان ويغدوان ، ويستمعان الى الموسيقى ، وينظران الى أبناء العمال الذين كانوا يفدون على المكان ليتناولوا الطعام في الهواء الطلق ، ومعهم ماء العرقسوس أو شراب الفواكه !

* * *

وفي ساعة مبكرة من صباح أحد أيام شهر مايو ، انتبه

اندرو – وهو بين النعاس واليقظة – الى حركة جد خفيفة .. وشعر مرة أخرى – اذ استيقظ – بتلك الحركة الرقيقة، الواهنة..أولى حركات الجنين الذى كان فى أحشاءكريستين .. فجمد فى مكانه ، لا يكاد يصدق الامر ، وقد غمره فيض من الانفعال والغبطة.وما لبث ان قال فى نفسه : ((**ياللجحيم ! .. لعلنى كأى زوج آخر ، برغم كل شىء .. احسب انهم لذلك وضعوا المبدأ القائل بأن الطبيب لايملك أن يعالج زوجه بنفسه !))**

ورأى فى الاسبوع التالى أن الوقت قد حان ليتحدث الى الدكتور ليولين فى الامر ، اذ كان قد اتفق مع كريستين – من البداية – على أن يتولى ليولين عملية التوليد .. واغتبط الرجل – حين أنبأه أندرو بالامر تليفونيا – ورأى فى اختياره تكريما . وأقبل لفوره ، فأجرى فحصا أوليا . ثم راح يتحدث الى أندرو فى « الصالون » . فقال وهو يتقبل منه سيجارة : « يسعدنى يامانسون أن أساعدك . لقد اعتدت ان اشعر بأنك لم تكن تميل الى بالدرجة التى تجعلك تسألنى اداءهذه المهمة . وصدقنى اذ أقول اننى سأبذل قصارى جهدى ،كن على يقين من هذا .. وبهذه المناسبة ، ان الجو فى (ابريالو) خانق فى هذه الايام ، الا ترى أنه يحسن بزوجك تبديل الهواء ، وهى بعد قادرة على الرحيل ؟ »

* * *

وما ان برح الدار ، حتى ساءل أندرو نفسه : « ما الذى دهانى ؟ .. اننى أميل الى هذا الرجل ، فهو فاضل ، فاضل جدا .. وهو عطوف ، بالغ الكياسة .. وهو ساحر فى مهنته! .. ومع ذلك فقد حاولت ان أقطع رقبته فى العام الماضى ! .. ما أنا الا ثور من ثيران المرتفعات ، عنيد ، غيور ، أبله ! »

وأبت كريستين الرحيل ، ولكنه راح يلحف فى اقناعها

بلطف : « اننى اعرف ياكريس ، انك لا تودين ان تتركينى ، ولكن هذا لخيرك . ان علينا أن نفكر فى .. أوه ! فى كل شىء. اتفضلين الذهاب الى شاطىء البحر ، أم تؤثرين الرحيل شمالا ، الى عمتك ؟ .. يا للشيطان ياكريس ، ان امكانياتى تسمح بنفقات سفرك الى هناك ، فنحن الآن فى ميسرة » .
وكانا قد سددا دين مؤسسة جلين عن آخره ، ودفعا آخر قسط من دين التأثيث ، وأصبحا يملكان نحو مائة جنيه مدخرة فى البنك . على ان هذا لم يكن هو الذى شغل ذهن كريستين حين أجابت فى رصانة ، وهى تشد على يده : «أجل يا أندرو ، ان لدينا من المال مايكفي ! »

واذ لم يكن من الرحيل بد ، فقد قررت الذهاب الى عمتها فى (بريدنجتون) .. وبعد اسبوع ، ودعها فى المحطة بعناق طويل وسلة من الفاكهة تستعين بها على متاعب السفر .. وافتقدها أكثر مما كان يتصور ، فقد أصبحت زمالتهماجزءا جوهريا من حياتهما . **وتبين مدى ما كانت تعنيه ـ بالنسبة اليه ـ احاديثهما ، ومناقشاتهما ، ومشاحناتهما ، بل و صمتهما أيضا ، والطريقة التى كان يناديها بها عندما يعود الى الدار ، وارتقابه ـ وهو مرهف السمع ـ تلبيتها المرحة !** .. ولقد أصبحت حجرة نومهما ـ بدونها ـ أشبه بغرفة فى أحد الفنادق . اما وجبات طعامه ـ التى كانت جينى تعدها له بأمانةواخلاص، وفقا لتعليمات مكتوبة تركتها لها كريستين قبل سفرها ـ فتحولت الى لقيمات لا طعم لها ، يتناولهاوهو منصرف الى أحد الكتب !

وبينما كان يتمشى على غير هدى فى الحديقة التى كانتمن نتاج يديها ، بهت لما صارت اليه حال القنطرة من تداع .. وآذى الامر شعوره ، ورأى فيه سبة لكريستين الغائبة . فلقد تحدث الى اللجنة مرارا بهذا الصدد ، وذكر للاعضاء ان القنطرة متهدمة ، ولكنهم كانوا شديدى الصلابة والتعنت

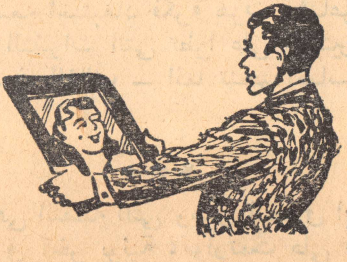
ازاء اصلاح بيوت الاطباء المساعدين . على انه بادر ـ اذ ذاك ، وتحت دافع عاطفى ـ الى الاتصال بالادارة ملحا فى هذا الامر الحاحا شديدا . وكان « أووين » متغيبا فى رحلة لبضعة أيام ، ولكن كاتب اللجنة أكد لاندرو أن قرارا قد اجيز فى هذا الشأن ، وان التعليمات قد أصدرت لريتشاردز مقاول البناء . فاذا كان العمل لم يبدأ بعد ، فانما كان ذلك لانشغال ريتشاردز بعملية أخرى .

وأصبح يذهب فى الامسيات الى « بولاند » ، كما ذهب مرتين الى أسرة فوجان فاستبقاه الزوجان ليلعب البريدج معهما . والفى نفسه مرة ـ لفرط دهشته ـ يلعب الجولف مع ليولين . وكتب رسائل الى هامبتون ، والى دينى الذى كان فى طريقه الى (تامبيكو) ، كطبيب على احدى ناقلات البترول .. **وكانت خطاباته الى كريستين نموذجا من النصائح والارشادات .. على ان الكتاب الذى شغل بتاليفه ، كان السلوى الرئيسية له فى غياب كريستين** . فان الفحوص « الكلينيكية » التى كان يجريها فى حفائر الفحم الحجرى ، راحت تسير قدما . ولم يكن بوسعه أن يتعجلها ، اذ ان مطالب مرضاه لم تكن تدع له مجالا لفحص العمال الا عندما يذهبون للاستحمام ، اثر صعود فرقهم من جوف الارض .. ولم يكن يملك اذ ذاك أن يستبقيهم طويلا ، وهم يتعجلون العودة الى بيوتهم لتناول العشاء . ومن ثم فقد كان يجرى فحصين ـ فى المتوسط ـ فى كل يوم . ومع هذا فان النتائج كانت مشجعة . وقد خلص فى وقت قصير ، وفى غير عناء كبير ، الى نتائج مباشرة ، **دلت دلالة قاطعة على أن عمال مناجم الفحم الانتراسيت أكثر تعرضا للاصابة بأمراض رئوية من غيرهم من عمال مناجم الفحم .**

ومع انه لم يكن يركن الى الكتب ، اعتدادا بنفسه ـ اذ انه لم يكن يرغب فى ان يتبين فيما بعد ، انه لم يفعل أكثر من

ان سار على آثار اقدام من سبقوه ـ الا انه اقبل على قراءة كل ما كتب فى هذا الموضوع ، فأذهله قلة ما كتب فيه .. ولاح كأن فئة قليلة من الباحثين هم الذين عنوا بالامراض الرئوية الناتجة عن المهن والحرف .. فعين « زينكر » ثلاثة أنواع من اصابات الانسجة الرئوية ، نتيجة استنشاق الغبار، وجمعها فى مصطلح واحد « بنيمونوكونيوزيس » .. ولقد عرف « الانثراكوزيس » ـ الناجم عن تسرب غبار فحم الانتراسيت الى الرئة ـ منذ زمن بعيد . **ولكن الامر وقف عند حد الاعتراف بوجوده ، فلم تمض البحوث قدما . لذلك كف أندرو عن قراءة هذه المؤلفات وقد أبرقت عيناه بنور الامل والتطلع ، اذ احس بأنه فى طريقه الى مجال لم يرتده أحد البتة ..** وراح يفكر فى جماهير العمال الذين يعملون تحت الارض ـ فى مناجم الفحم « الانتراسيت » الشاسعة ـ وفى قصور التشريع ازاء العلل التى تقعدهم عن العمل، وفيما لهذا النوع من البحوث من أهمية اجتماعية بالغة . يالها من فرصة ، وأية فرصة ! .. وسرت قشعريرة فى بدنه اذ خطر له ان أحدا غيره قد يسبقه ، بيد انه دفع عن نفسه هذا الخوف .

وراح يذرع حجرة الجلوس ، أمام المدفأة التى كانت نارها قد خبت ، اذ جاوز الوقت منتصف الليل بكثير ، واذا ببصره يقع



بغتة على صورة كريستين فوق الموقد ، فغمغم : « احسبنى مقدما على عمل يذكر حقا يا كريس ! » .. وفى بطاقات ابتاعها خصيصا لهذا العمل ، راح يصنف نتائج فحوصه ويقسمها .. وكانت براعته فى الفحوص الكلينيكية قد لمعت ، وان لم يفطن الى ذلك . كان الرجال يقفون أمامه فى الدهليز عاريى الصدور ، فيتحسس بأصابعه ، ويصغى خلال مسماعه الى الامراض الخفية فى تلك الرئات الحية .. هذه نقطة « سيليروز » ، وذلك ورم ناتج عن استنشاق الغاز ، والاخرى نزلة شعبية مزمنة مصحوبة بسعال خفيف . وكان يثبت الاضرار التى يراها ، على الجداول والرسوم البيانية المطبوعة فى ظهر كل بطاقة ، بعناية تامة .

وكان ــ فى الوقت ذاته ــ يجمع عينات من بصاق كل عامل ، ويعكف على فحصها حتى الثانية أو الثالثة صباحا ، خلال الميكروسكوب الذى كان دينى قد أهداه اياه ، ثم يسجل على البطاقات ما يكشف عنه الفحص . وقد وجد ان اكثر هذا اللعاب ــ الذى يسمونه فى تلك البقاع « البصاق الابيض » ــ يحتوى على جزيئات من « السليكا » لامعة ، حادة الزوايا .. وأذهلته كثرة الخلايا المجوفة ، وكثرة الجراثيم الدرنية التى كان نظره يقع عليها . على ان وجود « السليكون » المتبلور فى الخلايا المجوفة ــ باستمرار تقريبا ــ استرعى انتباهه بوجه خاص . ولم يسعه استبعاد فكرة هزت مشاعره .. فكرة أوحت اليه بأن التغيرات التى تطرأ على الرئتين ، والتلوثات التى تصحبها ــ فى الغالب ــ انما تنجم أساسا عن هذا العامل ..

***

وكانت هذه هى النقطة التى وصل اليها فى أبحاثه ، عندما عادت كريستين فى آخر يونية ، وارتمت على صدره قائلة :

« ما احلى العودة ! أجل يا حبيبى ، لقد استمتعت بالرحلة ، ولكن .. اواه ! لست أدرى تماما .. لكم أنت شاحب يا حبيبى ! لن أصدق ان جينى كانت تعنى بتغذيتك ! »

وكانت قد أفادت كثيرا من هذه الرحلة ، فأصبحت تبدو فى صحة جيدة ، وقد توردت وجنتاها . غير أنها اغتمت لفقدان زوجها شهيته ، واكثاره من التدخين .. وسألته باهتمام بالغ ، فى اليوم التالى لعودتها : « كم من الوقت يتطلبه منك هذا العمل الخاص ؟ » . وأجابها فى اقتضاب : « لست أدرى » .. وكان اليوم رطبا ممطرا ، وشعر أندرو بضيق غير مرتقب ، فأردف : « قد يستغرق عاما .. وقد يستغرق خمسة ! »

ـ اذن فاصغ الى .. اننى لا أسعى لتقويمك ، اذ يكفى الاسرة أن يكون فيها فرد واحد مستقيم الحال . ولكن ، الا ترى أن عليك أن تنظم عملك ـ مادام سيستغرق كل هذا الوقت ـ فتحدد اوقاتا منظمة ، ولا تسهر الى وقت متأخر فتقتل نفسك اعياء !

ـ لا داعى لشىء من هذا !

على ان كريستين عمدت الى اصرار واضح فى بعض الامور ، فأمرت جينى بأن تغسل أرض غرفة المعمل غسلا جيدا ، ونقلت اليها مقعدا مريحا وبساطا . وكانت الغرفة عليلة الهواء فى تلك الليالى القائظة ، ولاخشاب أرضها أريج كان يمتزج برائحة الاثير ، الذى كان أندرو يستعمله فى فحوصه . وأصبحت كريستين تجلس هناك ، تخيط أو تطرز ، بينما يعمل زوجها على منضدته . . وكان وهو عاكف على ميكروسكوبه ينساها تماما ، بيد أنها لم تكن تغفل عنه . فاذا ما حانت الساعة الحادية عشرة ، نهضت قائلة : « حان وقت النوم ! » . فيحملق فيها بنظرات شاردة ، ويقول : « آه ، اسمعى يا كريس .. اصعدى وسألحق بك بعد لحظة ! »

ـ اذا حسبت يا اندرو مانسون اننى سأنام وحدى ، وانا فى هذه الحال ..

وكانت هذه العبارة قد أصبحت ملحة فكهة فى حياتهما اليومية ، يستعملانها فى مداعباتهما ـ دون ان يقصدا معناها ـ كلما احسا بالاحتداد يتسرب الى مناقشاتهما .. وكان أندرو لا يلبث ـ اذ تقول له ذلك ـ ان ينهض ضاحكا ، فيغلق عدساته ويضع لوحاته فى الدرج ، وهو لايملك لها مقاومة !

وقرب نهاية يوليو انتشر مرض « الجديرى » بشكل وبائى ، مما شغل أندرو عن بحوثه . فما ان حان اليوم الثالث من أغسطس ، حتى كانت قائمة عياداته الخارجية طويلة مثقلة ، اضطرته الى أن يبقى فى جولته الصباحية الى مابعد الثالثة . وفيما كان عائدا الى داره ، فى ذلك اليوم ، تواقا الى أن يخلط غداءه بشاى الاصيل فيجعل منهما وجبة واحدة ، **لمح سيارة الدكتور ليولين أمام باب (فيل فيو) ، فعرته قشعريرة مباغتة ، اذ خطر له انه لم يكن ثمة غير معنى واحد لوجود هذه السيارة أمام داره !** .. وهرول الى البيت وقد تضاعفت خفقات قلبه قلقا وترقبا .. واجتاز الفناء فى قفزتين ، ودفع الباب الخارجى .. ووجد ليولين فى الردهة، فنظر اليه فى لهفة وانفعال ، وقال متلعثما : « أهلا بك يا ليولين ! .. لم أكن أتوقع ان اراك هنا ! » . فأجاب ليولين : « هذا صحيح » . وابتسم أندرو ، ثم تساءل : « وإذن ؟ » . ولم يجد ـ فى انفعاله ـ خيرا من هذه الكلمة، ولكن التساؤل الذى تجلى على وجهه كان واضحا .

ولم يرد ليولين ابتسامته بمثلها ، بل سكت لحظة وجيزة ، ثم قال : « تعال لحظة يازميلى العزيز ! » . وقاد أندرو الى قاعة الجلوس ، مستأنفا حديثه : « لقد حاولنا ـ طوال النهار ـ ان نجدك عند أحد مرضاك .. » . وكان فى مسلك ليولين،

وتردده ، ولهجته الحانية ، ما بعث قشعريرة باردة فى بدن أندرو ، فهتف متلعثما : « هل أصابها سوء ؟ » . فسرح ليولين بصره خلال النافذة ، نحو القنطرة ، وكأنه كان يبحث عن أفضل الايضاحات وأكثرها ترفقا . ولم يعد اندرو قادرا على الاحتمال ، فتهدجت أنفاسه ، وامتلأ صدره بألم خانق أثاره الشك والقلق .. وقال ليولين أخيرا ، فى رفق :

ــ مانسون .. بينما كانت زوجك تعبر القنطرة فى هذا الصباح ، هوى أحد الالواح المتداعية .. انها الآن بخير .. غير أننى أخشى ..

وأدرك أندرو كل شيء قبل ان يتم ليولين عبارته، فاستطرد ليولين يواسيه فى لهجة زاخرة بالاشفاق : « سيسعدك دون شك أن تعرف أننا قد فعلنا كل شيء . لقد قدمت على الفور ومعى كبيرة ممرضات المستشفى .. وقضينا النهار بطوله هنا .. » . ولم يتكلم أندرو .. وبدا الصمت موحشا ، ثم انبعثت من حلق أندرو شهقة ، فأخرى ، فثالثة .. وحجب عينيه بيده ، واجهش بالبكاء .. فراح ليولين يهيب به : « أرجوك يا زميلى العزيز .. منذا الذى يستطيع دفع حادث كهذا ؟ .. أرجوك .. أصعد لتواسى زوجك ! »

وصعد أندرو الدرجات وهو منكس الراس ، يتشبث بسياج السلم .. ووقف عند باب المخدع ، لا يكاد يقوى على ترديد انفاسه .. ثم دخل بخطى متعثرة !

— ١٤ —

• لم يحن عام ١٩٢٧ ، حتى كانت للدكتور مانسون شهرة فوق كل شهرة ، فى (أبيرالو) .. ولم يكن عدد مرضاه كبيرا ، فالواقع انه لم يزد كثيرا منذ تلك الايام الزاخرة بالانفعالات ، التى صادفها فى بداية عهده بالبلدة . بيد أن كل واحد من مرضاه كان يثق به ثقة مطلقة ، ولقد اعتاد أن لا يوصي بأدوية

كثيرة ، بل ان من الامور التى لا يكاد يصدقها العقل ، انه كان يحذر مرضاه من العقاقير . بيد انه كان يأمر — حين يلجأ اليها — بتعاطيها بجرعات كبيرة . فلم يكن من النادر أن يرى « جدج » يدلف الى غرفة الانتظار ، وبيده تذكرة طبية ، ليقول له : « **ما معنى هذا يا دكتور مانسون ؟.. جرعات من خمسين حبة لايفانز جونز !.. فى حين أن الدليل الصيدلى يقول أن الجرعة خمس حبات !** »

— وكتاب « احلام العمة كيت » يقول ذلك أيضا . اجعلها ستين حبة يا جدج ، فأنت تعرف جيدا انك ستسر كثيرا لموت ايفانز جونز !

ولكن مريض الصرع لم يمت ، بل على العكس شوهد بعد ثمانية ايام وهو يتنزه فى الحديقة العامة ، وقد قل عدد النوبات التى كانت تعتريه !

وكان خليقا باللجنة ان تولى الدكتور مانسون عطفا سابغا، لانه لم يكن يكبدها نصف مايكبدها اى طبيب آخر — من الاطباء المساعدين — من الادوية ، بالرغم من حوادث الانفجار. ولكن مانسون كان يكبد اللجنة — فى نواحى اخرى — اكثر مما كان يكبدها سواه ، للأسف . وكثيرا ما شن اعضاء اللجنة عليه حربا لاهوادة فيها . من ذلك انه كان يستعمل حقنا وامصالا مبهظة ، كان « ايد تشينكين » يقول عنها محتدا ان احدا لم يسمع بها . فلما دافع عنه اووين ، ذاكرا — على سبيل المثال — ما حدث فى ذلك الشهر من اشهر الشتاء ، اذ اوقف مانسون وباء السعال الديكى فى منطقته ، باستعمال حقن « بوردت » و « جينجو » ، بينما ظل الاطفال فى بقية البلدة يعانون منه آلاما لا تطاق .. حينما ذكر « اووين » ذلك ، احتج ايد تشينكين قائلا : « ومن يدرينا ان الطريقة الجديدة هى التى أدت الى هذه النتيجة ؟ كفى هراء ! لقد قال لى عندما سألته فى الامر ان احدا لا يستطيع الجزم بذلك ! »

وكما كان لمانسون أصدقاء أوفياء ، كان له أعداء .. كان بين اعضاء اللجنة من لم يغتفروا له تماما خروجه عن طوره، وعباراته الحانقة التى قذفهم بها فى وجوههم بمناسبة القنطرة ، أثناء اجتماع الجمعية العمومية ، قبل ثلاث سنوات ..
ولقد اشفقوا على مسز مانسون وعليه لما اصابهما من جراء القنطرة ، ولكنهم لم يعتبروا أنفسهم مسئولين عما حدث ؛ فان اللجنة لم تعتد العجلة فى أى امر ، وقد كان اووين فى اجازة ، وكان لين ريتشارد ـ الذى كلف بالعمل ـ مشغولا ببناء المساكن الجديدة فى شارع (بوويس) ، فمن التجنى لوم اللجنة !

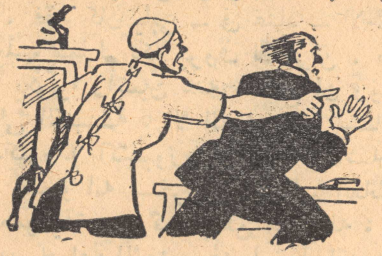
ولقد وقعت ـ بمضى الزمن ـ مشاحنات عديدة بين أندرو واللجنة . فقد كان يأبى ـ فى عناد ـ الا أن يسلك المسلك الذى يريد ، مما لم يكن يروق للآخرين . هذا ، الى ان رجال الدين لم يكونوا راضين عنه ، فمع ان زوجه كثيرا ما كانت تذهب الى الكنيسة ، الا انه لم يكن يشاهد فيها اطلاقا ـ وكان الدكتور « اكسبورو » أول من أشار الى هذا ـ وقد شاع عن أندرو انه سخر من التعاليم القائلة بالتغطيس الكلى فى ماء المعمودية .. وفضلا عن هذا كله ، فانه كان قد خلق لنفسه بين جماعة المؤمنين عدوا خطيرا ، هو القس « ايدوال بارى » ، راعى سيناء (١) . فلقد تسلل ايدوال فى ساعة متأخرة من احدى ليالى ربيع عام ١٩٢٦ ـ ولم يكن قدمضى على زواجه وقت طويل ـ الى عيادة مانسون ، وعلىأساريره سمات رجل الدنيا ، برغم مظاهر التقوى الواضحة . وبادره قائلا : « كيف أنت يادكتور مانسون ؟ .. كنت مارا من هنا مصادفة .. ان طبيبى اصلا هو الدكتور اكسبورو ، وهو احد افراد طائفتى كما تعرف ، وجارى فى الحى الشرقى .

---

(١) لقب كنسى

ولكنك طبيب ملم بأحدث المعلومات فى كافة النواحى والغايات، وقد تيسر لك ان تعرف كل جديد . ويطيب لى كثيرا ــ وسأدفع لك أتعابا لا بأس بها ، طبعا ــ لو انك استطعت ان تنصحنى فى .. » . **وأخفى حياء كهنوتيا خفيفا ، وراء مظهر الاهتمام بأمر دنيوى ، وهو يقول : « ان زوجتى واياى ــ كما تدرك ــ لا نريد أبناء ، لفترة من الزمن ، على أية حال .. طالما ان مرتبى .. كما تعلم .. »**

وتأمل مانسون راعى سيناء فى نفور بارد ، وقال فى رصانة: « أفلا تفطن الى ان هناك اشخاصا لايتقاضون ربع مرتبك ، ويتمنون لو بذلوا أعز ما يملكون ليكون لهم ابناء ؟.. لماذا تزوجت ؟ » . وانقلب استياؤه فجأة الى غيظ ، وصاح :



« أخرج من هنا .. اسرع ... اسرع ، ايها القذر المتمسح بالدين ! » . وانصرف بارى وعلى محياه مظهر غريب .. ولعل مسلك اندرو كان أعنف مما ينبغى ، ولكن القدر كان قد قضى على كريستين ــ منذ ان انهارت بها القنطرة ــ بأن لا يكون لها ابناء ، بينما كانا مشوقين الى أن ينجبا نسلا !

* * *

ولقد سأل اندرو نفسه ، وهو عائد الى داره ، فى الخامس عشر من مايو عام ١٩٢٧ : لماذا يبقى فى (ابيرالو) ، بعد أن اجهضت كريستين ؟ .. وكان الجواب فى غاية البساطة :

لقد مكث من أجل ابحاثه فى تسرب الغبار الى الرئتين . فان هذه الابحاث كانت تشغله ، وتملك عليه حواسه ، وتربطه بالمناجم . . ولقد دهش ــ وهو يستعرض ما قام به ، والصعاب التى ذللها ــ لقصر الوقت الذى انفقه فى اتمام الاستنتاجات التى توصل اليها . فلكم بدت له الفحوص الاولى بعيدة العهد ، عتيقة من حيث الوسائل الفنية التى اتبعت فيها !

أما وقد فحص حالة الرئة عند جميع عمال المنطقة فحصا اكلينيكيا ، ونسق نتائجه ، فقد بات لديه دليل واضح على ارجحية وجود أمراض رئوية عند عمال مناجم الفحم « الانتراسيت » . فاتضح له مثلا ، ان تسعين فى المائة من حالات تليف الرئة ، تنشأ عن مناجم الفحم « الانتراسيت » . كما وجد أن نسبة الوفيات بأمراض الرئة بين قدامى عمال هذه المناجم ، تقرب من ثلاثة اضعاف مثيلتها عند عمال جميع مناجم الفحم الاخرى . ورسم مجموعة من الخطوط البيانية تمثل نسبة الامراض الرئوية بين مختلف طوائف العمال فى مناجم الفحم الحجرى ، ثم شرع فى اثبات ان غبار « السليكا » الذى وجده فى البصاق ، كان موجودا فعلا فى آبار الفحم « الانتراسيت » . ولم يثبت ذلك بالاستنتاج فحسب ، بل بوضع لوحات زجاجية مطلية بالتربنتين الكندى ــ فى أوقات متغيرة ، وامكنة مختلفة من المنجم ــ وحصل على ارقام تمثل مختلف مراكز تجمع الغبار ، وهى ارقام ترتفع ابان العمل فى تفجير الاحجار . واصبح يملك مجموعة من المعادلات المثيرة الدالة على وجود صلة بين شدة تركز غبار « السليكا » فى الجو وبين شدة تزايد الامراض الرئوية . **وبقى عليه اثبات ان هذا الغبار ضار ، يفتك بالانسجة الرئوية ، وليس مجرد أثر ثانوى غير مؤذ** . وكان الامر يقتضيه اجراء سلسلة من التجارب الباثولوجية على الفئران لدراسة تأثير غبار « السليكا » على رئاتها .

وبدأت متاعبه الحقيقية عند هذا الحد الذى ازداد معه اهتمامه . فقد كانت لديه غرفة يخلو فيها الى هذا العمل ، هى التى أطلق عليها اسم « المعمل » .. وكان من السهل الحصول على بضعة فئران ، كما ان الادوات اللازمة كانت ميسورة . ولكنه — برغم نبوغه — لم يكن « باثولوجيا » ، ولن يكونه يوما ما . وقد أحنقه كثيرا ان فطن الى هذا الامر ، وان حفزه هذا الى المزيد من الاصرار بدرجة لم يعهدها من قبل . وسخط على النظام الذى كان يضطره الى ان يعمل بمفرده ، وحمل كريستين على أن تساعده . فعلمها كيف تقسم وتعد القطاعات ، فاذا بها تفوقه اتقانا للعملية ، فى فترة لا تذكر . ثم بنى — بطريقة بسيطة جدا — غرفة للغبار ، تعرض فيها الحيوانات ، خلال ساعات معينة من النهار ، لموجات مركزة من الغبار ، بينما تكون ثمة حيوانات غيرها غير معرضة له ، وذلك للتثبت من النتائج .. وكانت مهمة مضنية ، تقتضيه من الصبر أكثر مما يطيق . فقد كسرت مروحته الكهربائية مرتين .. وفى احدى المراحل الدقيقة من التجربة ، خلط كل ما كان لديه من وسائل مقارنة النتائج ، واضطر — فى النهاية — الى أن يبدأ كل شىء من جديد . **على انه برغم التأخير والاخطاء ، حصل على عينات تثبت — بمراحل تصاعدية — تلف الرئتين ، وعطب الانسجة ، من جراء الغبار .**

وهنا تنهد بعمق ، ارتياحا وسرورا ، وكف عن ارهاق كريستين ، وظل هادئا بضعة أيام . ثم راودته فكرة جديدة ، فعاوده التجهم . ذلك ان كل أبحاثه كانت تسير على اساس افتراض ان سوء حال الرئة ، ينجم عن اتلاف آلى تقوم به بلورات « السليكا » الصلبة ، الحادة ، التى تنفذ الى الرئة مع الهواء عند استنشاقه . ولكن اندرو اصبح يسائل نفسه فجأة : الا يحتمل أن يكون ثمة مفعول كيمياوى قد تغلغل وتوارى وراء الالتهاب البدني البحت الذى تسببه تلك الجسيمات ، فى

هذه المرحلة ؟ .. ولم يكن أندرو كيمياويا ، بيد انه كان - فى هذه الآونة - قد قطع شوطا بعيدا فى ابحاثه، فلم يعد بوسعه أن يقبل الهزيمة .. ومن ثم فانه رسم لنفسه سلسلةجديدة من التجارب ، فاستحضر قدرا من « السليكا » الصمغية ، وحقن به أحد حيواناته تحت الجلد ، فنتج عن ذلك تورم لم يلبث اندرو ان تبين ان من الممكن ان تحدث تورمات مشابهة له ، من الحقن بمحلول « السليكا » المائى ، وهو - بالنسبة للجسم - ليس مهيجا .. **فى حين انه تبين ان الحقن بمادة تحدث تهييجا موضعيا ، كجزيئات الكربون ، لا يسبب التورمات .. وكان هذا الاستنتاج نوعا من الانتصار ، اذ اظهر ان غبار « السليكا » كان ذا مفعول كيمياوى .**

وكاد ان يفقد لبه انفعالا واغتباطا ، اذ وصل الى نتيجة أكمل من تلك التى كان ينشدها . فجمع استنتاجاته - وهو كالمحموم - ورتب الوثائق التى تلخص عمل السنوات الثلاث الاخيرة .. **وكان قد قرر - منذ أشهر - ان لا يكتفى بنشر ابحاثه هذه ، بل يبعث بها كرسالة للحصول على الدكتوراه فى الطب . فما ان تلقى - من كارديف - نسخة منها بالآلة الكاتبة ، مجلدة تجليدا جيدا ، ومغلفة بغلاف مائل الى الزرقة ، حتى قرأها مبتهجا ، وذهب مع كريستين لارسالها بالبريد** .. ثم استولت عليه موجة من الاكتئاب ، وأحس بالاعياء الشديد . فقد ادرك - كما لم يدرك فى اى وقت مضى - انه لم يكن ممن يجيدون الابحاث المعملية، وان افضل جزء من عمله - الجزء الذى يمتاز بقيمة اكثر - هو تلك المرحلة من الابحاث « الكلينيكية » .. وتذكر - فى نوبة من وخز الضمير - كم من مرة غضب على كريستين المسكينة . وظل أياما فى حالة نفسية سيئة ، لا يميل الى شىء ، ولا يتذوق شيئا .. ومع ذلك، فقد كانت تمر به لحظات اشراق، يلمس فيها أنه قد توصل - بعد كل شىء - الى نتيجة ما !

— ١٥ —

• **كان** أندرو عند عودته الى داره ـ عصر يوم من أيام مايو ـ مكتئبا ، مهموما ، وقد استولت عليه تلك النوبة من الانقباض التى أخذت تعاوده منذ ان قدم رسالته ، حتى لقد فاته ان يلحظ ما كان على وجه كريستين من علامات الحزن والاسى ، فحياها وهو شارد الذهن ، وصعد ليغتسل ، ثم هبط ليتناول الشاى .. وما ان فرغ منه وأشعل لفافة تبغ ، حتى فطن فجأة الى ملامحها ، فسألها وهو يتناول صحيفته المسائية : « ماذا بك ؟ » .

وتظاهرت بأنها تفحص ملعقتها لحظة ، ثم قالت : « لقد جاءنا .. او ـ بالاحرى ـ جاءنى زوار فى غيبتك » . فهتف : « احق هذا ؟ .. ومن هم ؟ » .

ـ وفد من اللجنة .. خمسة أعضاء ، بينهم ايد تشينكين يتبعه بارى ـ راعى سيناء ، كما تعرف ـ وشخص يدعى ديفيز ..

وساد صمت ممض ، ابتلع أندرو خلاله نفسا طويلا من دخان سيجارته ، ثم ترك صحيفته لينظر الى زوجته متسائلا : « وماذا كانوا يريدون ؟ » . فحدجته بنظرة متفحصة ، وقد كشفت ـ لاول مرة ـ عما كان يساورها من قلق واستياء ، ثم قالت فى عبارات متسارعة : « لقد جاءوا قرب الساعة الرابعة ، وسألوا عنك . فقلت لهم انك فى الخارج . وأجاب بارى بأن وجودك غير مهم ، وأنهم يريدون الدخول . واخذت على غرة ـ بطبيعة الامر ـ فلم اعرف ماذا كانوا يرغبون فى انتظارك .. **وحينئذ أعلن ايد تشينكين ان الدار ملك للجنة التى هم ممثلوها ، وان لهم الحق ـ باسم اللجنة ـ فى دخولها** .. ولم أبد حركة ما ، فقد كنت محنقة مضطربة . بيد اننى استطعت ان اسألهم عما يدعوهم الى الرغبة فى الدخول .

وهنا تكلم بارى ، فقال أنه ترامى لسمعه ولسمع اللجنة ايضا ، بل ان البلدة كلها تتحدث عن انك تجرى تجارب على الحيوانات ، و « تقتطع من أجسادها وهى حية » كما قال.. من اجل هذا جاءوا يفتشون معملك مستصحبين السيد ديفيز رئيس جمعية الرفق بالحيوان ! »

ولم يبد أندرو حراكا ولا انقطع عن تركيز بصره عليها . بل قال فى هدوء : « امضى يا حبيبتى ! » . فاستطردت قائلة : « ولقد حاولت اعتراض سبيلهم ، ولكن بدون جدوى . فقد سار سبعتهم ببساطة واجتازوا الردهة الى المعمل . وما ان لمحوا الفئران حتى زأر بارى قائلا : « أواه ! ياللمخلوقات الصغيرة المسكينة ! » . واشار تشينكين بأصبعه الى البقعة التى على الارض ، حيث سقطت منى زجاجة المحلول الاحمر ، وصاح : « أنظروا ! .. هذا دم ! » . وبحثوا فى كافة الارجاء ، وفحصوا قطاعاتنا البديعة و « الميكروتوم » ، وكل شىء .. ثم قال بارى : « لن اترك هذه المخلوقات هنا لتعذب من جديد . . انى اوثر قتلها حتى لا تعانى آلاما ! » . وتناول الكيس الذى كان ديفيز يحمله ، وحشر فيه كل حيواناتنا .. وحاولت أن أوضح له ان ليس فى الامر تعذيب او عمليات جراحية تجرى على هذه الحيوانات ، أو أى شىء من هذا القبيل ، واننا — على أية حال — لم نكن نعتزم اجراء تجارب على هذه الفئران الخمسة ، وانما كنا نعتزم اعطاءها لابناء بولاند ولآجنس الصغيرة . ولكنهم أبوا الاستماع الى أى شىء .. ثم انصرفوا ! »

وساد الصمت فترة ، ثم اعتدل اندرو ، وقد اكفهر وجهه ، وقال : « لم أر فى حياتى غباء أغلظ من هذا . انه لمن البشاعة بمكان ان تضطرى ياكريس الى احتمال هذا الحمق ، ولكنهم سيدفعون لى الثمن ! » . . وفكر لحظة ، ثم ذهب الى الردهة ليتكلم بالتليفون ، ولكنه لم يكد يمد يده الى الجهاز ، حتى

دق جرس التليفون .. وهتف مهتاجا : « هالو ! » . ثم خفف من حدة صوته ، اذ كان المتكلم — فى الجانب الآخر — هو اووين : « نعم، انا مانسون .. اصغ الى يا اووين .. » . فقاطعه سكرتير اللجنة متعجلا : « اعرف ، اعرف يا دكتور . ولقد حاولت طيلة بعد ظهر اليوم أن أراك . والآن أستمع الى! لا ، لا ، لاتقاطعنى ! يجب ان نضبط انفسنا .. هذه قصة لعينة يادكتور . لا تزد كلمة واحدة فى التليفون ، وسآتى اليك فورا . »

وعاد اندرو الى كريستين فروى لها الحديث ، وعقب قائلا فى غضب : « ماذا يعنى ؟ .. يبدو كأننا نستحق اللوم ! » . واخذا ينتظران قدوم اووين .. وراح اندرو يذرع المكان جيئة وذهابا ، مضطربا ، نافد الصبر ، مهتاج الخاطر .. بينما كانت كريستين تتكلم بادية القلق . ووصل اووين — اخيرا — فلم تش ملامحه بشىء مطمئن .. وبادر قائلا ، قبل ان يتمكن اندرو من ان يفوه بكلمة : « هل حصلت على ترخيص يادكتور ؟ » . فرمقه اندرو بنظرة متفرسة ، وقال : « حصلت على ماذا ؟ .. أى ترخيص تعنى ؟ » . **فازداد وجه اووين اكفهرارا ، وهو يقول : « لاجراء تجارب على حيوانات ، يجب الحصول على رخصة من وزارة الداخلية .. ألم تكن تعرف هذا ؟ »**

— لكن ، يالشيطان ! .. اننى لست — ولن اكون يوما — باثولوجيا ، وليس لدى معمل كيمياوى ، وانما اردت فقط القيام ببعض اختبارات تتصل بعملى الكلينيكى .. اننا لم نستخدم فى هذا كله اكثر من اثنى عشر فأرا . اليس كذلك يا كريس ؟

— كان عليك يادكتور ان تحصل على هذه الرخصة ، فان فريقا من اعضاء اللجنة يكيد لك فى هذا الامر . انت تدرك يادكتور ان رجلا مثلك يسير قدما ، ويقول بأمانة مايعتقد ،

خليق بأن .. من العدل - على كل حال - ان تعرف ان هناك جماعة تتحرق لطعنك . لكن ، لا بأس ! .. ستسوى المسألة فى النهاية ! .. لسوف تثار الضجة المعتادة فى اللجنة ، وسيكون عليك أن تمثل أمامها .. يحتمل هذا . ولكنك واجهت متاعب امامها قبل اليوم وانتصرت .. وستعرف كيف تخرج من هذه المسألة أيضا !

- سأتخذ اجراءات مضادة . سأقاضيهم ل .. لانتهاك حرمة بيتى ! لا ، بل سأقاضيهم لسرقة فئرانى . يجب ان ترد لى هذه الفئران ..

- لن تراها ثانية يادكتور ، فلقد قال القس بارى ، وايد تشينكين ، انه لابد من وضع حد لعذاب هذه الحيوانات المسكينة ، وباسم الانسانية اغرقاها بأيديهما !

* * *

وانصرف اووين آسفا . وفى مساء اليوم التالى ، تسلم اندرو اعلانا بالحضور امام اللجنة ، فى اليوم الثامن من تاريخ ذلك الاعلان .. وفى تلك الاثناء ، انتشرت القصة انتشار النار فى الهشيم . ولم يثر الخواطر فى (أبيرالو) حادث - منذ اتهم المحامى « تريفور داى » بتسميم زوجته بالزرنيخ - كما اثارها هذا الحادث . فقد انقسم القوم الى شيع ، وجمح الخيال بهم ايما جموح .. وراح « ايدوال بارى » يهدد من فوق منبر وعظه ، مذكرا بالعقاب - الذى يحل فى هذه الدنيا وفى الآخرة - باولئك الذين يعذبون الحيوانات والاطفال الصغار . وفى الطرف الآخر من المدينة ، راح القس « ديفيد والبول » راعي الكنيسة الانجيليكية البدين ، الذى كان ينظر الى بارى نظرة المسلم المتدين الى الخنزير .. راح يطلق خطبا رنانة حول التقدم ، والخلاف السائد بين كنيسة الله الحرة وبين العلم .. **حتى النساء نهضن للاشتراك فى المعركة ! ..**

فوقفت الآنسة مايفانوى بينسوسان ـ رئيسة « رابطة نساء ويلز » فى ايرالو ـ تتكلم فى اجتماع حاشد . والحق أن اندرو لم يكن قد اساء بحال الى الانسة « مايفانوى » عندما رفض ان يراس الجمعية العامه السنوية لنساء ويلز ، فضلا عن انه ابدى للرفض اسبابا تدل على تجرده التام من كل قصد شخصى . غير انه بعد الاجتماع ، وفى الامسيات التالية، اخذت فتيات من اعضاء الجماعة ـ اللائى لم يكن ينشطن فى الشوارع الا يوم جمع الاكتتابات ـ يوزعن علنا نشرات عنيفة ضد اجراء التجارب الجراحية على الحيوانات ، وكانت تزين هذه النشرات صورة تمثل كلبا وقد ظهرت احشاؤه بوضوح تام !

وقص كون بولاند على أندرو ـ فى مساء الاربعاء ـ قصة مرحة بالتليفون : « كيف أنت يا فتاى مانسون ؟ .. ارجو ان تكون مرفوع الراس دائما .. حسنا ، اسمع قصة تسليك : بينما كانت فتاتنا مارى عائدة من عملها فى محل « لاركن » ، استوقفتها احدى جامعات التبرعات الغبيات ، وقدمت لها نشرة من تلك النشرات التى تروج فى هذه الايام عن صنوف القسوة التى تمارسها . اتعرف ؟ .. ها ، ها ، ها ! .. أتعرف ماذا فعلت مارى ؟ أخذت النشرة ومزقتها وصفعت البائعة بضع صفعات طيبة ، وقذفت بقبعتها الى الارض ، وقالت لها ـ ها ، ها ! **ماذا تظن ان مارى قالت لها ؟ ـ قالت : « اذا كانت القسوة هى التى تغضبك ، فانى مذيقتك شيئا منها ! » .. واخريات غير مارى اشتبكن مخلصات بالايدى ! »**

واذا كانت منطقة أندرو قد ساندته بقوة ، فقد كان فى جانب العيادة الشرقية كثير من الجماعات المعادية . ونشبت فى الحانات معارك بين انصار اندرو وخصومه . واقبل فرانك ديفيز ـ مساء الخميس ـ الى العيادة وقد مسه بعض الضر ،

فروى لاندرو انه انهال بالضرب على اثنين من مرضى اكسبورو « لاجترائهما على القول بأن طبيبنا جزار حقير ! » .. وأخذ الدكتور اكسبورو - منذ ذلك اليوم - يسرع الخطى ، ويشيح ببصره ، كلما صادف اندرو .. وبات معروفا انه كان يعمل جهرا مع القس بارى ضد زميله غير المرغوب فيه. أما اوركهارت ، فقد عاد من النادى الماسونى يحمل التعليقات المسيحية ، التى قد يكون اهمها : « لماذا يستبيح طبيب ، كائن من كان ، لنفسه أن يقتل مخلوقات الله ؟ » .. ولم يكن لدى اوركهارت ما يقوله فى هذا الصدد ، سوى القليل . على أنه قال يوما وهو ينظر الى وجه اندرو المتجهم : « يالله ! .. لقد استمتعت - عندما كنت فى سنك - بمأزق مثل هذا . أما الآن .. فأعتقد اننى هرمت وحق الشيطان ! »

ولم يسع أندرو الا ان يعتقد ان اوركهارت كان مخطئا فى تصور حالته . فان هذا « المأزق » كان ابعد الاشياء عن ان يمتعه .. وكان يحس بأنه مضنى، مهتاج الاعصاب ،مهموم. وبات يتساءل فى مرارة : هل كتب عليه ان يقضى حياته وهو ينطح الصخر ؟ .. على انه - برغم حالته المعنوية - كان يتوق فى استماتة الى الدفاع عن نفسه ، والى ان يثأر لها جهارا امام البلدة الظالمة !

وأخيرا انقضى الاسبوع ، واجتمعت اللجنة عصر يوم السبت للنظر فيما ذكر فى جدول الاعمال بأنه « تحقيق تأديبى » مع الدكتور مانسون ! .. ولم يكن فى القاعة مكان واحد خال .. واحتشدت جموع من النـاس خارج المبنى . وأقبل أندرو فصعد السلم الضيق ، وهو يحس بدقات قلبه تتسارع فى عنف . وكان قد عاهد نفسه على ان يبقى هادئا رصينا ، ولكنه حين جلس على المقعد الذى احتله قبل خمس سنوات كمرشح لمنصبه ، بدا متجهما ، متوتر الاعصاب ، جاف الشفتين .

وافتتحت الجلسة ـ لا بصلاة كما يحق لك ان تتوقع هلى ضوء النهج الورع الذى إنتهجته المعارضة فى شن حملتها ـ وانما بخطاب متقد من تشينكين . اذ نهض وقال : « سأبسط كل وقائع الدعوى امام زملائى اعضاء هـذه اللجنة » . ثم اخذ يعدد الاتهامات ، واحدا بعد الآخر ، فى لغة الشخص غير المتعلم : « لم يكن من حق الدكتور مانسون ان يزاول هـذه الاعمال .. لقد كان يؤديها فى وقت هـو ملك للجنة ، رغم انه يتقاضى مرتبا للقيام بمهمة غير هـذه الاعمال لحساب اللجنة . وفوق هذا ، فقد زاول اعماله فى دار مملوكة للجنة. هذا الى انها كانت جراحات تجرى على حيوانات حية ، أو شيئامن هذا القبيل.. ثم انه لم يكن قد حصل على الترخيص الواجب ، مما يعتبر جريمة خطيرة فى نظر القانون » !

وهنا تدخل اووين فى حماس قائلا : « من واجبى ان انبه اللجنة ـ ازاء هذا الاتهام الاخير ـ الى أنهـا اذا ابلغت عن الدكتور مانسون ، لاهماله الحصول على هـذا الترخيص ، **فان اية دعوى قضائية تقام نتيجة لهـذا البلاغ ، ستشمل جمعية الاسعاف الطبى فى مجموعها !** » . فسأله تشينكين محتـدا : « ما الذى تعنيـه ، بحق الشيطان ؟ » . فأجاب اووين محددا كلامه : « انه طبيب مساعد عندنا ، فنحن مسئولون قانونا عن الدكتور مانسون ! » .. وهنـا سمعت همهمة تحبيذ ، وصاح البعض : « اووين على حق ! .. نحن لانريد متاعب للجنة . فلنسو هذه المسألة فيما بيننا ! » . فزأر تشينكين وهو لايزال واقفا : « الى الجحيم اذن تهمة الترخيص اللعين ، ففى الاتهامات الاخرى مايكفى لشنق اى انسان ! »

وصاح صـوت من طرف القـاعة : « بديع ، بديع ! .. ماقولكم فى تلك الرحلات التى كان يقوم بها على دراجةبخارية الى (كارديف) صيفا ، قبل ثلاث سنوات ؟ » .. وقال لين

ريتشارد فى حدة : « انه لا يصف ادوية للمرضى ، وقد ينتظر المريض ساعة امام العيادة ، دون أن يحصل على زجاجة دوائه ! » .. فأرعد تشينكين : « النظام ! النظام ! » . حتى اذا عاد الهدوء ، مضى يقول : « هذه الاتهامات جميعا بالغة الخطورة ، وهى تثبت ان الدكتور مانسون لم يكن فى وقت من الاوقات خادما امينا لجمعية الاسعاف الطبى . ويمكننى أيضا أن أضيف الى ما ذكرت انه لا يعطى رجالها الشهادات المرضية المطلوبة .. بيد ان علينا ان نقتصر على الوقائع الجوهرية . **امامنا مساعد ثارت عليه البلدة كلها ، لمسلك كان ينبغى عدلا ان يحاكم عنه أمام القضاء .. أمامنا رجل جعل من دارنا مجزرا ، واقسم بالله القدير – يا زملائى الاعزاء – انى رأيت بعينى دما على أرض الغرفة ! .. رجل لا عمل له سوى اجراء التجارب .. رجل مجنون ! ..** وانى لاسألكم يا أصدقائى : أتجيزون هذا ؟ .. اقول : «لا» .. و « لا » ستقولون . أيها الزملاء ، انى أعرف انكم جميعا تقروننى ، وأنا أعلن اننا نطالب باستقالة الدكتور مانسون فورا ! »

وأجال تشينكين بصره فى اصدقائه ، وجلس وسط عاصفة من التصفيق . فقال اووين – وهو غير مقتنع بما سمع – وقد التفت الى اندرو : « ستسمحون دون شك للدكتور مانسون بالدفاع عن نفسه ! »

* * *

وساد الصمت .. وظل مانسون لحظة بدون حراك ، فقد كان الموقف أسوأ مما حسب ، وساوره شعور بأنه لايخلق به أن يطمئن الى اللجنة .. أهؤلاء هم القوم الذين ابتسموا له بحرارة يوم عينوه ؟ .. واحس بقلبه ينفطر ! .. ولكنه لن يرتضى الاستقالة ، مهما تكن الحال ! .. وما لبث ان نهض



ليتكلم . ولم يكن خطيبا ، وكان يدرك هذا ، ولكنه كان مغضبا ، فضاع انفعاله العصبى فى سيل دافق من استنكار ـ ناض من نبع كرامته ـ لما انطوى عليه اتهام تشينكين من جهل وغباء لا يطاقان ، وللهتافات التى قوبل بها هذا الاتهام ! **واستهل الكلام قائلا : « ان أحدا ـ فيما يبدو لى ـ لم يقل شيئا عن الحيوانات التى اغرقها ايد تشينكين . لقد كان هذا قسوة ، ولكم ان تقولوا قسوة بدون داع ، وبغير جدوى!** .. ولم يكن فيما فعلته شىء يشبه ذلك . لماذا تجيئون انتم بأعمال المناجم بفئران وكناريا الى الاعماق ؟ .. لتتبينوا وجود الغاز الملتهب ، وانكم جميعا لتعرفون هذا ! .. فاذا اختنقت هذه الفئران بفعل الغاز ، فهل تسمون هذا قسوة ؟ .. قطعا لا ، اذ انكم تدركون ان هذه الحيوانات قد استخدمت لانقاذ أرواح بشرية ، بل ربما ارواحكم انتم بالذات ! .. وهذا ماجهدت ان افعله من اجلكم . فلقد عكفت على دراسة امراض الرئة التى تصيبكم من جراء الغبار فى الآبار .. فأنتم جميعا تعرفون انكم معرضون لامراض صدرية ، وانكم عندما تصابون بها لا تمنحون تعويضا . ولهذا كرست خلال هذه السنوات الثلاث الاخيرة كل دقيقة تقريبا من أوقات فراغى ، لدراسة مشكلة الغبار الذى يتسلل الى رئاتكم مع أنفاسكم ، **وحصلت على نتيجة يمكن ان تؤدى الى تحسين ظروف وأحوال عملكم ،**

والى رفع أجوركم ، والمحافظة على صحتكم ، خيرا مما تفعل زجاجات الادوية الملوثة التى تحدث عنها لين رينسارد ! ..
فاذا كنت قد استخدمت نحو اثنى عشر فارا ، أفلا تحسبون — بعد هذا — ان الامر الذى أهدف اليه يستحق ذلك ؟ »
« لعلكم لا تصدقوننى ، فلقد قيل لكم فى حقى الشىء الكثير ، بحيث انكم قد تظنون ان بوسعى ان اخدعكم وكذب عليكم . وربما تصورتم أيضا اننى قد أضعت وقتى — وهو ملك لكم ، كما تقولون — فى القيام بمجموعة من التجارب السخيفة .. ! » . وهنا بلغ به الغضب حدا نسى معه قراره الحاسم بألا يتهور . فدس يده فى جيبه الداخلى ، واخرج خطابا كان قد تسلمه فى بداية الاسبوع ، واستطرد قائلا :
« اليكم مايراه الآخرون .. مايراه اشخاص يحق لهم الحكم فى الامر ! »
واتجه نحو اووين فأعطاه الخطاب . وكان تبليغا من سكرتير المجلس الاعلى لكلية « سانت اندروز » الطبية ، يخبره فيه بأنه قد منح « الدكتوراة » فى الطب ، بناء على رسالته عن الغبار الذى يتسرب مع الهواء الى الرئة . فأشرق وجه اووين فجأة وهو يقرأ الخطاب ، الذى مالبثت الايدى ان تناقلته . واستاء أندرو اذ رأى الاثر الذى أحدثه بلاغ المجلس الاعلى . وعلى الرغم من شدة تطلعه الى اثبات براءته ، فانه آسف — أو كاد — اذ أطاع ايعازه النفسى الذى دفعه الى اظهار الخطاب . ذلك لانهم اذا لم يكونوا قد صدقوا قوله — دون حاجة الى اثبات رسمى — فذلك راجع ، بلا ريب ، الى أن السعاية ضده قد فعلت فى نفوسهم فعلها . وأحس بأنهم — سواء أظهر الخطاب أو لم يظهره — كانوا مصممين على أن يجعلوا منه مثلا رادعا .. وهدأ روعه حينما قال أووين أخيرا :
« والآن يادكتور ، ارجو ان تتفضل بتركنا قليلا ! »
وظل قلقا ، يغلى الدم فى عروقه سخطا ، وهو ينتظر فى

خارج القاعة ريثما تؤخذ الاصوات فى قضيته .. **كانت فكرة مثاليه رائعة أن تشرف جماعة من العمال على الخدمات الطبية فى مجتمعهم لفائدة زملائهم ، ولكنها كانت .. مجرد فكرة مثالية ! .. فقد كانوا يقضون فى الامور بغير تبصر ، ولم يكونوا على جانب من الذكاء يمكنهم من تحقيق المشروع بروح تقدمية ..** وشد ما كان اووين يعانى لكى يجعلهم يسيرون وراءه ! .. وايقن اندرو من ان حسن نيـة اووين ما كان لينقـذه فى مثل هذه الظروف ! .. غير أن السكرتير كان يفرك يديه مغتبطا ، عندما عاد اندرو الى القاعة .. وراح أعضاء آخرون ينظرون اليه بمزيد من الود عن ذى قبـل .. أو بغير عداء ، على الاقل . ونهض اووين على الفور ، وقال : « **يسرنى يادكتور مانسون ، بل يمكننى القول بأننى شخصيا مغتبط اذ أبلغك بأن اللجنة قررت بالاغلبيه ان ترجوك البقاء فى منصبك !** »

لقد ربح أندرو المعركة .. لقد انتصر . بيد انه – بعد خفقة ارتياح خاطفة – لم يبتهج لهذا الانتصار .. وساد الصمت المكان . وكان الجميع ينتظرون – دون شك – ان يبدى الطبيب الظافر ارتياحه وشكره . ولكن هـذا لم يكن فى مقدوره .. فقد أحس بأنه سئم كل هـذا الوسط الموبوء : اللجنة ، و (ابيرالو) ، والطب ، وغبار (السليكا) ، والفئران ، و .. نفسه . فلم يلبث ان قال : « أشكرك ياسيد اووين ، ويسرنى – بعد كل ماحاولت ان افعله هنا – أن تبدى اللجنة رغبتها فى بقائى . **ولكن يؤسفنى أشد الاسف اننى لا استطيع البقاء بعد الآن فى أبيرالو ، ولذلك فاننى انبىء اللجنة بأنى سأترك منصبى بعد شهر من اليوم !** »

وكان يتكلم فى غير انفعال ، ثم استدار وبرح القاعة . فسادها صمت كصمت القبور . وكان تشينكين اول من استعاد هدوءه ، فقال فى حدة : « تخلص حسن ! » . وهنا بادره اووين بأول انفجار فى الغضب يصـدر منه فى قاعة

الجلسة ، اذ صاح : « كفى سخفا يا تشينكين ! » . وطرق المنضدة بمسطرته فى عنف ، وهو يردف : « اننا نفقد خير طبيب عرفناه حتى الآن ! »

— ١٦ —

• فى منتصف الليلة التالية ، استيقظ اندرو مهمهما : « اترينني مغفلا يا كريس ، اذ أبدد كل شيء .. اد اضحى بمركز حسن ؟ .. لقد بدات اكتسب — فى الفترة الاخيرة — بعض عملاء شخصيين ، وكان مسلك ليولين معى بديعا . هل قلت لك انه وعدنى تقريبا بأن يسمح لى بأن امارس بعض الفحوص فى المستشفى . أما اللجنة .. فان اعضاءها — باستثناء عصبة تشينكين — ليسوا بجماعة سوء ، واعتقد انهم قد يعينوننى كبيرا للاطباء اذا تقاعد ليولين ! »

وقالت تسرى عنه ، فى هدوء وتبصر ، وهى مستلقية الى جانبه فى الظلام : « ما اراك تبغى ان نبقى حياتنا كلها فى بلدة للتعدين بمقاطعة ويلز يا حبيبى ؟ .. لقد كنا سعيدين هنا ، ولكن آن لنا ان نبرح ! » . فهتف : **« لكن اسمعى ياكريس ، اننا لا نملك مالا نشترى به عيادة قائمة .. كان علينا أن نقتصد مزيدا من المال ، قبل ان نركل هذا المنصب ! » ..** فأجابته بصوت مثقل بالنعاس : « وما شأن المال بهذا ؟ .. ثم اننا سننفق كل ما عندنا — أو جله — لنستمتع بأجازة حقيقية . أنسيت أننا لم نبرح هذه المناجم اللعينة منذ أربع سنوات تقريبا ؟ »

وسرت اليه عدوى حماسها . ففى صباح اليوم التالى ، بدت الدنيا لناظرى « اندرو » مليئة بالبهجة ، خالية من دواعى الهم جميعا .. وقال وهو يتناول فطوره فى ابتهاج جديد : « انك فتاة لا بأس بها ياكريس . فبدلا من ان ياخذك الزهو فتقولين انك تنتظرين مني منذ اليوم امورا رائعة ،

وانه قد آن لى أن اظهرك ، وان اجعل لك مكانا فى الدنيا ، اذا بك تقنعين .. » . ولم تصغ اليه ، بل قاطعته قائلة : « ليتك لا تطوى الصحيفة فتجعل منها سدادة زجاجة ، يا حبيبى ! .. كيف يمكننى ان أقرأ صفحة فلاحة الحدائق أنتى اعتدت قراءتها ؟ » . فقال : « لا تقرئيها ! » . وعانقها وهو يتجه نحو الباب ، ثم اضاف مبتسما : « بل فكرى فى ! » .

واستشعر فى نفسه الاقدام والاستعداد للمغامرة وخوض معركة الحياة . ولكن درايته بالامور كانت تدفعه الى أن يفحص ماله من ميزات .. كان حاصلا على درجة زميل فى جمعية الطب الملكية ، ودرجة دكتور فى الطب ، وكان له فى المصرف ما يربو على ثلاثمائة جنيه . واذن فما كان ليموت وزوجته جوعا ، وهما يملكان كل هذا الرصيد ، ومن ثم فقد اغتبط بقرارهما الموفق .

وكان قد حدث تحول تام فى رأى المدينة منه ، فأصبح الجميع يتمنون بقاءه ، بعد اذ آثر ان يرحل باختياره . وقد بلغ التحول ذروته بعد اسبوع ، اذ جاءه وفد من اللجنة برئاسة « اووين » يرجوه العدول عن قراره ، ولكن دون جدوى . وكان من جراء هذا ان اتخذ السخط على تشينكين شكلا عنيفا ، فأصبح الناس يسخرون منه فى الشوارع . وحدث مرتين أن تعقبوه من المنجم حتى داره ، وهم يطلقون صفير الاستهجان ، على نسق مايفعل العمال بأى شخص يخون قضية لهم . وازاء هذه الهزات فى الوسط المحلى ، بدا من الغريب ان لايبدى العالم الخارجى اكتراثا يذكر برسالته التى أكسبته درجة دكتور فى الطب . وكانت صحيفة « الصحة والصناعة » قد نشرتها فى انجلترا ، كما نشرتها — فى الولايات المتحدة — « جمعية الصحة العامة الامريكية » .

وفيما عدا ذلك ، لم تفز رسالته بأكثر من ثلاثة خطابات ، كان اولها من شركة فى (بريك لين) ، تخبره فيه انها قد

ارسلت اليه عينات من شرابها الرئوى ـ الدواء الناجع لامراض الرئة ، الذى شهد بفائدته الكثيرون ، وبينهم عدد من الاطباء البارزين ـ على امل ان يوصى مرضاه من عمال المناجم باستعماله . واضافت الشركه ان هذا الدواء كان شفاء من الروماتزم أيضا ! .. اما الخطاب الثانى ، فكان من البروفيسور تشاليس ، يهنئه فيه بحرارة ، ويود لو أن اندرو استطاع ـ خلال الاسبوع ـ أن يمر بمعهد كارديف . وذيل الخطاب بعبارة : « اجتهد أن تحضر يوم الخميس » . بيد ان اندرو لم يستطع ـ بسبب سرعة تعاقب الاحداث فى الايام الاخيرة ـ أن يذهب فى هذا الموعد .. بل انه أضاع الخطاب ، ونسى ان يرد عليه !

أما الخطاب الثالث ، فقد اجاب عليه فور وصوله ، اذ اغتبط به اشد الاغتباط . فقد كان رسالة مشجعة الى أقصى حد ، عبرت الاطلنطى آتية من (اوريجون) . ولقد قرا اندرو الخطاب مرة ، ثم ثانية ، وحمله مبتهجا الى كريستين ، وهو يقول : « هذا شىء سار يا كريس . خطاب من امريكا ، من رجل يدعى « ستلمان » ، روبرت ستلمان من اوريجون .. الارجح انك لم تسمعى شيئا عنه قبل اليوم ، أما أنا فانى اعرفه بالشهرة . والخطاب يتضمن اصح حكم على بحثى عن تسرب الغبار الى الرئة .. انه يفوق خطاب تشاليس ... أوه ! بالشيطان ، كان ينبغى أن ارد على هذا الخطاب ، فان هذا العالم ادرك تماما ما ابحث عنه ، وهو باختصار يصحح لى نقطة او نقطتين جانبت فيهما الصواب ، لاننى لست كيمياويا . بيد ان الخطاب يتضمن ثناء عاطرا .. وممن ؟ .. من ستلمان ! »

ـ حقا ؟ أهو طبيب ذو مكانة هناك ؟

فقال : « كلا ، وهذا مما يدعو الى العجب .. فهو من علماء الطبيعة . ولكنه يدير عيادة للأمراض الرئوية ، بالقرب

من « بورتلاند » فى اوريجون ... انظرى ، ان عنـوانه على خطابه . ان بعض الزملاء لا يعرفونه بعد ، على انه يضـارع سفالينجر فى مكانته .. سأشرح لك هذا عندما يتسع أمامنا الوقت » . واثباتا للأهمية التى علقها على خطاب ستلمـان هذا ، جلس الى مكتبه ليرد عليه فى الحال !

* * *

وشغلا بالتأهب لاجازتهما ، فقد كانت ثمـة امور لابد من ان يدبراها قبـل الرحيل .. كان لابد من تدبير ايداع الاثاث فى أحد مستودعات الاثاث فى (كارديف) . وكانت هنـاك الزيارات الوداعية المؤلمة ، فلقد جاء رحيلهما من (بلينيللى) على غير توقع أو استعداد .. كان انسحابا « بطوليا » ! ولكنهما احسا بأسى عاطفى .. ولقد تناولا العشاء عند اسرة فوجان مرة ، وعند اسرة بولاند اخرى ، بل وعند اسرة ليولين ايضا .. وشكا ندرو التخمة ، هذا الداء الذى يعقب مثل هـذه الولائم الوداعية عادة !

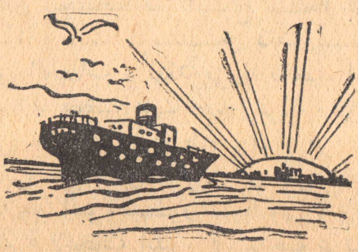
واذ حان اليوم المحـدد ، اخبرتهمـا جينى بأن أناسـا سيكونون فى وداعهما على المحطة ، فتأثرا لهذا . ومما ضاعف تأثرهما ، ان فوجان قدم مسرعا فى آخر لحظة يقول : « اعتذر لازعاجكمـا مرة اخرى . اسمع يا مانسـون ، مـاذا فعلت لتشاليس ؟ .. لقد وصلنى منذ حين خطاب من هـذا الاخ المكتهل .. لقد تهلل لنشرتك تهلل الطفل ، وكان لهذا - على مافهمت - صداه أيضا فى مجلس ادارة التعدين . وعلى أية حال فان تشاليس يرجو أن يتحدث اليك ، ويود أن تذهب لمقـابلته فى لندن .. انه يلح فى هـذا قائلا ان الامر غاية فى الاهمية ! » فأجاب أندرو فى شىء من الحيرة : « اننا نسـافر فى اجازة يا صديقى العزيز .. أول أجازة حقيقية أحصـل عليها منذ سنين . فكيف يمكننى مقابلته ؟ »

ـ اذن فاعطنى عنوانك ، فلا بد أن يكون راغبا فى الكتابة اليك !

ونظر اندرو الى كريستين مترددا .. كانا قد عقدا العزم على اخفاء المكان الذى يذهبان اليه ، هربا من كافة المضايقات ، والمراسلات ، وكل مايعكر صفو الرحلة .. غير انه لم يلبث ان اعطى عنوانه لفوجان . ثم أسرع وكريستين الى المحطة ، حيث احاط بهما اهل الحى ، الذين كانوا فى انتظارهما . فراحوا يصافحونهما ، ويهتفون لهما ، ويعانقونهما فى مودة واخاء . وأخيرا حملوهما الى احدى مقصورات القطار .. حتى اذا تحرك بهما ، راح اصدقاؤهما المتجمعون على الرصيف يغنون ملء حناجرهم اغنية « قوم هارليش » .

وصاح اندرو وهو يفرك اصابعه الباردة : « يالله ، هذا كثير ! .. لو خيرت لدفعت كل شىء فى الدنيا ثمنا لرؤية هذا المشهد . **لكم هم رقيقو الجانب هؤلاء القوم ، اذ يحتفون بى هكذا ، وقد كان نصف المدينة منذ شهر يريد موتى ! .. حقا ان فى الحياة لعجبا .. ها انتذى يامسز مانسون تحظين بشهر عسل جديد ، ولو انك زوجة منذ زمن ! »**

ووصلا الى (ساوثمبتون) مساء ، فصعدا الى السفينة التى تعبر (المانش) .. وفى صباح اليوم التالى ، تأملا شروق الشمس خلف (سانت مالو) .. وبعد ساعة ،



استقبلتهما مقاطعة (بريتانى) الفرنسية ، فاذا الزرع ناضج، وشجر الكرز محمل بالفاكهه ، وقطعان من الماشيه تجوب المراعى الخضر .. وكانت كريستين هى التى فكرت فى الحضور الى تلك المنطقة .. فى رؤيه فرنسا الحقيقيه عن سبب .. لا متاحفها ولا قصورها ، لا اطلالها ولا آثارها التاريخية ، لاشىء مما يقود الادلاء السائحين الى زيارته !.. وانتهت بهما الرحلة فى (فال آندريه) .. ورأحا – وهما فى فندقهما الصغير – يسمعان هدير البحر ، ويستنشقان عبير المروج . وكانت غرفتهما نظيفه ، وقهوة الصباح تقدم لهما ساخنه جدا ، فى قدحين من الخزف الغليظ الازرق .. وكانا طيلة النهار بلا عمل ، فراح أندرو يردد بلا انقطاع : « رباه ! .. أليس هذا بديعا يا حبيبتى ؟ لا أريد بعد الان قط فحص حالة التهاب رئوى ! » .. واخذا يشربان النبيذ ، ويأكلان السمك بمختلف انواعه ، ويلتهمان الحلوى . فاذا كان المساء ، اقبل اندرو يتبارى مع صاحب الفندق فى « البليـاردو » ، فكان يخسر – فى بعض الاحيان – خمسين فى المائة !

انه لبديع ، رائع ، شهى .. هكذا كان اندرو يصف كل ما حوله .. فيما عدا السجائر !

شهر كامل قضياه فى نعيم .. ثم بدأ اندرو يتلمس الخطاب الذى مكث فى جيبه أسبوعين دون أن يفضه ، بمزيد من الفضول .. وكان الخطاب قد اصبح ملطخا بعصير الكرز وبالشكولاته !.. وقالت كريستين ذات صباح ملحة : « هيا ! .. فض الخطاب ، فلقد بررنا بالعهد الذى قطعناه على نفسينا ! » .. وفضه بعناية ، وقرأه وهو مستلق على ظهره فى الشمس ، ثم اعتدل ببطء وقرأه مرة ثانية .. وما لبث ان اسلمه الى كريستين ، دون أن يفوه بكلمة !

وكان الخطاب من البروفيسور تشاليس ، وقد جاء فيه انه كنتيجة مباشرة لابحاث أندرو فى موضوع تسرب الغبار

الى الرئة ، قرر مجلس العمل فى مصانع الفحم والتعدين دراسة الموضوع برمته ، بغية تقديم تقرير الى اللجنة البرلمانية . **ولهذه الغاية قرر المجلس ان ينشىء منصبا طبيا جديدا . ونظرا لقيمة الابحاث الحديثة التى قام بها الدكتور مانسون ، فان المجلس يعرض عليه هذا المنصب بالاجماع وبغير تردد .**

وما ان فرغت كريستين من القراءة ، حتى نظرت الى اندرو متهللة ، وقالت : « ألم اقل لك أن شيئا ما سيعرض عليك ؟» . واردفت مبتسمة : « هذا جميل ! » . وراح اندرو يقذف الاحجار بحركة منفعلة ، الى حفرة على الشاطىء لصيد « الكابوريا » ، وهو يخاطب نفسه بصوت مرتفع : « انه عمل كلينيكى ، ولا يمكن أن يكون فى الامر غير هذا . فهم يعرفون انى كلينيكى ! » . وتأملته وقد اتسعت ابتسامتها ، ثم قالت : « انك تذكر ما اتفقنا عليه ياحبيبى .. ستة أسابيع هنا ــ على الاقل ــ نقضيها فى هدوء ، دون ان نؤدى عملا ما . ومن ثم فلن نقطع اجازتنا من اجل هذا .. » . فقال : « كلا ، كلا ! .. لسوف نتم اجازتنا ، ولكن .. على اية حال .. » . ونظر الى ساعته ، ثم قفز واقفا ، وانهضها فى مرح ، وهو يقول : « لن يضيرنا ان نسرع الى مكتب التلغراف . ترى هل .. ترى هل نجد هناك دليلا لمواعيد القطارات ؟ »

القسم الثالث

ــ ١ ــ

● يشغل مجلس العمل فى مصانع الفحم والتعدين ــ ويرمز اليه عادة بالحروف « م.ع.ف.ت » ــ مبنى ضخما مشيدا بالاحجار السنجابية اللون . ويقع غير بعيد عن

(ويستمنستر) . وقد اختير له هذا الموقع تيسيرا للاتصال بينه وبين وزارة التجارة ومصلحة المناجم ، اللتين تدعيان — فى بعض الاحيان — ملكيتهما لهذا المجلس ، فتطالب كل منهما على التعاقب ، وفى الحاح ، بضمه اليها !

وفى الرابع عشر من اغسطس — وكان الصباح صحوا والهواء عليلا منعشا — صعد اندرو الدرجات المفضية الى مدخل المبنى مسرعا ، موفور الصحة متقد الحماس ، تومض عيناه وكأنه مقبل على غزو لندن .. وقال لموظف يرتدى الزى الرسمى : « اننى الطبيب المعين فى المنصب الجديد » . فأجاب الرجل بلهجة ابوية : « نعم يا سيدى ، نعم يا سيدى .. لاشك انك تريد مقابلة مستر « جيل » .. جونز ، رافق طبيبنا الجديد الى مكتب المستر جيل ! »

وارتاح اندرو اذ تبين انهم كانوا ينتظرونه .. وما لبث المصعد أن ارتفع متثاقلا ، تشاهد من خلاله دهاليز كبيرة — ذات أرض من بلاط أخضر — وطوابق عديدة كان فيها سعاة بنفس الزى الرسمى ، وقد جلسوا فى جد ورصانة . ثم اقتيد اندرو الى قاعة كبيرة مشمسة . والفى نفسه يصافح المستر جيل ، الذى نهض من مقعده المريح لاستقباله ، ملقيا من يده نسخة من صحيفة « التايمز » .

وقال اندرو فى حرارة : « لقد تأخرت قليلا ، فمعذرة ! .. اننا لم نعد من فرنسا الا امس ، بيد اننى على أتم استعداد لأن أبدأ العمل » . فأجاب المستر جيل « هذا بديع ! » .. وكان رجلا نحيلا ، مرحا ، ذا منظار ذهبى ، وقد احاط رقبته بياقة تشبه ياقة القساوسة ، وارتدى بدلة زرقاء ، وربطة عنق من اللون ذاته ، بها مشبك ذهبى .. واخذ يتأمل اندرو بارتياح ، ثم قال : « تفضل بالجلوس ! .. هل لك فى قدح من الشاى او من اللبن الساخن ؟.. اننى اتناولهما عادة فى الحادية عشرة و .. اجل ، اجل ، اننا الآن فى حوالى

هذا الوقت ! » . فقال اندرو فى تردد : «حسنا . لابأس !» . ثم أردف مبتسما : « ولعلك تحدثنى عن العمل ، بينما نكون .. »

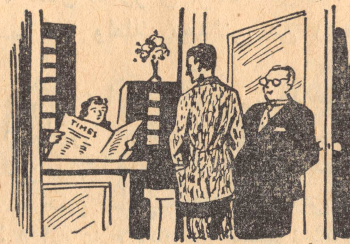
وبعد خمس دقائق ، احضر الساعى قدحا من الشاى ، وآخر من اللبن الساخن . وقال : « أعتقد يا سيد جيل انك ستجد قدح اللبن سائغا ! » . فقال هذا : « شكرا يا ستيفينز ! » . حتى اذا انصرف الساعى ، تحول جيل الى أندرو قائلا : « انه غلام نادر ، وسترى ذلك بنفسك . انه يصنع شرائح بالزبد شهية جدا .. ما أصعب الحصول على غلمان صالحين للخدمة فى المكاتب . اننا نتألف هنا من فروع وأجزاء من جميع ادارات وزارة الداخلية ، وادارة المناجم ، ووزارة التجارة ... أما انا فانني من وزارة البحرية!»

وأخذ اندرو يتناول قدح اللبن المغلى ، ويستفسر عن اعماله ، بينما كان جيل يتكلم فى مرح عن الطقس ، وعن مقاطعة (بريتانى) ، وعن مشروع المعاشات المدنية ، وعن مفعول التعقيم بطريقة باستور . **ثم نهض وقاد اندرو الى الغرفة التى خصصت لمكتبه .. وكانت حجرة هادئة ، مليئة بالضوء ، بها بساط سميك ، وتطل على منظر بديع فى النهر . وكانت على زجاج النافذة ذبابة كبيرة زرقاء تطن ..** وقال جيل فى رقة : « لقد اخترت لك هذا المكتب . وكان لابد من ادخال بعض التحسينات عليه .. ان به مدفأة بالفحم على ما سترى ، وانه لبديع فى الشتاء ، فآمل ان يطيب مقامك هنا ! »

— اوه ! انها غرفة رائعة ، لكن ...

— والآن سأقدم لك سكرتيرتك ، مس ميسون .

وطرق بابا جانبيا ، يفضى الى غرفة ملحقة ، ثم فتحه فاذا فتاة تجاوزت اوسط العمر ، مليحة ، رزينة ، حسنة الهندام ، تجلس الى مكتب صغير . ونهضت فألقت من يدها



نسخة من صحيفة « التايمز » .. فقال لها جيل : « طاب نهارك يامس ميسون » . فأجابت : « ونهارك يامستر جيل » .

ـ هذا هو الدكتور مانسون ، يا مس ميسون .

ـ طاب نهارك يادكتور مانسون .

ودار رأس اندرو تحت تأثير هذه التحيات ، بيد انه استعاد هدوءه ، واشترك فى الحديث . وبعد خمس دقائق ، قال جيل ـ وهو ينصرف ـ مشجعا اندرو : « سأبعث اليك ببعض الملفات » . وما لبث ستيفنز ان احضر هذه الملفات بعناية .. فقد كان خير من يحمل الملفات من جميع اقسام المبنى ، الى جانب مهارته فى عمل الشطائر واعداد اللبن . واخذ يدخل غرفة « اندرو » كل ساعة ، ومعه سله مليئة بالوثائق التى كان يضعها فى حرص داخل صندوق معدنى ـ على المكتب ـ يحمل كلمة : « الوارد » ، بينما تبحث عيناه فى لهفة عن شىء يؤخذ من الصندوق الذى كتبت عليه كلمة : « الصادر » . وشد ما كان يتألم عندما يجد هذا الصندوق خاليا ، فكان ينصرف مكتئبا ، كاسف البال .

★★★

واطلع اندرو اطلاعا خاطفا على الملفات ، فى حيرة ، وانفعال ؛ فوجدها تسجيلا لجلسات الـ « م.ع.ف.ت. » السابقة

.. محاضر مملة ، ثقيلة ، لا نفع لها ! .. ولجأ الى مس ميسون ، فلم تلق له كثير ضوء على عمله ، اذ كانت قد انتدبت - كما ذكرت له - من ادارة فحص اللحوم المثلجة .. لكنها قالت له ان ساعات العمل تبدأ من العاشرة حتى الرابعة . وحدثته عن فريق هوكى المكاتب : « فريق السيدات باطبع يادكتور مانسون » ، وقد كانت نائبة رئيسته . وسألته أن كان يحب ان يطلع على نسختها من صحيفة « التايمز » . وكانت نظرتها تبعث الطمأنينة فى نفسه .

على أن أندرو لم يرض عن هذه الحال . كان عائدا من اجازته وهو يتحرق شوقا للعمل ! .. واخذ يرسم لنفسه فكرة عن مهام منصبه ، وهو واقف فى غرفة مكتبه ، يتأمل - فى انفعال - منظر النهر الصاخب وقد غص بالسفن القاطرة ، وبصفوف طويلة من ناقلات الفحم تشق عباب النهر فى عكس اتجاه تياره . واخيرا ذهب الى جيل يسأله :

« **متى سأبدأ العمل ؟** » .. وكان هذا السؤال مفاجأة لجيل ، فقفز عن مقعده قائلا : « لكم تدهشنى يا صديقى العزيز !.. أحسب أننى أعطيتك ملفات تشغلك شهرا كاملا ! » .. ثم نظر الى ساعته ، واردف : « هيا ، لقد حان وقت الغداء ! »

وأوضح جيل لاندرو - وهما يتناولان طعامهما - ان الاجتماع القادم للمجلس لن يعقد قبل الثامن عشر من سبتمبر . فقد كان البروفيسور تشاليس فى النرويج ، والدكتور موريس جادسبى فى اسكتلندا ، والسير وليام ديوار - الرئيس - فى المانيا ، ومستر بليدز - رئيس جيل المباشر - فى (فرينتون) مع اسرته .

وعاد اندرو الى كريستين - فى مساء ذلك اليوم - وهو يتخبط فى افكار محيرة . وكان اثاثهما لايزال فى المستودع ، وقد استأجرا مسكنا مفروشا فى (ايرلز كورت) لمدة شهر ،

ريثما يتسع الوقت للبحث عن مسكن ملائم . وبادرها قائلا: **« أتصدقين ياكريس انهم لم يستعدوا حتى لتسليمى عملى ؟ .. ان أمامى شهرا بأكمله ، أشرب فيه اللبن ، وأقرأ «التايمز»، وأضع توقيعى على الملفات !.. آه ، ولقد دار حديث طويل عن الهوكى بينى وبين مس ميسون العانس ! »**

ــ اذن ، فأرجو ان تقصر احاديثك على عانسك الحسناء ! .. اواه ، ياحبيبى ! .. ما اجمل لندن .. بالنسبة لابرالو ! .. لقد قمت عصر اليوم بجولة صغيرة حتى (تشيلسى) ، واكتشفت اين تقع دار « كارليل » ، ومتحف « تيت » . ودبرت أشياء كثيرة بديعة نعملها سويا . ففى وسعنا ــ لقاء بنس واحد ــ ان نستقل القارب البخارى حتى حدائق (كيو) .. تصور ياحبيبى !.. وفى الشهر القادم ، سيعزف « كرايزلر » فى قاعة « البرت » .. ولا بد لنا من زيارة النصب التذكارى ، لنرى ما الذى يضحك الناس جميعا من امره ! .. وبالاضافة الى هذا ، هناك تمثيلية تؤديها « فرقة مسرح نيويورك » .. ثم ألن يكون بديعا ان استطيع ان اتغدى معك يوما ، خارج الدار ؟

ولم يكن قد رآها فى مثل هذا الابتهاج من قبل الا نادرا . ومدت اليه يدها الصغيرة ، المرتجفة ، وهى تقول : « هيا نتغدى فى الخارج ياحبيبى ، ففى شارعنا مطعم روسى يبدو انه بديع .. واذا لم تكن متعبا ــ بعد الغداء ــ ففى وسعنا .. » . وهتف وهى تشده نحو الباب : **« مرحى !.. لقد كنت أدرك انك العضو المنوط بتدبير شؤون هذه الاسرة .. وبعد « التعب » الذى لقيته فى هذا اليوم الاول ، يطيب لى أن أقضى امسية مرحة ! »**

* * *

وفى صباح اليوم التالى ، قرأ الملفات التى كانت على منضدته

جميعها ، وذيلها بتوقيعه . حتى اذا حانت الساعة الحادية عشرة ، أخذ يذرع حجرة مكتبه .. ولكنه لم يلبث أن وجد هذا القفص اضيق من ان يحتويه ، فانطلق يستكشف المبنى. ولم يجد فيه مايثير الاهتمام ــ كأنه مشرحة بلا جثث ــ الى ان بلغ الطابق الاخير ، فوجد نفسه فجأة داخل غرفة طويلة، مجهزة لتكون معملا كيمياويا .. وعلى صندوق كان يحتوى كبريتا ، جلس شاب يرتدى سترة قذرة ، وقد راح يقرض أظافره مكتئبا ، بينما اصفرت شفته العليا من اثر نبكوتين سيجارته . فبادره اندرو قائلا : « هالو ! » . فانقضت لحظة صمت ، قبل ان يقول الآخر فى غير اكتراث : « اذا كنت قد ضللت الطريق ، فان المصعد فى الباب الثالث الى اليمين ! »

واستند أندرو الى منضدة للتجارب ، واشعل سيجارة ، وسأل : « الا تقدمون الشاى هنا ؟ » . واذ ذاك فقط ، رفع الشاب رأسه ذا الشعر الاسود اللامع ، الذى بدا متناقضا مع قذارة ياقة سترته ، واجاب فى لهجة ودية : « نقدمه ، ولكن للفئران البيضاء فقط .. فان ورق الشاى طعام مغذ لها الى اقصى حد » . وضحك اندرو .. ولعله ضحك لان المازح كان يصغره بخمس سنوات . ثم قدم له نفسه قائلا « اننى ادعى مانسون ! »

ــ هذا ما حسبته .. وهكذا جئت تنضم الى الرجال المنسيين ؟ .. اننى الدكتور « هوب » أو هكذا كنت أحسب فيما مضى اننى « هوب » . اما الآن ، فاننى بالتأكيد «هوب» غير مرجو (١) !

ــ وماذا تفعل هنا ؟

ــ الله وحده يعرف ، وكذلك « بيللى بتونز » (٢) ، اقصد

---

(١) « هوب » كلمة انجليزية معناها أمل .. وهذا يفسر النكتة .

(٢) « بيللى » تدليل لاسم ادوارد .. و « بتونز » كلمة انجليزية معناها أزرار .. وسيأتى شرح سر هذه التسمية ، فى سياق حديث « هوب »

ديوار . اننى انفق بعض الوقت جالسا افكر .. أما الشطر الاكبر من الوقت ، فأنفقه جالسا فقط .. وهم يرسلون الى – عند الاقتضاء – بقايا من اجسام متحللة لعمال المناجم ، ويسألوننى عن سبب الانفجار .

فتساءل أندرو ، على سبيل المجاملة : « فتتنبئهم به ؟ » . وبهت اذ أجابه الآخر بكلمة نابية معناها : « بل أضرب صفحا ! » . وبعدها أحس كل منهما بأنه أكثر ارتياحا الى صاحبه ، فخرجا ليتناولا الغداء معا . فقال الدكتور «هوب» ان هذا الغداء كان الشيء الوحيد الذى أعاد اليه – فى ذلك اليوم – صوابه . كما أوضح لمانسون أشياء أخرى كثيرة : فلقد كان اخصائيا للابحاث من (كمبريدج) ، التى وصل اليها من (برمنجهام) – ولعل هذا هو مصدر ماكان يعتريه أحيانا من نبو فى الذوق . وقد اعير لل « م.ع.ف.ث. » بناء على طلب البروفيسور ديوار . ولم يكن يؤدى سوى أعمال آلية ، اعمال رتيبة ماكان ليكلف بها أى مساعد من مساعدى المعمل . وخلص من هذا الى انه لن يلبث ان يفقد عقله نتيجة الكسل وركود الذهن ، مما أصبح يسميه « ملهاة معتوه » .. وهذا طابع اكثر معاهد الابحاث فى هذه البلاد ، اذ تديرها جماعة من مشاهير المغرورين ، الذين يعتزون – اكثر مما ينبغى – بنظرياتهم الشخصية ، والذين ينهمكون فى التنازع فيما بينهم حتى انهم يغفلون عن دفع العربة فى أى اتجاه محدد .. ومن ثم فانهم يتجاذبون « هوب » ، ويملون عليه ما يفعل ، بدلا من أن يتركوه يعمل مايريد .. بل انهم لم يكونوا يكلفونه بعمل واحد ، طوال أكثر من ستة أشهر !

وأخذ يرسم لاندرو نظام العمل فى مجلس هيئة « ملهاة المعتوه » .. هناك سير وليام ديوار الرئيس ذو المركز المنيع برغم انه كان طاعنا فى السن ، مرتجف الاوصال .. وكان « هوب » يسميه « بيللى الازرار » ، لانه كثيرا ما كان ينسى

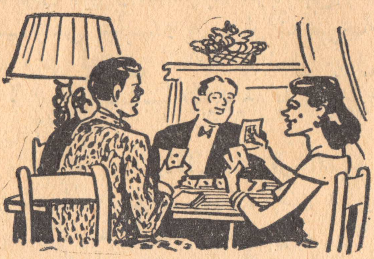
سد بعض الفتحات الجوهرية من ملابسه بأزرارها .. وكان هذا الرجل الطاعن ، يرأس كل الجمعيات العلمية فى انجلترا تقريبا . فضلا عن انه كان يذيع فى الراديو تلك الاحاديث التى لقيت اعجابا واسع النطاق ، بعنوان « العلم فى متناول الاطفال » ! .. وهناك أيضا البروفيسور « هوينى » ، الذى يسميه الطلاب ـ عن حق ـ باسم « المهر الصغير » ، وتشاليس الذى كان مقبولا اذا ماتناسى الافراط فى الوقار الذى يليق باسم « رابليه باستور تشاليس » . ثم ، هناك الدكتور موريس جادسبى .. **وهنا تساءل هوب : « هل تعرف الدكتور جادسبى ؟ » . فأجابه أندرو : « لقد التقيت به » . ثم روى له قصة امتحانه .**

ـ هذا هو « موريسنا » عينه ، وياله من وصولى لعين . انه يتدخل فى كل شىء ، وسيجىء يوم يتسلل فيه الى وظيفة صيدلى .. انه حيوان صغير ماهر للغاية ، غير أن الابحاث لاتفتنه ، فهو لايعنى الا بنفسه . وانفجر هوب فجأة فى الضحك ، ثم اردف : « يروى روبرت آبى نادرة طريفة عن جادسبى .. فلقد كان يريد الاشتراك فى نادى « رمستيك » ، وهو من المنتديات التى تنظم حفلات العشاء الترفيهية التى تعرفها لندن .. وهو ـ للمصادفة ـ من ارقى المنتديات . وقد وعد « آبى » ـ وهو رجل رقيق الحاشية ـ بأن يفعل كل مايستطيع من اجل جادسبى ، لسبب لا يعلمه الا الله .. وأخيرا ، التقى جادسبى بآبى ـ بعد ثمانية أيام ـ فسأله : « هل قبلونى فى النادى ؟ » . فأجابه : « كلا ، لم يقبلوك » . وهنا قال جادسبى غاضبا : « يالله ، ما احسبك تعنى اننى لا أليق لعضوية النادى ! » . **(وهنا راح هوب يضحك ملء شدقيه .. ولم يلبث ان أضاف :) ان آبى هو الآخر من اعضاء مجلسنا ، ولكنه رجل متحضر .. ثم انه شديد الاعتزاز بنفسه ، ولذلك فهو لا يتردد على المجلس كثيرا ! »**

تلك كانت أول مرة ـ من مرات عديدة ـ تناول فيها اندرو الغداء مع هوب .. وكان هوب برغم لهجته المازحة ـ مزاح الطلاب ـ وميله الفطرى الى سوء الادب ، شابا موهوبا .. أيقن أندرو من أنه خليق بأن يؤدى عملا مذكورا فى المستقبل. فقد كان هوب فى لحظات جده ، يبدى رغبتـه فى العود الى البحث الهام الذى كان قد كرس له نفسه حول « الانزيمات » المعدية .. وكان « جيل » يحضر معهما الغداء أحيانا . وقد اعتاد « هوب » ان يدعوه الرجل النحيل الطيب .. ولقـد قضى « جيل » ثلاثين عاما فى الاعمال الادارية ، متدرجا من أدنى الوظائف حتى أعـلاها ، اذ اصـبح مديرا . ولم تقـو السنون على النيل من طيب خصاله ، فقد ظل يعمل فى المكتب كأنه آلة جيدة التشحيم . وقد اعتاد ان يستقل قطارا معينا من (سانبرى) ـ فى كل صباح ـ ويعود اليها فى قطار معين، لا يفوته مالم يؤخره داع قهرى .. وكانت له فى (سانبرى) زوجـة ، وثلاث بنـات ، وحديقـة صـغيرة يزرع فيهـا أشجار الورد .. ولقد كان فى ظاهره صورة صادقة لنموذج مثالى من نماذج سكان الضواحى ، ولكن وراء هذا المظهر ، كانت تكمن شخصية جيـل الحقيقية .. جيل الذى أحب (يارماوث) فى الشتاء ، فكان يقضى فيهـا عطلته ـ خـلال شهر ديسمبر ـ من كل عام ، والذى اتخذ له انجيلا يـكاد يحفظه عن ظهر قلب ـ هو كتاب عنـوانه « حاجى بابا » ـ والذى ظل عضوا فى جمعية حديقة الحيوان منذ خمسة عشر عاما ، وكان يهيم بطائر « البنجوين » !

وكانت كريستين رابعتهم فى الغداء ـ ذات مرة ـ فبـالغ جيل فى الحفاوة بها كمدير ، وكان مسلك هوب نفسه مثيرا للاعجـاب ، حتى انه أسر الى أندرو بأنه مذ تعرف بمسـز مانسـون قد غير رأيه فى الزواج تماما ، ولم يعـد من أنصـار العزوبة !

•



ومضت عجلة الزمن تدور واندرو يستكشف لندن ، فى صحبة كريستين ، فى انتظار انعقاد المجلس . فقاما برحلة ترفيهية الى (ريتشموند) ، بزورق بخارى .. وحضرا تمثيلية فى مسرح يدعى « ذى أولد فيك » ، وألفا الصخب والحركة الشديدة ، وعرفا نسيم (هامبستدهيث) العليل ، وفتنة تناول القهوة فى أحد المشارب العامة ، فى منتصف الليل ، وتنزها سيرا على الاقدام فى (الرو) ، ومارسا التجديف فى (السربنتين) .. واذ لم يعودا فى حاجة الى الرجوع لخرائط شبكة خطوط « المترو » التى تجرى تحت الارض ، أخذا يحسان بأنهما من أهل لندن حقا !

— ٢ —

• **وأخيرا** ، حدد اليوم الثامن عشر من سبتمبر لاجتماع المجلس .. وفى ذلك اليوم ، اتخذ أندرو مكانه بين جيل وهوب . وأحس بنظرات هوب الماكرة تتركز عليه ، بينما كان الاعضاء يتوافدون تباعا الى قاعة الاجتماع الطويلة ، التى زينت جدرانها بحافة مذهبة .. فحضر هوينى ، والدكتور « لانسيلوت دود ــ كانتبورى » ، وتشاليس ، والسير روبرت آبى ، وجادسبى ، وأخيرا .. « بيللى الازرار » ، أو « ديوار » شخصيا . وكان آبى وتشاليس قد تحادثا الى

أندرو ـ قبل دخول ديوار ـ فوجه اليه آبى كلمة هادئة،وهنأه البروفيسور تشاليس بتعيينه فى عبارات مرحة . أما ديوار ، فقد استدار ـ وهو يدخل القاعة ـ نحو جيل صائحابصوته الاجش المرتفع : « أين طبيبنا الجديد يا سيد جيل ؟ ـ . أين الدكتور مانسون ؟ »

ونهض أندرو وقد بهت لمنظر ديوار الذى كان يتجاوز الصورة التى رسمها له هوب عنه . كان « بيللى » صغير الحجم ، مقوس القامة ، كثيف الشعر . وكان يرتدى ثيابا رثة : صدرية تعلوها بقع كثيرة ، ومعطفا مخصوضرا انتفخت جيوبه بما حوته من أوراق وكتيبات ونشرات من اكثر من عشر شركات مختلفة . وما كان له ـ فى الواقع ـ اى عذر فى أن يكون على هذه الهيئة ، اذ كان كثير المال والبنات ، وكانت احدى بناته متزوجة من مليونير . **ولكنه كان يرى دائما على هذه الحال من اهمال العناية بمظهره.وقال متظاهرا بالترحيب والعطف : « كان معى فى (كلية الملكة) ، سنة ١٨٨٠ ، رجل يدعى مانسون ! »**

وغمغم هوب ، وقد غلبته شهوة المزاح : « انه هو يا سيدى ! » . فقال بيللى محملقا فيه من خلال عدستى منظاره الغليظ المستند الى طرف أنفه : « كيف يمكنك أن تعرف يادكتور هوب، وأنت لم تكن بعد رضيعا فى القماط ؟.. ها ! ها ! ها ! » . وسعى ـ وهو يقهقه ـ الى مكانه فى صدر المائدة . ولم يلتفت اليه أحد من زملائه الذين كانوا جلوسا ، فقد كان من المألوف فى هذا المجلس الا يحفل أحد بجاره . على ان « بيللى » لم يستأ لهذا ، بل أخرج من جيبه حزمة من الاوراق ، وشرب قليلا من الماء ، وتناول المطرقة الموضوعة أمامه ، فطرق المائدة بشدة ، قائلا : « أيها السادة ، ايها السادة .. سيقرأ عليكم مستر جيل محضر الجلسة ! »

وأخذ جيل ـ الذى كان يؤدى وظيفة سكرتير المجلس ـ

فى قراءة محضر الجلسة السابقة ، وبيللى منصرف عن هذه القراءة ، ينبش حينا أوراقه ، ويحملق فى اندرو ــ فى عطف ــ حينا آخر ، وقد اقترن فى ذهنه بشخصية مانسون الذى كان معه فى كلية الملكة سنة ١٨٨٠ ! .. وما ان فرغ جيل من القراءة اخيرا ، حتى طرق « بيللى » المائدة بمطرقته ، وقال : « أيها السادة .. اننا جد سعداء بأن يكون بيننا طبيبنا الجديد . وأذكر اننى كنت قد ألححت ــ حوالى سنة ١٩٠٤ ــ فى ضرورة أن يكون فى خدمة المجلس ــ بصفة مستديمة ــ طبيب « كلينيكى » يستطيع أن يقدم عونا جديا للباثولوجيين الذين نختلسهم ــ ها ! ها ! ــ الذين نختلسهم بين آن وآخر من ادارة البحوث . وانى أقول هذا مع احترامى التام لصديقنا الشاب هوب ، الذى كثيرا ما لجأنا الى احسانه ! .. الى احسانه ! .. ها ها ! وفضلا عن هذا ، فانى أذكر أيضا انه منذ وقت غير بعيد ، حوالى ١٨٨٩ .. »

وهنا قاطعه سير روبرت آبى : « اننى اوقن يا سيدى من ان بقية أعضاء المجلس يرغبون ــ من كل قلوبهم ــ فى أن ينضموا اليك فى تهنئة الدكتور مانسون برسالته عن «السليكا» وآثارها . ولقد وجدت ــ ان جاز لى هذا القول ــ ان هذه الرسالة تنطوى على بحث كلينيكى أجرى فى كثير من الصبر والابتكار ، ولاشك أن المجلس يدرك تماما أن هذا البحث خليق بأن يكون ذا آثار بعيدة المدى فى تشريعنا الصناعى ! » .

وهنا صاح تشاليس مساندا محسوبه : « بديع ! بديع ! »

فقال بيللى فى استخذاء : « هذا عين ماكنت أوشك ان اقول يا روبرت ! » .. فقد كان « آبى » فى نظره لايزال شابا ، بل بمثابة « تلميذ » ، تستوجب مقاطعاته للحديث لوما وتأنيبا . ثم استطرد بيللى يقول : « عندما قررنا فى جلستنا الاخيرة وجوب مواصلة هذه الابحاث ، فرض اسم الدكتور مانسون نفسه على ، فهو الذى عالج هذه المسألة ،

ومن الواجب أن تقدم له كافة الوسائل التى يحتاج اليها لمواصلة أعماله . ونحن ـ أيها السادة ـ نرجو .. » ، (واذ كان هذا فى صالح اندرو ، فقد رمقه بنظرة ثاقبة من أقصى المائدة ، وهو يمضى قائلا) : « ان يزور جميع مناجم الفحم الانتراسيت فى البلاد ، وقد تستطيع ـ فى المستقبل ـ توسيع نطاق البحث حتى يشمل مناجم الفحم جميعها . كذلك نرجو ان تتاح له كافة التسهيلات لاجراء الفحص الكلينيكى لعمال المناجم . وسنضع تحت تصرفه كافة الوسائل ، بما فيها الامكانيات البكتريولوجية الرائعة التى لدى صديقنا الشاب الدكتور هوب . وموجز القول ـ أيها السادة ـ لن ندخر شيئا مما فى طاقتنا الا قدمناه اليه ، حتى يتاح لطبيبنا الجديد الوصول ـ فى مسألة الغبار المتسرب مع الهواء الى الرئة ـ الى نهاية حاسمة من الناحيتين العلمية والادارية معا ! »

وتنفس أندرو ملء رئتيه .. كان هذا بديعا ، بل فوق ما كان يأمل . لسوف يدعونه طليق اليدين ، وسيشدون أزره بسلطانهم القوى ، ويتيحون له كل التسهيلات للقيام بأبحاثه الكلينيكية .. انهم جميعا ملائكة ، وبيللى هو «جبريل» نفسه ! .. وقال بيللى بغتة ـ بصوته النافذ ـ وهو يخرج من جيبه وثائق جديدة : « ولكن يا سادة .. هناك مسألة أعتقد ان على الدكتور مانسون ان ينصرف اليها ، قبل ان يستأنف دراساته ، وقبل أن نكون أحرارا فى السماح له بتركيز جهوده على هذه الدراسات ! »

* * *

وخيمت على المكان سحابة صمت أحس أندرو خلالها أن قلبه ينقبض ، ويغوص شيئا فشيئا ، بينما مضى بيللى قائلا : « لقد اطلعني الدكتور بيجسبى ـ من وزارة التجارة ـ على

المخالفات المزعجة فى مواصفات معدات الاسعاف فى المؤسسات الصناعية . فهناك تحديد لها فى القانون الراهن فعلا ، ولكنه تحديد مطاط ، وقليل الجدوى . فليس هناك نموذج معين يحددمقاسات أربطة الضمادات ونسيجها مثلا ، ولا طول الجبائر ومادتها وشكلها .. وهذه ــ أيها السادة ــ مسألة هامة تهم مجلسنا مباشرة . وارى بنحو قاطع ان على طبيبنا ان يجرى تحقيقا دقيقا فى هذا الامر ، وان يقدم لنا تقريرا بصدده قبل أن يواجه مسألة تسرب الغبار خلال الهواء المستنشق ! »

وساد الصمت مرة اخرى .. وأجال اندرو بصره ــ فى قنوط ــ حول المائدة . كان « دود ــ كانتربورى » باسطا ساقيه ، محملقا فى السقف . وكان جادسبى يرسم خطوطا على ورقة النشاف، بينما كان «هوينى» يطرف بعينيه، وتشاليس يهم بالكلام . غير أن آبى كان اول من تكلم ، اذ قال : « من المؤكد يا سير وليام ان هذا القرار من شأن وزارة التجارة ، او ادارة المناجم ! » . فقال بيللى : « اننا رهن تصرف هاتين الادارتين . اننا ــ ها ! ها ! ــ الابن اليتيم لهذه وتلك ! »

ــ أجل ، اعرف هذا ، ولكن مسألة الضمادات هذه تافهة نسبيا ، والدكتور مانسون ...

ــ أؤكد لك يا روبرت أن الامر بعيد عن ان يكون ثانويا ، فلسوف تثار المسألة قريبا فى البرلمان .. وقد علمت هذا من لورد « اونجار » ، اذ ذكره لى أمس ..

فقال جادسبى بادى الاهتمام : « آه !.. مادام اونجار قد تدخل فى الامر ، فليس لنا خيار » .. كان جادسبى قديرا على المداهنة ، وكان « اونجار » شخصا يهمه ان يرضيه بوجه خاص..ولم يتمالك اندرو نفسه من التدخل ، فغمغم : **« عفوا ياسير وليام . كنت قد فهمت انه سيناط بى هنا عمل كلينيكى . فأنا ــ منذ شهر ــ انتظر بدون عمل فى مكتبى ، واذا تعين على الآن ان .. »** . وتوقف عن الكلام مجيلا بصره



حول المائدة، فانبرى آبى لنجدته : « ان راى الدكتور مانسون صحيح تماما . فلقد عمل طوال اربع سنوات بصبر ، فى موضوع هو موضوعه وحده ، وها نحن اولاء اليوم ــ بعد ان عرضنا عليه كافة الوسائل للمضى فى هذا العمل ــ نقترح ارساله ليحصى الضمادات ! »

وقال بيللى : « اذا كان الدكتور مانسون قد صبر اربع سنوات ، ففى وسعه ان يصبر قليلا أيضا .. ها ! ها ! » . فقال تشاليس : « هذا حق، هذا حق.. ولسوف يكون حرا ــ بعد ذلك ــ فى الانصراف الى السليكا » . وسعل « هوينى » ليجلو صوته. فهمهم هوب لاندرو : « الآن سيصهل المهر ! » . بينما قال هوينى : « طلبت ــ أيها السادة ــ الى هذا المجلس، منذ زمن ، دراسة مشكلة الاعياء العضلى وعلاقته بحرارة البخار . وهذا الموضوع ــ كما تعرفون ــ يعنينى كثيرا ! . واسمحوا لى أن أقول لكم انكم لم تعيروه حتى الآن ما هو جدير به من اهتمام . **وارى الآن انه اذا كان لابد من تحويل الدكتور مانسون عن مشكلة الغبار المتسرب مع الهواء المستنشق ، فان هذه تكون فرصة ذهبية لحل مشكلة الاعياء العضلى الجوهرية ! »**

وهنا نظر جادسبى الى ساعته ، وقال : « اننى على موعد فى شارع (هارلى) بعد خمس وثلاثين دقيقة تماما » . فاستدار

« هوينى » نحو جادسبى فى حنق ، وسانده زميله تشاليس ، قائلا فى لهجة تنذر بهبوب العاصفة : « هذه وقاحة لاتغتفر ! » . ولاح كأنما العاصفة كانت موشكة على الانقضاض ، بيد ان بيللى حملق من تحت حاجبيه الكثيفين ، فى غير انزعاج . اذ اعتاد — منذ اربعين عاما — ان يدير جلسات من هذا النوع .. وكان يعرف انهم يكرهونه ويودون ان يعتزل منصبه ، ولكنه كان مصرا على ان يظل .. وان يظل الى الابد ! .. وكان رأسه الضخم ممتلئا بالمشكلات ، والقضايا ، والمشروعات ، والصيغ الغامضة ، والمعادلات ، والطبيعة ، والكيمياء ، وبيانات الابحاث وتفصيلاتها .. **كان قبرا مغلقا تسكنه أشباح قطط نزعت أخناخها ، وتضيئه أشعة قطبية ، وتسبغ عليه اللون الوردى ذكرى ذات اثر جليل فى نفسه .. فلقد ربت « ليستر » العظيم رأسه يوما ، وهو بعد غلام !**

وقال بيللى اخيرا ، فى لباقة : « يجب ان افضى اليكم يا سادة بأننى قطعت مع اللورد اونجار والدكتور بيجسبى ما يشبه الوعد بأن أساعدهما فى هذه النقطة الدقيقة . وقد يلزمك — يادكتور مانسون — ستة اشهر او اكثر قليلا ، وهذا لا يخلو من الفائدة ، اذ سيتيح لك — يا فتى — سبل الاتصال بأناس كثيرين ، والوقوف على امور كثيرة . هل تذكر ما قاله « لافوازييه » عن قطرة الماء ؟ .. ها ! ها ! . والآن ، لننتقل الى الفحص الباثولوجى الذى أجراه الدكتور « هوب » فى يوليو الماضى ، على العينات الواردة من مصنع فحم (ويندوفر) .. » .

* * *

وعندما انفض الاجتماع — فى الساعة الرابعة — بحث اندرو وهوب الموقف من كل جوانبه ، فى مكتب الاول .. وكان الاثر

الذى طرأ على اندرو - منذ التحق بهذا المنصب - يتسم بشىء من الرصانة ، ولعل ذلك كان راجعا الى انه ازداد نضجا .. لذلك فانه لم يغضب ، ولم يثر ، بل راح يسرى عن نفسه بالرسم بقلم من ادوات الحكومة ، على منضدة من ممتلكات الحكومة .

وقال جيل مخففا عنه : « لن يسوءك العمل الجديد .. اننى اعرف انه يتطلب اسفارا فى كافة ارجاء انجلترا ، ولكن هذا خليق بأن يطيب لك .. بل ان بوسعك ان تصطحب مسز مانسون . فهناك (بورتون) - مثلا - وهى مركز مصانع الفحم فى (ديربيشير) ... وفى نهاية الاشهر الستة ، تستطيع ان تبدأ ابحاثك حول الفحم الانتراسيت » . **فقال هوب ساخرا : « انه لن يحظى بهذا قط . لقد قضى عليه بأن يحصى الضمادات .. مدى الحياة ! »** .. وهنا تناول أندرو قبعته ، وهو يقول : « ان عيبك يا هوب ، هو .. انك لا تزال صغير السن ! »

وعاد الى كريستين .. وفى يوم الاثنين التالى - وكانت كريستين قد أبت فى عناد أن تفوت على نفسها هذه الرحلة الممتعة - اشتريا سيارة مستعملة من طراز « موريس » ، وسافرا معا للقيام بالتحقيق الواسع النطاق عن ادوات الاسعافات الاولية ! .. والحق انهما شعرا بهناءة حينما انطلقت سيارتهما تنهب طرق الشمال الكبرى . وبعد ان قلد اندرو « بيللى الازرار » وهو يقود السيارة بقدميه ، قال : **« ليكن مايكون ! .. لننس ماقاله لافوازييه عن قطرة الماء ، فى سنة ١٨٣٢ ، فنحن الآن معا يا كريس ! »**

وكان العمل سخيفا ، يتمثل فى تفقد أدوات الاسعافات الاولية فى مختلف مناجم الفحم ، فى كافة ارجاء البلاد : الجبائر ، والضمادات ، ولفائف القطن ، والمطهرات ، وما الى ذلك ..

وكانت الادوات جيدة فى بعض المناجم ، ورديئة فى منـاجم أخرى .. ولم يكن تفقـد المناجم ، فى جوف الارض ، شيئا جديدا على أندرو . وقام بمئات من الزيارات التفتيشية تحت سطح الارض ، زاحفا اميالا فى سراديب نقل الفحم ، ساعيا حتى موطن الفحم ، ليفحص صـندوقا للضمادات لم يوضع هناك الا قبل وصوله بنصف ساعة فقط !. ولقد سمع مساعدى المديرين يتهامسون ، فى مناجم صغيرة بمنطقة (يوركشير) : « اسرع يا جوردى ، وقل لالكس ان يذهب الى الصيدلى .. »، ثم : « تفضل بالجلوس يادكتور ، سنكون رهن اشارتك بعد لحظة ! » . ولم يغب عنه ان الادوات انما استكملت خلال تلك اللحظـة ! .. وفى (نوتنجهـام) ، سرى عن بعض رجال الاسعاف ــ الذين كان الكونياك الطبى ينقص معداتهم ــ بأن قال ان الشاى البارد منشط اقوى مفعولا من البراندى ، فى حين انه راح يشدو بميزات الويسكى ، فى مناجم اخرى .. على أنه كان ــ فى اكثر الاوقات ــ يؤدى مهمته بضمير يقظ .

وكان و « كريستين » يبحثان اولا عن مسكن مؤثث ، فى بقعة تتوسط المنطقة التى يهبطانها ، ثم يأخذان ــ بعد ذلك ــ فى ارتياد المنطقـة فى سيارتهما .. واعتادت كريسـتين أن تنتظره ، منهمكة فى حبك الصوف ، بينما يشغل هو بتفقـد المناجم .. وكانت لهما مغامرات مع صاحبات المساكن المؤثثة، كما اكتسبا بعض الاصـدقاء ، لاسيما من مفتشى المناجم .

ولم يدهش اندرو ان تثير مهمته ضحكا جنونيا عند هـؤلاء القوم ذوى الرؤوس الصلبة ، والقبضـات المتينة .. وكان يؤسفه أن يضطر الى الضحك معهم !

وعادا الى لندن فى شهر مارس ، فباعا سيارتهما بثمن أقل مما اشترياها به بعشرة جنيهات ، ثم عكف اندرو على اعداد تقريره . وكان قد قرر أن يعطى اللجنة قدر مادفعت ، فيقدم اليها احصاءات عديدة ، وصفحات كاملة من الجداول والخرائط



والخطوط البيانية عن كل منطقة ، تظهر ان خط الضمادات كان يرتفع حينما ينخفض خط الجبائر . وأوضح لكريستين أنه مصمم على أن يثبت لهؤلاء السادة الى أى حد أتقن عمله ، وكيف انهم جميعا أضاعوا وقتهم تماما ! .. وفى آخر الشهر ، بعث الى جيل بمسودة سريعة . وأدهشه ان يدعوه الدكتور بيجسبى لمقابلته فى وزارة التجارة .. وقال له جيل وهو يرافقه الى (هوايت هول) : « **أنه مسرور من تقريرك .. هذه فرصتك الذهبية ! .. وما أحسبك تدرك أهمية بيجسبى .. انه يضع الجهاز الادارى كله فى قبضته ! »**

وأنفقا بعض الوقت قبل أن يصلا الى الدكتور بيجسبى ، اذ اضطرا الى البقاء زمنا ما فى قاعتى انتظار مختلفتين ، قبل أن يستدعيا الى الغرفة النهائية . وانتهيا أخيرا الى الدكتور بيجسبى ، فاستقبلهما مهيبا ، بشوشا ، وقد ارتدى بذلة رمادية ، وطماقين من نفس اللون .. وقد بادرهما بلهجة الرجل ذى النفوذ ، الجم المشاغل : « اجلسا ايها السيدان .. تقريرك يامانسون .. لقد رأيت المسودة ، ومع ان الوقت لم يحن بعد للتحدث عنه ، الا انه لزام على أن أقول انه أحدث عندى أثرا حسنا . فهو علمى الى أقصى حد ، ويشتمل على خطوط بيانية رائعة ، وهذا مايلزمنا هنا .. ولما كنا بصدد الشروع فى توحيد الادوات فى المصانع والمناجم ، فينبغى لى

أن أوقفك على آرائى .. فانا الاحظ – أولا – انك توصى باستعمال رباط عرضه ثلاث بوصات ، على انه اكبر رباط فى المجموعة . وأنا أفضل الرباط الذى عرضه بوصتان ونصف .. احسبك ستقرنى ، أليس كذلك ؟ »

فقال أندرو منفعلا : « ان رأيى فى ما يتعلق بالمناجم انه كلما كان الرباط اعرض ، كان ذلك أفضل . على اننى لا أحسب ان هذا يغير من الامر كثيرا » . فاحمر وجه بيجسبى وقال : « ماذا ؟ .. لا يغير من الأمر كثيرا ؟ » .. فقال اندرو : « بل انه لا يغيره اطلاقا ! »

– أنت اذن لاترى .. لا تفطن الى أن الامر يتصل بمبدأ الرباط النموذجى ذاته ؟ ! .. فلو افترضنا ان العرض النموذجى بوصتان ونصف ، وأوصيت انت بثلاث بوصات ، فلسوف تنشأ عن ذلك صعوبات جسيمة !

– اذن فاننى أوصى بثلاث بوصات .

واشتد استياء الدكتور بيجسبى ، وهو يقول : « ان موقفك صعب الفهم . لقد عملنا أعواما لنصل الى الرباط الذى عرضه بوصتان ونصف ، ألا تعرف ما لهذه المسألة من أهمية ؟ » .

فقال أندرو مستاء ، نافد الصبر : « أجل ، أعرف .. هل هبطت مرة الى بطن الارض ؟ .. لقد هبطت أنا ، وأجريت جراحة لعينة وانا منبطح على بطنى فى بركة من الماء القذر ، وعلى ضوء مصباح أمان واحد .. وأقول لكما بصراحة أن فرقا قدره نصف بوصة فى رباط ، لا يعادل سباب عامل متوجع ! »

* * *

وبرح الوزارة فى خطوات أسرع من خطواته حينما دخلها ، يتبعه جيل وهو يفرك يديه ، ويأسف – طيلة الطريق – على ماوقع من خلاف .. حتى اذا استقر أندرو فى مكتبه ، أطل

من النافذة ، وراح يتأمل حركة المرور فى النهر ، والشوارع المكتظة ، وسيارات « الاتوبيس » المتلاحقة ، وقطارات الترام وما كانت تحدثه — أثناء عبورها الجسور — من صخب ، والناس يروحون ويجيئون .. **راح يتأمل هذا الفيض من الحياة النابضة النشيطة ، ثم قال لنفسه وقد نفد صبره تماما : « أننى لم أخلق لهذا العمل الآلى الرتيب هنا .. ان مكانى هناك ، هناك فى الخارج ! »** .

وانقطع « آبى » عن حضور جلسات المجلس ، وكان تشاليس قد ثبط همة أندرو الى أقصى حد ، عندما دعاه للغداء قبل ذلك بثمانية أيام ، ونبهه الى ان « هوينى » كان يعمل جاهدا — من وراء ستار — على أن يكلف « أندرو » بالابحاث التى كان يطلبها عن « الاعياء العضلى » ، قبل ان ينصرف الى موضوع « السليكا » .. وراح أندرو يفكر فى كل هذا ، باذلا جهدا يائسا كى يهون من الامر على نفسه ، قائلا : « لو ان هذا حدث ، الى جانب مسألة الاربطة ، فمن الخير أن أطلب بطاقة لقاعة المطالعة فى المتحف البريطانى ! » (١)

واخذ — وهو عائد الى داره — ينظر فى حسد الى اللوحات النحاسية المثبتة على منازل الاطباء .. بل انه كان يقف ليرقب مريضا يصعد سلم احدى « العيادات » ، ويدق الجرس ، ويدخل .. ثم يتابع أندرو طريقه مكتئبا كسير القلب . **وكان يتمثل المشهد الذى يتلو دخول المريض : الاسئلة التى توجه اليه ، وظهور المسماع الطبى ، وجلسة التشخيص بكل مافيها من متعة .. انه هو الآخر طبيب ، أليس هذا صحيحا ؟ .. أو لعله كان طبيبا .. يوما ما !**

وبينما كان يسير — وهو فى هذه الحالة النفسية — فى شارع

---

(١) يقصد انه يؤثر ان يظل متعطلا بلا عمل على ان يكلف بمهام ليست فى نطاق بحثه .

(أوكلى) ، حوالى الساعة الخامسة من احد ايام مايو الاخيرة، لمح فجأة حشدا من الناس حول رجل منطرح على الافريز . وكانت فى القناة المجاورة دراجة محطمة تماما ، وفوقها ــ تقريبا ــ سيارة نقل تقف بانحــراف .. وان هى الا خمس ثوان ، حتى كان أندرو وسط الجمع ، ينظر الى الجريح وقد سال الدم منه بغزارة ، بينما أسنده أحد رجال الشرطة . فهتف: « ارجوكم .. افسحوا لى ! .. اننى طبيب ! » . فرفع رجل الشرطة رأسه فى لهفة ، اذ كان يحاول وقف النزيف عبثــا ، وقال : « لقد عجــزت يا دكتور عن وقف الدم . ان الجرح عميق فى الفخذ ! »

ورأى أندرو انه يستحيل استعمال الاربطة ، فان الشريان كان قد قطع فى جزئه الاعلى ، فانساب الدم دافقا بشكل ينذر بموت الجريح التعس . لذلك قال لرجل الشرطة : « ارفعــه ، واطرحه على ظهره ! » . **ثم جعــل ذراعه اليمنى فى وضع عمودى ، وانحنى على الجريح وضرب البطن بقبضته بشدة ، فوق الوريد الابهر . وهكذا استطاع بتركيز ثقل جسمه كله على الشريان الكبير وقف النزيف** . ورفع الشرطى قبعتــه ليجفف جبينه .. وبعد خمس دقائق وصلت سيارة اسعاف استقلها أندرو ومعه الجريح .

وفى صباح اليوم التالى ، اتصل اندرو بالمستشفى تليفونيا، فأجابه الطبيب المنوب اجابة خاطفة كالمألوف : « نعم ، نعم ، انه فى حالة جيدة ، ويتماثل الى الشفاء ! .. من الذى يستفسر عنه ؟ » . فغمغم اندرو : « أوه ! .. لا أحد ! » وكان هــذا هو الواقع تماما .. أجل ، لقــد كان يرى ــ فى حسرة ــ أن أحدا لم يفعل ولم يبلغ شيئا ! .. كان يرى انه .. « لا أحد » !

واحتمل هذا الواقع حتى نهــاية الاسبوع ، ثم .. **قــدم استقالته الى جيل ــ فى هدوء ، ودون ما ضجيج ــ ليرفعهــا**

الى المجلس . واستاء جيل برغم أنه كان يتوقع ـ وهو فى اشد الالم ـ هذا القرار المؤسف . والقى كلمة طيبة وجيزة ، اختتمها بهذه العبارة : « لقد أدركت يا صديقى فى النهاية أن مكانك ـ اذا جاز لى أن أستعمل تعبيرات وقت الحرب ـ ليس فى القاعدة ، وانما فى الجبهة مع .. مع الجنود ! » . وقال هوب : « لا تصغ الى قوله . انك سعيد الحظ ، وسوف أحذو حذوك فور انتهاء سنواتى الثلاث ، ان بقيت من عقلى بقية ! »

ولم يسمع أندرو أى حديث عن اجراءات اتخذها المجلس فى مسألة تسرب الغبار الى الرئة ، الى أن أثارها لورد أونجار فى البرلمان بطريقة مسرحية ، استند فيها الى كثير من الشهادات الطبية التى قدمها له الدكتور موريس جادسبى ، الذى حيته الصحافة كطبيب انسانى عظيم .. وفى تلك السنة ، ادرجت الاصابة بغبار « السليكا » ، فى قائمة « أمراض الصناعة » !

القسم الرابع

ـ ١ ـ

• **أخذ** أندرو و كريستين يبحثان عن عيادة يشتريانها فى أحد احياء (لندن) المناسبة .. وكان جهدا شاقا مضنيا ، تعاقبت فيه موجات الامل الجامحة ، وموجات القنوط الاكثر جموحا . وكان أندرو قد اتعظ من اخفاقه ثلاثا ـ فهكذا كان يرى تركه بلينيللى ، ثم ابيرالو ، ثم مجلس العمل فى هيئة الفحم والتعدين ـ فأخذ يطمح الى تدارك ما فاته . غير أن رأس مالهما كله ـ مضافا اليه القليل الذى ادخراه خلال الاشهر الاخيرة ذات المرتب الثابت ـ لم يكن يربو على الستمائة جنيه .. وترددا كثيرا على الوكالات الطبية ، وحاولا الافادة من الفرص التى تعرضها صحيفة « لانسيت » الطبية ، غير ان هذا المبلغ بدا أقل بكثير مما يتطلبه شراء عيادة فى لندن .

.. ثم لاحت لهما فرصة فى الافق ! .. كان الدكتور « برنت » - من (حدائق كادوجان) - يتأهب للتقاعد ، ويعرض عيادة تصلح نواة لعمل ناجح .. عيادة طبية مناسبة لزميل ذى مؤهلات طيبة .. ولاحت المناسبة فرصة ذهبية .
فاستقل أندرو وكريستين سيارة أجرة مضت بهما بسرعة مذهلة - خشية أن يسبقهما غيرهما - الى منزل الدكتور برنت . وكان رجلا نحيلا ، أشيب ، رقيق الحاشية، متواضعا .. وقال فى رصانة : « نعم ، انها صفقة جيدة الى حد كبير . والدار جميلة .. ولست أطلب سوى سبعة آلاف جنيه لقاء تحويل عقد الايجار ، (فما زال باقيا على نهايته اربعون عاما) ، وايجار الارض لا يتجاوز ثلاثمائة جنيه فى العام . أما مقابل العيادة وعملائها ، فلست أطلب أكثر من الثمن الجارى التعامل به .. ربح سنتين نقدا ، أليس كذلك يادكتور مانسون ؟ »

واجاب أندرو موافقا بايماءة من رأسه : « تماما .. وأحسبك ستزكينى ايضا لدى عملائك !.. شكرا يا دكتور برنت ، وسنفكر فى الامر ! » .. وأخذ الزوجان يبحثان الامر ، وهما يتناولان قدحين من الشاى ، فى مشرب « ليونز » بطريق برومبتون . فأطلق أندرو ضحكة قصيرة ، وقال : « سبعة الاف لتحويل عقد الايجار ! » .. ودفع قبعته عن جبينه المقطب ، وأسند معصميه الى رخام المنضدة ، واستطرد قائلا: **« يالها من طريقة مقيتة يا كريس ! .. طريقة هؤلاء الشيوخ الذين يعضون على المهنة بنواجذهم ، فلا تستطيعين اقناعهم بالتخلى مالم يكن لديك مال ! .. ألا يقع وزر هذا على نظام مهنتنا ؟ .. ولكننى سأتقبله رغم فساده ، وسترين ! .. سأعنى منذ الآن بجمع المال ! »**

فقالت مبتسمة : « لست أرجو هذا ، فقد كنا سعيدين الى حد كاف بدون المال ! » . فأجاب مزمجرا : « لن تقولى

شيئا كهذا عندما نضطر لأن نغنى فى الشوارع لنكسب قوتنا ! »

واذ كان حاصلا على « الدكتوراه » فى الطب ، وعضوية الجمعية الطبية الملكية ، فانه لم يشأ أن يحصل على « مستوصف » ، ولا على عيادة تعيش على اشتراكات شهرية ، بل كان يحرص على التحرر من طغيان نظام البطاقات . بيد أنه راح يحس – مع مضى الوقت – بأنه بحاجة الى أى شىء يعيش منه .. وتفقد عيادات فى (تولسى هيل) ، وفى (ايزلينجتون) ، وفى (بريكستون) .. وزار عيادة فى (كامبدن تاون) ، كان سقف غرفة الاستشارة فيها مخروقا .. ونقد استشار « هرب » بصددها ، فقال له ان من الانتحار أن يستأجر دارا ، يعلق عليها لوحة باسمه ، فى انتظار ماتأتى به الاقدار .. وهو لم يؤت من المال الا قليلا .

وبعد انقضاء شهرين ، وقد يئسا تماما ، اشفقت عليهما السماء ، فسمحت بان يموت الدكتور الشيخ « فوى » بدون ألم فى (بادنجتون) . ووقع نظر أندرو على نعيه فى « الجازيت الطبية » ، فأسرع وكريستين – فى غير تحمس – الى رقم ٩ (تيراس تشيسبورو) ، وشاهدا الدار ، فاذا بهما امام دار كبيرة قاتمة أشبه بالقبر ، وقد استقرت العيادة فى أحد جوانبها ، وأقيمت خلفها حظيرة للسيارة .. واطلعا على الدفاتر التى تثبت أن دخل الدكتور « فوى » كان يقرب من خمسمائة جنيه فى العام ، أكثره من استشارات طبية يقدم معها الدواء للمريض ، بواقع ثلاثة شلنات ونصف . وتحدثا الى الارملة ، فأكدت لهما – فى تواضع – أن سمعة الدكتور فوى كانت طيبة ، وأن عدد مرضاه كان هائلا يوما ما ، وكان بينهم عدد من ذوى الشخصيات البارزة ، اعتادوا أن يفدوا لاستشارات خاصة .. فشكراها وانصرفا دون أن يرتبطا بشىء !

وقال اندرو لزوجته : « الواقع اننى فى حيرة من أمرى ..

هناك مساوىء عديدة . فأنا اكره كل الكراهية بيع الادوية، كما ان الموقع غير مناسب . هل فطنت فى جواره الى كل تلك « البنسيونات » العتيقة ؟ .. على أن الدار قريبة جدا من حى ملائم ، وتقع عند تقاطع شارع صغير مع شارع كبير ، كما أنها فى نطاق امكانياتنا ، ربح عام ونصف . ثم أنه كان جميلا من السيدة أن قالت انها ستترك لنا أثاث المكتب وأثاث المستوصف .. وأخيرا فى مقدورنا أن نتسلم الدار على الفور، وهذه ميزة الخلو بسبب الوفاة . فما قولك يا كريس ؟.. هل نغامر ونعقد الصفقة ؟ »

ونظرت اليه مترددة .. كانت فتنة لندن قد فقدت جدتها فى نظرها ، اذ كانت تعشق الريف ، وقد ازدادت حنينا اليه فى تلك البقعة ذات الجو المعتم .. ولكنها مع هذا كانت ترنو الى مركز لزوجها فى لندن ، فلم تكن تقوى على ان تحاول أثناءه عن قصده ، وأبدت موافقتها بايماءة متثاقلة : « اذا كنت ترغب فى ذلك ! »

وفى الغداة عرض اندرو على وكيل أعمال مسز فوى ستمائة جنيه بدلا من السبعمائة وخمسين المطلوبة .. وقبل العرض ، فوقع اندرو اذنا مصرفيا بالمبلغ .

* * *

وفى يوم السبت ـ العاشر من اكتوبر ـ نقلا أثاثهما من المستودع ، وتسلما مسكنهما الجديد .. ولم يتخلصا من أكداس القش وأوراق التغليف الا فى يوم الاحد ، فأخذا يدرسان ـ فى غير قليل من القلق ـ موقفهما . واغتنم أندرو هذه اللحظات لكى يلقى عظة من تلك العظات النادرة ، الثقيلة الوطأة ، التى كانت تبديه كقس كنيسة متزمت : « علينا الآن أن نرتب أمورنا ياكريس ، فلقد دفعنا كل ما كنا نملك ، **وسيكون لزاما علينا أن نعيش مما نكسبه ، ولا يعلم غير الله**

مقداره . ولكن علينا أن نسعى .. وسيتحتم عليك ، يا كريس ، ان تضغطى النفقات .. أن تقتصدى ..! » .

ووجم اذ انفجرت فى البكاء ، وهى تقف شاحبة الوجه فى القاعة الامامية الكبيرة ، القليلة الضوء ، ذات السقف القذر والارض العارية .. وقالت بين شهقاتها : « دعنى وشأنى بحق السماء !.. أقتصد ! ألست أقتصد لك دائما ؟.. هل ترانى أكلفك شيئا ؟ » . فهتف مشدوها : « كريس ! » . فارتمت بين ذراعيه جزعة ، وقالت : «انها هذه الدار ! لم أكن أتوقع .. هذا القبو ، وهذه الدرجات ، والقذارة ..! » .

ـ لكن .. دعك من كل هذا ، فالمهم هو حركة العمل فى العيادة !

ـ كان فى مقدورنا الحصول على مركز صغير فى أى مكان فى الريف .

ـ أجل ، مع ورد فوق بوابة الكوخ .. ياللعنة !

وانتهى الامر بأن اعتذر لها عن عظته ، ثم ذهبا ـ وهو يطوق خصرها بذراعه ـ ليطهوا بعض البيض فى القبو اللعين . وهناك حاول ادخال السرور الى نفسها زاعما أنه لم يكن قبوا ، وانما كان صورة مصغرة لنفق (بادنجتون) ، قد تمر فيه القطارات فى أية لحظة .. وارتسمت على شفتيها شبه ابتسامة لتظاهره بالمرح ، وان راحت ـ فى الواقع ـ تنظر الى حوض المطبخ ، اذ كان مصدوعا !

وفى الساعة التاسعة تماما من صباح اليوم التالى ، فتح باب المستوصف . وكان أندرو قد رأى ان لا يبكر عن ذلك ، حتى لا يبدو شديد الاهتمام والتطلع . وراح قلبه يخفق بشدة ، وهو ينتظر المرضى ، فى انفعال اشد بكثير من انفعاله فى ذلك الصباح ، الذى كاد ينساه ، والذى قام فيه بأولى استشاراته الطبية فى (بلينيللى)

التاسعة والنصف .. انتظار ممض !.. وكان بوسعه أن

يراقب – من المستوصف الصغير الذى يقع بابه على الشارع الخلفى والذى تصله باندار ردهة صغيرة – مكتب الاستشارات الخاصة ، وهو الغرفة الرئيسية بالطابق الارضى ، وقد أثثت تأثيثا ملائما – فضمت مكتب الدكتور « فوى » ، وأريكة وصندوقا – ليستقبل فيها « المرضى البارزين » ، على حد قول مسز فوى ، الذين يفدون من الباب الكبير .

وقصارى القول أنه أصبح يمتلك شبكتين فى الماء ، فكان – ككل صائد – يرقب ما عسى أن تجيئه به هاتان الشبكتان .

غير أنهما لم تجيئا بشىء .. لم تجيئا بشىء البتة !.. واشرفت الساعة على الحادية عشرة ولما يتقدم بعد مريض واحد ..

وكان سائقو سيارات الاجرة يقفون بجوار سياراتهم المصطفة – فى الجانب الآخر من الشارع – يثرثرون فى هدوء ، ولوحته تلمع على الباب ، أسفل لوحة سلفه المغبرة !.. وفجأة ، وبعد أن فقد كل أمل ، دق جرس المستوصف دقا شديدا ، ثم أقبلت عجوز تضع على رأسها شالا .. وأدرك من صفير أنفاسها ، قبل أن تفوه بكلمة ، أنها تشكو من نزلة شعبية مزمنة . فأجلسها برعاية فائقة ، وفحصها .. وكانت احدى مريضات الدكتور « فوى » ، فأخذ يجاذبها الحديث ، ثم دلف الى الصيدلية – وكانت جحرا صغيرا فى وسط الردهة المؤدية من العيادة الى المكتب – حيث أعد لها دواء ، ثم حمله



اليها .. وفى اللحظة التى أوشك فيها ان يطلب ، مرتعشا ، الشلنات الثلاثة والنصف ، قدمتها له دون أن تنبس ببنت شفة !

وكان انفعاله فى تلك اللحظة ، والابتهاج والارتياح الصادقان اللذان استشعرهما لوجود هذه النقود فى راحة يده .. كانت كلها احاسيس تفوق الخيال . وبدت له تلك النقود وكأنها اول كسب له فى حياته ، فاغلق العيادة وهرول الى كريستين ، وألقى بالنقود فى حجرها هاتفا : **((المريضة الاولى يا كريس . من المحتمل أن لا تكون العيادة سيئه . على أيه حال .. ومهما يكن من شىء فهذا يكفى لابتياع عدائنا !))**

ولم تكن ثمة عيادات خارجية يؤديها ، اذ كان قد مضى على وفاة الطبيب الشيخ ثلاثه أسابيع دون أن يحل محله أحد . ولهذا فقد كان لزاما على اندرو أن ينتظر حتى يستدعى . وكان قد أدرك من مزاج كريستين أنها تؤثر ابقاء بمفردها ، لكى تعنى بشئون البيت . ولهذا شغل فراغه بالتجول فى الحى منقبا ، فاحصا البيوت العتيقة ، والسلسلة الطويله من الفنادق الخاصة ، والميادين ذات الحدائق الهزيلة والخضرة الذابلة الرازحة تحت ركام من السناج ، وحظائر الخيل التى حولت الى ((جراجات)) .. وبعد منعطف صادفه بغتة ، فى شارع الشمال ، أقبل على حى شعبى فقير : متاجر الإقراض برهون ، وعربات الباعة المتجولين ، وحانات ، ومتاجر ذات نوافذ عرضت فيها أدوية مجهزة ، وأدوات من المطاط حمراء فاقعة .. ألخ

وأقر - بينه وبين نفسه - ان هذا الحى قديم ممعن فى القدم ولا ريب .. كان حيا فقيرا ، قذرا ، ومع ذلك ، فقد كانت تسرى فيه أمارات حياة جديدة ، اذ كانت هناك دور جديدة تبنى ، وبعض المحال الجميلة ، ومكاتب .. وهناك فى نهاية ميدان (جلادستون) بيت الأزياء الشهير ((اورييه)) .

وكان أندرو ، وهو الذى لا يعرف شيئا عن الازياء النسوية ، قد سمع الناس يتحدثون عن هذا البيت . ولو لم يكن ذلك الصف من السيارات الفاخرة الواقفة امام المبنى ، و .. لو لم تكن تلك النوافذ الحافلة ، فان أندرو اقتنع بأن ما سمعه عن روعة هذا المتجر كان صحيحا كل الصحة .. ورأى أن من الغريب أن يقام « بيت لوريبه » فى مكان بعيد عن الاناقة ، كموقعه هذا . ولكنه كان قائما فعلا !

واختتم ــ فى فترة بعض الظهر ــ اولى جــولاته بأن زار زملاءه الذين كانوا يقطنون قريبا منه .. فأدى ــ فى المجموع ــ ثمانى زيارات ، خلفت ثلاث منها فى نفسه بعض الانطباعات . وكانت أولاها زيارته للدكتور « اينس » الشاب ، وثانيتهـا زيارته « لريدر » ــ فى نهاية شارع (الكسندرا) ــ والثالثة زيارته لطبيب اسكتلندى يدعى « ماك لين » ، فى ركن من ميدان (الملك) . غير ان اللهجة التى قالوا له بها : « آه ! اذن فالعيادة التى « اتخذتها » هى عيادة الشيخ المسكين فوى ؟ » ، أحدثت فى نفسه أثرا سيئا شيئا ما ، فساءل نفسه : « فيم عبارة «**اتخذتها**» هذه ؟ » . وراح يعلل نفسه بأنه لن يلبثان يضطرهم الى تغيير موقفهم خلال ستة أشهر ، فقد كان يكره الخنوع ــ كره القط للماء ــ برغم أنه أصبح فى الثلاثين ، وعرف قيمة التحفظ !

وجاءه فى العيادة ــ فى فترة المساء ــ ثلاثة من المرضى ، أعطاه اثنان منهم الشلنات الثلاثة والنصف ، ووعد الثالث بأن يحضر لسداد المبلغ فى يوم السبت . وعلى هذا ، فقد بلغ دخله ــ فى يومه الاول ــ عشرة شلنات ونصف .. ولكنه لم يصب شيئا فى اليوم التالى .. وفى اليوم الذى أعقبه ، حصل على سبعة شلنات فقط . أما يوم الخميس فكان حسنا ، بينما كان الدخل معدوما ــ أو يكاد ــ فى يوم الجمعة .. وبعد صباح انقضى بدون عمل ــ فى يوم السبت ــ كسب فى المساء

سبعة عشر شلنا ونصف ، مع ان المريض الذى ائتمنه يوم الاثنين لم يحترم وعده بالحضور لسداد ما عليه !..

واستعرض اندرو نتائج الاسبوع فى يوم الاحد ، دون أن يحدث كريستين عن الامر : ترى هل ارتكب خطأ شنيعاً ، بافتتاحه هذه العيادة البائسة ، ودفنه كل مدخراتهما فى هذا البيت الشبيه بالقبر ؟.. وما الذى ينقصه لكى يكون موفقاً؟.. لقد كان فى الثلاثين ــ بل فوقها بقليل ــ وقد حصل على الدكتوراه فى الطب ، وعلى عضوية جمعية الاطباء الملكية ؛ وفن كلينيكى وأبحاث كلينيكية بديعة تشرفه تماما . ومع هذا ، فانه لا يكاد يحصل الا على الدخل الذى يدرأ عنه خطر الموت جوعا ، برغم أن المريض لا يتكبد أكثر من ثلاثة شلنات ونصف !.. وقال فى نفسه محنقا : ((انه نظام المهنة!.. نظام عتيق ، بال .. كان ينبغى أن يكون هناك نظام أفضل ، يكفل الفرصة لكل امرىء .. وليكن نوعاً من الرقابة تفرضه الدولة !..)) وهنا تأوه اندرو وهو يذكر الدكتور بيجسبى ومجلس العمل فى صناعة الفحم والتعدين ، فهتف فى نفسه : ((كلا ، وحق الشيطان ، ليس هناك أمل يرتجى !.. لقد عرقلت ((البيروقراطية)) كافة الجهود الفردية ، وهذا يخنقنى. يجب أن أنجح .. وسأنجح والله !))

ولم تشغل الناحية المالية من المهنة باله فى أى وقت مضى بقدر ما شغلته فى تلك الايام .. وما كانت ثمة وسيلة لتحويله الى رجل مادى ، أقوى من تلك النوبات من العذاب والحسرة التى راحت تراوده فى أكثر أيام الاسبوع .

* * *

على مسافة نحو مائة متر سيرا فى الشارع الرئيسى ــ الذى تجرى فيه الحافلات ــ كان ثمة حانوت صغير للبدالة ، تديره امرأة قصيرة بدينة ، كانت المانية الاصل ولكنها لم

تلبث ان اكتسبت الجنسية الانجليزية ، وسمت نفسها « سميث » ، ولكن لغتها الانجليزية ظلت مشوبة بلكنة تدل على أن هذا الاسم كان فى أصله « شميدت » . وكان هذا المتجر الصغير يمتاز بتنوع أصناف البدالة ، وبرخص أثمانها . وقد اعتاد أندرو وكريستين ان يبتاعا منه أكثر ما يحتاجان اليه . فلم تلبث صاحبته ان عرفتهما ، وأن احبت كريستين حبا شديدا . وكانت تقول لاندرو : « لسوف يسير كل شىء على ما يرام ، ولسوف تنجح ، فان لك زوجة رقيقة الجانب .. انها شابة مثلى وان كانت أكثر نشاطا منى .. تريث قليلا وسأرسل لك مرضى ! »

وأقبل الشتاء مباغتا ، فانتشر الضباب فى الشوارع ، يضاعفه دائما — فيما يبدو — ذلك الدخان المتصاعد من محطة السكة الحديدية الكبيرة المجاورة . **وراح الزوجان يسريان عن نفسيهما زاعمين ان فى مثل هذا الجو جدة طريفة بالنسبة اليهما . ولكنهما لم يكونا قد عرفا خلال السنوات التى قضياها فى (ايرالو) فصلا فى مثل هذه القسوة !**

وراحت كريستين تبذل قصارى جهدها فى تغيير معالم كوخهما الكبير ، الذى كان فى برودة الثلج . فطلت السقوف ، وصنعت ستائر جديدة لغرفة الانتظار ، وكست جدران مخدعهما بالورق ، ومحت طابع القدم عن الابواب العتيقة التى كانت تشوه قاعة الاستقبال بالطابق الاول ، بأن طلت الابواب والاطارات باللونين الاسود والذهبى .

ولقد استدعى أندرو بضع مرات لعيادة بعض المرضى فى « البنسيونات » العائلية المجاورة . وكان من الصعب الحصول على أتعاب من هؤلاء العملاء ، فهم فى الغالب فقراء وغير جديرين بالثقة ، لاتقانهم فن السلب والاحتيال . وكان يحاول أن يظهر بمظهر لائق أمام النسوة اللائى يدرن هذه « البنسيونات » ، فكان يقول : « لم أكن أتصور أن الطقس

بارد الى هذا الحد والا لارتديت معطفى » .. أو « ما أصعب أن يخف المرء لعيادة خارجية ، اذ أن سيارتى معطلة فى هذه الايام ! » .. وصادق الشرطى الذى كان ينظم حركة المرور فى البقعة القائمة أمام متجر « سميث » ، وكان يدعى « دونالد ستروذرز » ، فاستطاعا أن ينسجما من البداية ، اذ كانا من موطن واحد ، فوعد « ستروذرز » مواطنه بأن يبذل كل ما كان فى مقدوره لمساعدته ، قائلا بلهجة مازحة : **« اذا داست سيارة انسانا ما وقفت عليه ، فلن أتأخر عن استدعائك بنفسى يا دكتور ! »**

وفى عصر ذات يوم ـ بعد قرابة شهر من استقرارهما ـ ذهب الى صيدلى الحى ، وطلب محقنا خاصا سعة عشرة سنتيمترات مكعبة ، من طراز كان يوقن جازما بأنه غير موجود لدى الصيدلى . ولكنه اتخذها ذريعة ليقدم نفسه فى سياق الحديث على أنه طبيب « تيراس تشيسبورو » الجديد . حتى اذا عاد الى داره تبين من وجه كريستين أن هناك حدثا جديدا .. وبادرته قائلة : « فى مكتبك مريضة أقبلت من الباب الكبير ! » . فأشرق وجه اندرو ، اذ أنها كانت أول مريض من علية القوم يجىء اليه ، فلعلها بداية فترة أفضل !



ودلف مغتبطا الى مكتبه ، فبادر المريضة قائلا : « طاب نهارك يا سيدتى .. أية خدمة أستطيع أن أقدمها لك ؟ » .

فأجابته : « طاب نهارك يا دكتور .. ان السيدة سميث هى التى ارسلتنى اليك ! » . ونهضت باسطة يدها اليه .. كانت بدينة ، بادية الطيبة ، وقد ارتدت معطفا قصيرا من الفراء ، وامسكت بحقيبة يد كبيرة .. وتبين اندرو على الفور أنها من بنات الهوى اللائى يجبن الحى . فسألها وقد خف ابتهاجه : « ماذا بك ؟ » . واجابت مبتسمة فى استحياء : « أوه يا دكتور !.. لقد أهدانى خليلى قرطا جميلا ذهبيا .. وقالت لى السيدة سميث – التى أبتاع منها حاجياتى – أنك لا تمانع فى أن تثقب لى أذنى ، فان خليلى يخشى كثيرا أن يتم ثقبهما بابرة ملوثة أو شىء من هذا القبيل ! »

وجهد أن يستعيد هدوءه ، وهو يسائل نفسه محسورا : اتراه قد تردى الى هذا الحضيض ؟. ولكنه قال : « حسنا ، سأثقب اذنيك ! » .. وباشر العمل بعناية فائقة ، معقما الابرة ، مطهرا مكان الثقب بالكلور . بل لقد ذهب الى حد أن ألبسها القرط بنفسه . فهتفت وهى تتأمل صورتها فى مرآة حقيبتها : « آه يا دكتور ، هذا عظيم !.. تصور أننى لم أحس بشىء على الاطلاق .. سيسر خليلى غاية السرور !.. كم أدفع لك يا دكتور ؟ » .. وكان عملاء الدكتور « فوى » المتازون ، يدفعون سبعة شلنات ونصف ، مهما يكن ثراؤهم .. وقدمت له المرأة ورقة من فئة العشرة شلنات ، وهى تتأمله فتراه رقيق الجانب ، ممتازا ، مليح الوجه .. وقالت لنفسها ، وهى تتناول بقية نقودها ، أنه كان يبدو جائعا !

وعندما انصرفت لم يكن غاضبا ، كما كان يغضب من قبل اذ يخال انه أصبح مبتذلا لاجرائه هذه العملية التافهة .. على انه شعر بهوان غريب ، فوقف فى النافذة وورقة النقد فى يده ، يعبث بها فى انفعال ، وهو يرقب المرأة تبتعد

فى الطريق ، وقد راحت تهز ردفيها ، وتؤرجح حقيبة يدها ، مختالة بقرطها الجديد !

— ٢ —

• أخذ أندرو — وهو ماض فى هذا النضال المرير — يتطلع الى صديق من الاطباء . ولقد ذهب الى اجتماع لاطباء الحى ؛ ولكنه لم يرتح اليهم كثيرا . وكان « دينى » لايزال فى الخارج ، وقد راقت له (تامبيكو) فاستقر بها فى منصب طبيب بشركة « بترول القرن الجديد » ، فانقطعت صلته بأندرو فى تلك الفترة على الاقل . أما « هوب » فقد اوفد الى (كامبرلاند) ليحصى الكريات الحمراء ، ارضاء للهاة مجنون ، على حد تعبيره الساخر فى بطاقة ذات الوان فاقعة ارسلها الى أندرو .

وكم من مرة استفزته الرغبة فى الاتصال بفريدى هامبتون، ومع ان هذه الرغبة كثيرا ما دفعت به الى دليل التليفون ، الا أن تذكره انه لم يكن بعد موفقا ، ولا مستقرا — كما كان يقول فى نفسه — كان يرده عن المضى الى ابعد من هذه الخطوة. وكان فريدى لايزال فى شارع (الملكة آن) ، وان انتقل الى منزل غير الذى كان فيه . وأخذ أندرو يسائل نفسه فى الحاح متزايد عما صار اليه فريدى ، ويتذكر ما كان بينهما فى سنى دراستهما .. وأخيرا لم يسعه — ذات يوم — الا أن يطلب هامبتون بالتليفون ، وقال له : « الارجح أنك نسيتنى تماما .. ان مانسون هو الذى يكلمك .. أندرو مانسون ! .. انى أمارس المهنة هنا فى بادنجتون ! »

— مانسون .. انا انساك ايها الحصان العجوز ؟! (وبدا فريدى مرحا مبتهجا) لك الله يا فتاى ، لماذا لم تتصل بى من مدة طويلة ؟

فقال اندرو مبتسما للمسماع ، وقد شجعته عبارات فريدى : « آه ! .. لم يستقر مقامنا الا من وقت وجيز . وقبل هذا ،

كنا نجوب انجلترا بأسرها ، حينما كنت أشغل تلك الوظيفة فى المجلس .. لقد تزوجت ، أتعرف هذا ؟ » . فأجابه فريدى : « وأنا الآخر .. اسمع أيها الاخ المسن ، يجب أن نتقابل ، وأن نتقابل سريعا . اننى ألح فى هذا . أنت هنا فى لندن ! هـذا بديع ! .. أين مفكرتى ؟ .. اسمع ، ماقولك فى يوم الخميس القادم ؟ .. هل يمكنك الحضور للعشاء ؟ .. نعم ، نعم ، هذا عظيم ! .. الى اللقاء اذن .. والى ان يتم ذلك ، سأسأل زوجتى ان تكتب كلمة لزوجتك ! »

.. ولم تبد كريستين ابتهاجا ، حين أبلغها نبأ الدعوة ، بل قالت بعد صمت قصير : « اذهب انت بمفردك ! »

ـ أوه ، ماهـذه الفـكرة ؟ ! .. ان فريدى يرغب فى أن تتعرفى بزوجتـه . وأنا أعـلم انه لايروق لك كثيرا ، ولـكن سيكون هناك أشخاص آخرون .. أطباء على الارجح . وقد نحظى بفكرة جديدة يا حبيبتى ، فضلا عن اننا لم نحظ بترفيه ما فى الفترة الاخيرة .. لقد قال لى ان السهرة ستكون بربطة العنق السوداء . ومن حسن الحظ اننى كنت قد ابتعت تلك السترة السوداء أيام زيارتنا لمناجم (نيوكاسل) .. أما أنت يا كريس ، فأحسب انك بحاجة الى ثوب جديد !

فأجابت فى أسى لاذع بعض الشىء : « بل أنا أحوج الى فرن جديد للطهو ! » .. **وكانت الاسابيع الاخيرة قـد أرهقتها ، ففقـدت بعض النضرة التى كانت سر فتنتهـا ، وأصبحت لهجتها فى بعض الاحيان ـ كما كانت فى هـذه المناسـبة ـ مقتضبة ، جافة !**

وبينما كانا يتأهبان للذهاب الى شارع (الملكة آن) ـ فى مساء يوم الخميس ـ حانت من أندرو التفاتة الى زوجته ، فلم يتمالك نفسه من أن يعجب أيما اعجاب بمظهرها فى ثوبهـا .. كان عين الثوب الابيض الذى كانت قد ابتاعته لحفلة العشاء التى حضراها فى (نيوكاسل) ، وقد أعملت فيه يد التغيير

والاصلاح ، بحيث غدا أقرب الى أحدث طراز ، وأكثر أناقة . كما انها صففت شعرها على نمط جديد ، بحيث لمت خصلاته حول وجهها ، فبدا كاطار اسود أحاط بجبينها الشاحب .. وقد فطن الى ذلك بينما كانت تعقد له ربطة عنقه ، وهم بأن يعبر لها عن اعجابه ، ثم نسى اذ فطن فجأة الى أنهما قد تأخرا .. بيد أنهما كانا – على العكس – مبكرين الى حد أنهما انتظرا محرجين ثلاث دقائق قبل ان يدخل فريدى مبتهجا ، فيبسط لهما يديه معا ، ويحييهما معتذرا بأنه كان قادما لتوه من المستشفى ؛ وأن زوجه لن تلبث ان تهبط بعد لحظة . ثم دعاهما للجلوس ، وقدم لهما شرابا وهو يربت ظهر أندرو .

وبدا فريدى أكثر سمنة مما كان فى الامسية التى التقوا فيها فى (كارديف) ، وقد تهدل لحم عنقه ، مما نم عن أنه كان فى سعة . على أنه ظل محتفظا بعينيه الصغيرتين البراقتين ، وشعره الاصفر المصفف بأناقة تامة . وكان بادى العناية بطلعته ، حتى ان وجهه كان يلمع .. وصاح وهو يرفع قدحه : « صدقانى انه لبديع أن نعود فنلتقى . يجب هذه المرة الا نعود الى التباعد ! .. كيف تجد مسكنى أيها الزميل الحميم ؟ .. ألم أقل لك هذا ونحن نتناول العشاء فى (كارديف) ، فى تلك الامسية .. وأى عشاء كان ؟ ! .. أحسب أن عشاءنا الليلة سيكون أفضل ، لسوف أعنى بهذا ! .. اننى أشغل الدار كلها طبعا ، وليس طابقا واحدا منها .. ولقد ابتعتها فى العام الماضى .. وكم كبدتنى ! » . وأصلح ربطة عنقه فى ارتياح ، وهو يستطرد قائلا : « ليس بى من حاجة الى أن أعلن على الملأ اننى موفق ، ولكن لى أن أقول ذلك لك انت يا صديقى الحميم ! »

* * *

وكان منظر الدار يوحي بحياة كثيرة النفقة . فقد كان الاثاث حديثا باذخا ، وكانت ثمة مدفأة كبيرة ، وبيانو فاخر تعلوه زهرية بيضاء كبيرة بها أزهار صناعية من نوع «المانوليا»، صيغت من الصدف . وهم أندرو بأن يبدى أعجابه ، واذا مسز هامبتون تدخل .. كانت طويلة ، غضة ، مصففة الشعر على نحو خلاب ، ترتدى فستانا يختلف كثيرا عن فستان كريستين . وقال فريدى يحييها فى حب ، بل واحترام ، وقد اندفع يملأ لها كأسا من الشراب : « تعالى يا عزيزتى ! » . ولم تكد تومىء بيدها فى استرخاء ، مبدية عزوفها عن الشراب ، حتى وفد المدعوون الآخرون : مستر ومسز تشارلز ايفورى ، والدكتور ومسز بول فريدمان . وتم التعارف وسط الثرثرة والقهقهة ، حتى اذا حان وقت العشاء ، انتقلوا الى غرفة المائدة .

وكانت المائدة تنم عن بذخ عريض : الغطاء ، والمنشفات ، والآنية والاقداح ، والثريات تشبه الى حد كبير مجموعة غالية الثمن كان أندرو قد رآها فى نافذة محل « لابين آند بن » الشهير ، بشارع (ريجنت) .. ولم يدر أحد هل كان الطعام لحما أو سمكا ، ولكنه كان شهيا .. وأديرت كؤوس الشمبانيا . وبعد الكأس الثانية ، استرد أندرو ثقته بنفسه ، فأخذ يتحدث مع مسز ايفورى ، التى كانت تجلس الى يساره .. وكانت امرأة جد نحيلة ، ترتدى ثوبا أسود ، وتتزين بحلى كثيرة ، ولها عينان زرقاوان بارزتان ، راحت تديرهما ـ بين آونة وأخرى ـ نحوه فى براءة الطفل . وكان زوجها هو الجراح « تشارلز ايفورى » . وقد ضحكت لاسئلة أندرو ، اذ كانت تخال أن كل انسان يعرف تشارلز .. وذكرت له أنهما يقطنان منزلا يملكانه عند ناصية شارع (نيو كافنديش) .. وقالت ان من البديع ان يكون الانسان على مقربة من فريدى وزوجه . كان تشارلز وفريدى وبول

فريدمان أصدقاء أوفياء بعضهم لبعض ، وثلاثتهم أعضاء فى نادي « سيكفيل » . **ودهشت مسز ايفورى حين اعترف لها أندرو بأنه لم يكن من أعضاء هذا النادى ، فقد كانت تحسب أن كل انسان عضو فيه !**

وما لبثت ان شغلت عنه ، فاستدار نحو جارته الاخرى مسز فريدمان ، فألفاها ارق حاشية ، يقرب لون بشرتها من لون البشرة الشرقية . وحملها ـ هى الاخرى ـ على ان تتحدث عن زوجها ، قائلا لنفسه انه كان حريا بأن يقف على أحوال هذا الرجل ، اذ كان وزوجه من الثراء والاناقة بحيث اثارا فضوله . . قالت مسز فريدمان ان زوجها «بول» كان طبيبا ، وكان يقيم فى ميدان (بورتلاند) ، وله عيادة فى شارع (هارلى) تستقبل كل يوم عديدا من المرضى الميسورى الحال . وكانت لهجتها صادقة ، فلم يداخله أى شك فى كلامها ، ومضت تقول انه كان طبيب فندق بلازا ، وقد افترضت أنه كان يعرف ذلك الفندق الكبير الحديث المبنى ، المشرف على متنزه رائع ، والذى كان يغص ـ وقت العشاء ـ بمشاهير الرجال ، والذى اعتاد أن ينزل فيه الامريكيون الاثرياء ، ونجوم السينما و . . .

وارتاح اندرو الى مسز فريدمان ، فتركها تمضى فى حديثها ،



الى ان نهضت مسز هامبتون ، فسارع الى ابعاد مقعدها عن طريقها . وسأله فريدى عندما انتقلت السيدات الى غرفة أخرى : « هل لك فى سيجار يامانسون ؟ .. هذا سيجار من نوع جيد جدا وأنصحك بأن تدخن واحدا منه ، فهو فى الواقع منقطع النظير !» .. وادنى اندرو مقعده من مقاعد الآخرين ، وفى فمه سيجاره ، وأمامه قدح شرابه . **وكان هذا هو ما يرتقبه فى الحقيقة .. كان يتوق الى حديث حار حول الطب ، يدور بين أهل المهنة ، ولا يعدو نطاقها . كان يرجو أن يتكلم فريدى وصديقاه ، وقد فعلوا ..** اذ قال فريدى : « بهذه المناسبة ، لقد أوصيت اليوم على جهاز أشعة من محل جليكرت ، من هذه الاجهزة الحديثة .. أنه مرتفع الثمن ، اذ تبلغ قيمته نحو ثمانين جنيها ، ولكنه جدير بهذا الثمن ! » . فقال فريدمان مفكرا : « أعتقد أنه يدر دخلا يناسب ثمنه » .

وتناول اندرو سيجاره ، واقتحم النقاش : « لست أحفل كثيرا بهذه الاجهزة ، فى الواقع . هل قرأتم مقال « أبى » فى « الجورنال » ، ذلك المقال الذى يتحدث عن العلاج المزعوم بأشعة الشمس ؟ .. ان هذه الاجهزة لا تعطى اطلاقا أشعة تحت الحمراء » .. **فالتفت اليه فريدى ثم أخذ فى الضحك ، وقال : « ولكنها تعطى مالا حصر له من الثلاثة الجنيهات(١) ، فضلا عن أنها شديدة اللمعان ! »** . فقال فريدمان : « ثق يافريدى اننى لست فى جانب الاجهزة غالية الثمن ، اذ يتحتم استهلاك ثمنها قبل الحصول منها على أى ربح ، فضلا عن أنها سرعان ما تصبح عتيقة بفضل ظهور أجهزة احدث . انك

---

(١) يقصد انها مصدر دخل كبير ، اذ يتقاضى الطبيب من كل مريض ثلاثة جنيهات ، مقابل الفحص بالأشعة .

ياعزيزى لا تجد شيئا يتفوق على جهاز (هيبو) القديم » .
فقال هامبتون : « انك تستخدمه فعلا ! »

وهنا تدخل ايفورى فى الحديث .. وكان رجلا بدينا ، أكبر سنا من الآخرين ، حليق الفودين ، شاحب الخدين . فقال : « لقد عقدت اليوم صفقة بشأن حقن مريض باثنتى عشرة حقنة « منجنيز » . سأقول لكم ماذا فعلت ، وأحسب أن هذا هو الاجدى فى أيامنا هذه .. لقد قلت للمريض : **« أعرنى سمعك : انك رجل أعمال ، واعطاؤك هذه الحقن سيكلفك خمسين جنيها ، أما اذا شئت ان تدفع لى القيمة فورا – لنحسم الامر فلا نعود الى الخوض فيه – فسأعطيك اياها بخمسة واربعين جنيها ! »** .. فسلمنى « الشيك » على الفور ! » .

فقال فريدى : « يالك من لص كبير !.. كنت أحسبك جراحا ! » . فقال ايفورى : « وانى لكذلك ، وسأجرى جراحة غدا فى شـيرينجتون » . فغمغم فريدمان وكأنه غائب عن المجلس : « عبث لا طائل تحته ! » . ثم عاد الى فكرته السابقة قائلا : « ومع هذا فلا سبيل الى عمل شىء آخر . انه لامر طريف فى واقعه . فان العلاج بالادوية التى تؤخذ عن طريق الفم ، لم يعد يلائم روح العصر لدى الطبقة الراقية . فلو اننى أمرت لمريض فى « بلازا » بمسحوق « الاومنيبون » ، لما ظفرت بأكثر من جنيه . **أما اذا أنت أعطيت المادة ذاتها فى حقنة ، ورحت تنظف الجلد ، وتعقم الحقن ، الى آخر هذه المسرحية الكبرى ، فان مريضك يرى فيك قطبا من أقطاب العلم ! »**

قال هامبتون بحرارة : « من صالح المهنة الطبية ان يحذف العلاج عن طريق الفم فى حى (الويست ايند) . خذوا مريض تشارلز مثلا .. فلو أنه وصف له المنجنيز ، أو المنجنيز

والحديد ، فان زجاجة الدواء المألوفة من قديم ، والتى تحقق الفائدة ذاتها على الارجح ، لا تعود على الطبيب بأكثر من ثلاثة جنيهات ، ولكنه بدلا من هذا ، يجزىء الدواء الى اثنتى عشرة حقنة ويظفر بخمسين جنيها ! ... عفوا يا تشارلز ، أردت أن أقول بخمسة وأربعين ! » . **فغمغم فريدمان : « يخصم منها اثنا عشر شلنا ، ثمن الحقنة ! »**

ودار رأس اندرو . فان هذه الحجة التى سيقت لتأييد الغاء زجاجة الدواء قد أذهلته وصدمت مشاعره . ولكى يزيل هذا الدوار ، ابتلع جرعة من كأسه ، بينما قال فريدمان : « هذه نقطة أخرى . ان المريضات لا يعرفن كم هى رخيصة هذه الادوية . فما أن ترى الواحدة منهن على مكتبك صفا من الحقن ، حتى تتساءل نفورها : « يا الهى ، ترى كم سيكون على أن أدفع ؟! » . قال هامبتون وهو يغمز بعينه لاندرو : « الا تلاحظون أن فريدمان لا يتحدث عادة الا عن المرضى الاناث ؟ ! .. وبهذه المناسبة يا بول ، سمعت أمس عن هذا المشروع الشهير . ان « دميت » على استعداد لتكوين نقابة ، اذا انضممنا ــ انت وتشارلز وأنا ــ اليه ! »

وتحدثوا بعد هذا عشر دقائق فى الصيد والجولف ــ الذى كانوا يلعبونه على ملاعب مختلفة ، مبهظة ، فى ضواحى لندن ــ كما تحدثوا فى السيارات ، فقد كان ايفورى يستصنع « شاسيه » سيارة خاصة لنفسه ، وفقا لمواصفات معينة .. وكان أندرو ــ طيلة هذا الحديث ــ يدخن سيجاره ويحتسى شرابه .. وكانوا جميعا يشربون بنهم ، فلم يلبث أندرو ان وجدهم ــ وقد بدأت الخمر تلعب برأسه ــ رفاقا طيبين للغاية ، اذ كانوا يحرصون على أن لا يدعوه خارج نطاق حديثهم ، بل كانوا يشركونه ــ بلا انقطاع ــ بكلمة أو نظرة .. **حتى اذا نهضوا أخيرا ، ربت ايفورى كتفه ، قائلا : « لابد من**

أن أرسل اليك بطاقتى يا مانســون ، وسيسرنى كثيرا أن أفحص معك أحد المرضى ، يوما ما ! »

وبدا جو السهرة ـ حينما عادوا الى الصالون ـ مصطنعا، متكلفا ، على خلاف ما كان حتى هـذه اللحظة . بيـد أن فريدى ـ وقد صفا مزاجه ، وبدا أكثر اشراقا من أى وقت آخر ـ وضع يديه فى جيبيه ، وقال : « ان السهرة لم تبلغ بعدغايتها ، ولابدمن مواصلتها حتى تمامها فى الايمبسى ..!». فقالت كريستين ، وهى تلقى على اندرو نظرة وجلة : « احسب أنه ينبغى لنا أن نعود الى دارنا » . فقال أندرو مبتسما : « أية فكرة هـذه يا عزيزتى ، لا يخلق بنا أن يفسـد صحبه أصدقائنا ! »

وبدا فريدى فى « الايمبسى » مرموقا بشكل واضح ، فقد اقتيد هو وجماعته ـ بين التحيات والابتسامات ـ الى مائدة بجانب الحائط . وشربوا مزيدا من الشمبانيا ، ثم رقصوا . وقال أندرو فى نفسه : « لكم يستمتع هؤلاء الرفاق بالحياة .. آه ، ما أعذب اللحن الذى يعزف فى هذه اللحظة !.. ترى هل ترغب كريستين فى الرقص ؟ »

***

وما أن احتوتهما سيارة الاجرة بعد حين ، فى طريقهما الى (تشيسبورو تيراس) ، حتى صاح اندرو مبتهجا : « يالهم من زملاء مدهشين .. لقد كانت سهرة ممتعة ، أليس كذلك يا كريس ؟ » . فقالت بصـوت هادىء ، واهن : « بل لقـد كانت سهرة بغيضة ! » .

فهتف : « ماذا ؟ » .

ـ اننى يا أندرو أحب دينى وهـوب كثيرا ، كزميلين وصديقين . أما هؤلاء .. هؤلاء الرجال المستهترون .. !

فقاطعها : « ماذا بك يا كريس ؟.. ما الذى تأخذينه عليهم ؟ » . فأجابت فى غضب بارد : « أوه ! كأنى بك لم تر شيئا ؟.. لم يرقنى شىء البتة .. العشاء ، والاثاث ، وأحاديثهم .. المال ، المال .. طيلة الوقت . الارجح انك لم تر كيف كن ينظرن الى ثوبى ، وعلى الاخص مسز هامبتون .. كان بوسعك أن ترى انها قد تبينت أن ما تنفقه على زينتها فى مرة واحدة ، يفوق ما تنفقه أنا على ملابسى فى عام كامل . وكان منظرها فى الصالون — حينما بدت لها رقة حالى — عجيبا !.. انها طبعا ابنة هويتن .. هويتن ملك الويسكى !.. انك لا تتصور كيف كان الحديث قبل أن تعودوا الى الصالون .. كان حديث علية القوم : أين تقضى نهاية الاسبوع ، وحكايات « الكوافير » ، وآخر عملية اجهاض لكوكب من كواكب المجتمع !.. لم تكن ثمة كلمة واحدة فى موضوع جدى ! » وكانت كريستين تتكلم بسخرية لاذعة ، فعزا أندرو ذلك الى الغيرة ، وغمغم قائلا : « لسوف اكسب لك مالا يا كريس ، وسأشترى لك العديد من ثياب السهرة ! »

فقالت فى سخط : « لست فى حاجة الى مال ، بل أننى أكره ثياب السهرة غالية الثمن ! » . وغمغم : « لكن يا حبيبتى .. » . وحاول أن يحتويها بين ذراعيه ، وهو ثمل ، فصاحت : « لا ! » . وبهت لصوتها وهى تستطرد قائلة : « اننى احبك يا اندرو ولكن .. وانت غير مخمور ! »

وبقى فى ركنه غاضبا ، فقد كانت هذه أول مرة تصده فيها . وغمغم : « حسنا يا فتاتى ، ليكن ما تريدين ! »

ودفع أجر التاكسى ، ودخل المنزل أمامها ، وصعد دون أن يفوه بكلمة الى غرفة الضيوف .. كان كل شىء يبدو فى عينيه قذرا بشعا ، بعد رؤيته ذلك المسكن الفاخر الذى قضى فيه سهرته .. وكان الزر الكهربائى تالفا ، بل كانت كافة أسلاك

الدار رديئة !.. وارتمى على السرير وهو يقول لنفسه : « يالله ، سأخرج من هذا الجحر وأريها !.. سأكسب مالا كثيرا . ماذا يسع الانسان أن يفعل بدون المال ؟ » .

وكانت هذه أول مرة – منذ زواجهما – يتباعدان فيها ، فيأوى كل منهما الى غرفة غير التى ينام فيها الآخر !

— ٣ —

• كان مسلك كريستين أثناء الفطور – فى صباح اليوم التالى – يوحى بأن الحادث قد نسى تماما . وبدا لاندرو أنها كانت تجتهد فى ملاطفته بنوع خاص ، فسره هذا ، وزاده عبوسا ، اذ شاء – فى هذه المناسبة – ان يضعها فى مكانها . ومن أجل هذا تظاهر بالاستغراق فى قراءة صحيفته . بيد ان كريستين لم تلبث – حينما غمغم ببضع اجابات مقتضبة – ان أمسكت فجأة عن ملاطفته ، وانطوت على نفسها ، **وظلت جالسة الى المائدة وهى تعض على شفتيها ، دون أن تنظر اليه ، فى انتظار أن يفرغ من الافطار .** وقال لنفسه وهو ينهض ويغادر الغرفة : « يالها من شيطانة صغيرة عنيدة !.. سأريها ! »

وكان أول ما عنى به – حينما جاء الى مكتبه – ان تناول الدليل الطبى ، اذ كان متلهفا الى الحصول على معلومات أدق عن أصدقاء الامس . وقلب صفحات المجلد بسرعة ، باحثا أولا عن فريدى .. أجل ها هو ذا : « فريدريك هامبتون ، شارع (الملكة آن) ، بكالوريوس فى الطب ، وبكالوريوس فى الجراحة .. وطبيب مساعد بالعيادة الخارجية فى والثامرود »

وقطب أندرو جبينه حيرة واضطرابا . لقد تحدث فريدى فى المساء السالف طويلا عن العمل فى المستشفيات ، وقال انه ما من شىء يساعد طبيبا فى (الويست ايند) مثل هذا العمل ، فمن دواعى الثقة فى نفوس المرضى أن يعرفوا أن طبيبهم يعمل

فى أحد المستشفيات . على ان هذا ليس هو الواقع بالتأكيد .. **فان فريدى لم يكن يعمل فى مستشفى ، وانما فى مستوصف فقير .. وفى (والثامود) ، وهى ضاحية من أحدث الضواحى الناشئة .** ومع هذا فلا يمكن أن يكون هناك خطأ ، فقد كانت نسخة الدليل من طبعة ذلك العام ، وكان أندرو قد اشتراها منذ شهر واحد .

وبحث ــ بعد ذلك ــ فى تؤدة عن « ايفورى » و« فريدمان »، ثم وضع المجلد الضخم على ركبتيه ، وراح يفكر وقد داخله احساس غريب بأنه ضحية خداع .. **لقد كان بول فريدمان حاصلا كفريدى على درجة بكالوريوس فى الطب ، ولكنه لم يكن يحمل لقبه ، لانه لم يكن يعمل فى أحد المستشفيات ! ..** وايفورى ؟ .. « مستر تشارلز ايفورى » ، بشارع (تيو كافانديسن) .. **لم يكن هو الآخر ــ يحمل لقب جراح ، بل كان لقبه أدنى الالقاب جميعا وهو : عضو الكلية الملكية** .. ولم يكن يؤدى عملا من أى نوع ، فى أى مستشفى ، بل ان ماذكره الدليل الطبى عنه ، انحصر فى ايراد بعض وظائف شغلها أبان الحرب وفى مستشفيات المشوهين ، فحسب !

ونهض أندرو وهو مستغرق فى التفكير ، فأعاد الدليل الى مكانه ، ثم بدا وجهه معبرا عن قرار مباغت .. **لم يكن هناك مجال للمقارنة بين القابه والقاب زملائه المحظوظين الذين تعشى معهم بالامس .. وكان فى مقدوره أن يعمل ما يعملون بل أفضل .** وبالرغم من غضبة كريستين ، فقد صمم على النجاح كما لم يصمم فى أى وقت . ولكن ، كان عليه ــ أولا ، وقبل كل شيء ــ أن يلتحق بعمل ، لا كعمل فريدى فى (والثامود) ، أو أى عمل تافه آخر من هذا القبيل ، وانما يعمل فى أحد مستشفيات لندن ، أجل فى مستشفى حقيقى ! .. يجب أن يكون هذا هدفه المباشر .. ولكن كيف ؟

وظل ثلاثة أيام يفكر ، ثم يمم شطر سير « روبرت آبى » ..

وكان من أشق الامور عليه أن يلتمس خدمة من أحد ، لاسيما وقد استقبله « آبى » هاتفا : « آه ، ها هو ذا خبيرنا فى احصاء الاربطة ؟ .. ألا يخجلك أن تنظر الى وجها لوجه ؟ .. لقد علمت أن الدكتور بيجسبى قد أصيب بارتفاع فى ضغط الدم. هل بلغك هذا ؟ .. وماذا تبغى ؟ أجئت تريد مناقشتى فى امر ، أم تراك تطلب مقعدا فى المجلس ؟ »

ـ يالله ، لا ، يا سير روبرت .. كنت اتساءل .. اعنى .. هل فى وسعك مساعدتى يا سير روبرت فى الحصول على عمل بالعيادة الخارجية فى أحد المستشفيات ؟

ـ أوه ! ان هذا أصعب من الحصول على مقعد فى المجلس . أتعرف كم يوجد من الاطبـاء المتعطلين ، الذين يتطلعون الى العمل بدون أجر فى أحد المستشفيـات ؟ .. هـذا الى انه ينبغى لك أن تواصل أبحاثك عن الرئة . فهذا مجالك !

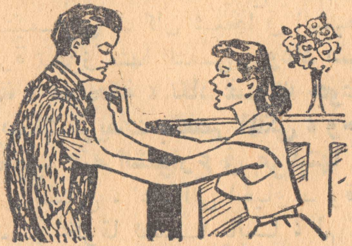
ـ لكن .. أحسب .. أحسب أن .. !

ـ مستشفى فيكتوريا لامراض الرئة . هذا مايجب التطلع اليه ، فهو من أقدم مستشفيات لندن . سأبحث الامر .. أوه ! لست أعد بشىء ، ولكننى سـأرقب الامر عن كثب .. سأرقبه بعين تنظر الى القيمة العلمية !

واستبقاه « آبى » لتناول الشاى معه . وكان من عادته أن يتناول فى مكتبه قدحين من الشاى بدون سكر ولا لبن ولا شىء يؤكل ، فى الساعة الرابعة من بعد ظهر كل يوم ، وكأنه يؤدى شعيرة من الشعائر .. وكأن له شاى خاص ، له مذاق زهر البرتقال . وراح « آبى » يتحدث بلا كلفة فى موضوعات شتى ، من عادية الى طبية . ثم قال لاندرو وهو يودعه حتى الباب : « أما تزال فى عراكك مع الكتب ؟ .. لا تكف عن هذا ، واذا الحقتك بفيكتوريا فلا تسلك سلوك الطبيب الدنيوى ! » .. ولمعت عيناه ، ومضى يقول : « ان هذا هو ما أضاعنى ! »

***

وعدا أندرو الى داره ، وهو يبنى قصورا فى الهواء . وكان مغتبطا الى حد أنه نسى الاحتفاظ بكرامته أمام كريستين ، فبادرها قائلا فى تحمس : « لقد كنت عند آبى ، وسيحاول الحاقى بمستشفى فيكتوريا ، فأصبح طبيبا فى العيادة الخارجية » . وشع الحبور فى عينى كريستين ، فأحس أندرو لهذا بشعور الخجل ، وأردف قائلا : **« لقد أصبحت ضيق الصدر فى الفترة الاخيرة يا كريس ! .. وارى اننا لم نكن على وئام تام . وأعتقد .. أواه ! يا حبيبتى ، فلننس مافات،**



أرجوك ! » . وهرولت نحوه محتجة بأن الذنب كان ذنبها هى .. وفى هذه اللحظة بدا له ــ لسبب غامض ــ انه هو المذنب ! ولم تبق فكرة السعى الى أن يضطرها الى الخجل بأن يحرز نجاحا ماديا باهرا، فى أمد وجيز ، الا فى ركن متوار من ذهنه ! وأقبل على عمله بقوة ونشاط جديدين ، وباحساس بأن امرا سعيدا لن يلبث أن يحدث .. ولم يكن ثمة شك فى أن مرضاه كانوا فى تزايد ، فى تلك الاثناء ، فكان يقول فى نفسه ان هذه الاستشارات ــ بواقع ثلاثة شلنات ونصف ــ وهذه العيادات بواقع خمسة شلنات ، ليست بالعمل الذى كان يبتغيه ، بيد أنها كانت عملا يتطلب جهدا علميا .. فقد كان الذين يجيئون اليه أو يستدعونه ، من الفقر بحيث لا يفكرون فى ازعاج الطبيب الا حينما يكونون مرضى حقيقة . ومن ثم فقد راح

يصادف « الدفتيريا » فى غرف غريبـة ، عطنة الجو ، تعلـو حظائر للخيل حولت الى أماكن للسكنى . . والحمى الروماتزمية فى أقبية الخدم .. والتهابات رئوية فى المنازل المفروشـة .. وراح يكافح المرض فى أزرى المساكن : فى غرفة يعيش فيهـا بمفرده رجل مسن أو امرأة طاعنة، نسيهما أهلهماوأصدقاؤهما، يطهوان طعامهما على موقد غازى ، مهملين ، منبـوذين ، فى أسمال بالية .. وما كانت مثل هذه الحال بالشىء النادر ، فلقد رأى والد ممثلة ذائعة الصيت ــ يلمع اسمها بحروف من نور فى شارع شافتيسبرى ــ كان شيخا فى السبعين ، مشـلولا ، يعيش فى قذارة تتقزز منها النفس . . **وعاد سيدة ارستقراطية مسنة ، نحيلة ، مضحكة ، تكاد تمـوت جوعا ، فأطلعته على صورتها فى ثوب التشريفات بالقصر الملكى ، وحدثته عن الوقت الذى كانت تجوب فيه الشوارع فى مركبتها الانيقة !** .. وفى منتصف احدى الليالى ، أعاد الى الحياة ــ وقد لام نفسه على ذلك فيما بعد ــ مخلوقا تعسـا يائسا ، لم يـكن يملك فلسا واحدا ، وقد آثر جحـره الممتلىء بالغاز الخـانق على ملجـأ للعجزة ..

وكان كثير من هذه الحالات خطيرا يتطلب جراحة سريعة ، والنقل فورا الى المستشفى ، ولكن أندرو كان يصادف أسوأ العقبات فى ادخال أحد المرضى الى المستشفى ، فان من أشق الامور حمل المستشفيـات على أن تقبل المرضى ولو كانوا فى أشد الخطر ! .. وكثيرا ماكان يستدعى لهذه الحالات ليلا . فما ان يعود منها الى داره ، مرتديا سترة ومعطفا فوق لباس نومه ، وحول رقبته ملفحة ، حتى يسرع ــ وقبعته لا تزال على رأسـه ــ الى التليفون ، فيطلب المستشفيات تباعا ، ملتمسا ، متوسلا ، متوعدا ، دون أن يلقى ــ فى أى وقت ــ سوى الرفض .. الرفض الجاف والوقح أحيانا : « الدكتور من ؟ من ؟ .. لا ، لا ، مع بالغ أسفنا ، لا يوجد مكان ! »

وكان يذهب الى كريستين ساخطا لاعنا ، ليقول : « ان الاماكن ليست مشغولة كلها ، فان لديهم أسرة كثيرة فى « سانت جون » لاطبائهم . ولكنهم يرفضون لانهم لايعرفوننى .. أليس هذا مثيرا يا كريس ؟ ان من بين مرضاى مريضة تشكو من ورم خبيث ، ولا سبيل الى الحصول على سرير لها . أوه ، هبى أن بعض هذه المستشفيات ملىء ، ولكن الباقى .. **أهذه لندن ؟ أهذا قلب الامبراطورية البريطانية الجشعة ! .. أهذا نظام مستشفياتنا ؟ ..** ومع ذلك ، فقد وقف ـ منذ أيام ـ حيوان من زعمائنا ، خطيبا فى حفل ، فأعلن انه أبدع نظام فى العالم ! .. ان معناه ان يضطر المريض التعس الى أن يلوذ بالملاجىء ، وان يملأ ما لا حصر له من « استمارات » : كم تكسب ؟ .. ما ديانتك ؟ .. هل أمك نتيجة زواج شرعى ؟ .. كل هذا والمسكين مصاب بالتهاب بريتونى . هلا تكرمت يا كريس ، وطلبت لى مكتب المساعدات الخيرية ! »

وكانت كريستين تجيبه دائما ، مهما تكن بلواه ، ومهما يكن حنقه على القذارة والبؤس : « ان عملك هذا هو العمل الطبى الصحيح ، على أية حال .. وهذا هو المهم فى رأيى ! » . **فكان يقول محنقا : « ولكن هذا لا يكفى لوقايتى من البق ! » . ثم يبادر الى الاغتسال ليتخلص من الحشرات ، فكانت كريستين تضحك ، وقد استعادت هناءها الغابر .** ومع ما لاقته من عناء شديد ، فانها استطاعت أن تنظم الدار كما كانت تشتهى .. وكانت النظافة اليومية تتعبها احيانا ، ولكن الدار ظلت ـ فى مجموعها ـ نظيفة لامعة ، ما ان تعمل فيها أصابعها وعينيها حتى تلين لها .. وأصبح لدى كريستين فرن للطهو جديد ، وأغطية للمصابيح جديدة . وكانت قد جددت حشو المقاعد ، وأصبح سياج السلم يلمع لمعان أزرار جندى من جنود الحرس .

وبعد أسابيع من المتاعب مع الخدم ، الذين كانوا يؤثرون

العمل فى « البنسيونات » — طمعا فى البقشيشات — كان من حظ كريستين أن وجدت سيدة تدعى مسز « بنيت » .. وكانت أرملة فى الاربعين ، نظيفة ، نشطة لها طفلة فى السابعة من عمرها .. ومن أجل هذه الطفلة تعذر عليها أن تجد عملا يكفل لها القوت .. وأصبحت كريستين ومسز بنيت تعملان معا فى تنظيف القبو ، فاذا به يصبح غرفة للجلوس — بها سرير مؤقت — وقد اكتست جدرانه بورق منقوش بالزهور ، وفرش بأثاث مستعمل طلته كريستين بلون الكريم بيدها .. وفى هذه الغرفة ، أحست مسز بنيت بأنها فى أمان مع الصغيرة « فلورى » ، التى أصبحت تسعى يوميا — وفى يدها حافظتها — الى مدرسة (بادنجتون) ، فلم تعد مسز بنيت تدرى كيف تعبر عن عرفانها بالجميل لما أصبحت تنعم به من أمان ورغد عيش ، بعد شهور من الضيق وعدم الاستقرار .. **وصارت يواكير أزهار الربيع — التى كانت تضفى على الصالون كثيرا من الرواء والبهجة — تعكس السعادة التى سادت دار كريستين** .. كانت كريستين تبتاع هذه الزهور ببضعة بنسات من سوق الشارع ، وهى تشترى حاجياتها فى كل صباح .. وأصبح كثير من باعة شارع (ميسلبرج) المتجولين يعرفونها ، فقد كانت تجد فى عرباتهم فاكهة ، وخضرا ، وسمكا ، رخيصة .

وكان خليقا بها ان تكون أكثر تقديرا لمركزها كزوجة طبيب . فلا تبتاع من العربات ، ولكنها كانت تضطر الى ذلك — للأسف — بل كانت كثيرا ما تحضر حاجياتها بنفسها ، فى حقيبة مشترياتها الجميلة . وكانت تقف — أثناء عودتها — لتتحدث بضع دقائق مع البدالة « سميث » ، وتبتاع منها نوعا من الجبن كان أندرو يحبه .. وكثيرا ما كانت تخرج — عصر كل يوم — لتتمشى عند شاطىء (السربنتين) .. وكانت أشجار الكستناء قد بدأت تكتسى بأولى أوراقها الخضراء ،

وراح البط يضرب بجناحيه الماء ، تثيره الريح، فكان لكريستين فى هذا ما يعوضها عن الريف الذى كانت تعبده ! .. وكان أندرو يرمقها أحيانا ـ فى الامسيات ـ بنظرة تشى بغيرة غامضة ، وتنم عن استيائه لان النهار قد انقضى دون أن يراها . ثم يسألها : « ماذا فعلت فى نهارك بينما كنت مشغولا؟ .. لو اننى اشتريت سيارة يوما ما ، فستقودينها أنت . وهكذا تضطرين الى الجلوس بجانبى ! »

***

وظل يرتقب المرضى الممتازين، غير أن أحدا منهم لم يحضر. وعيل صبره فى انتظار نبأ من « آبى » عن تعيينه ، كما ساءه ان سهرة (شارع الملكة آن) لم تجلب له شيئا مما كان يرنو اليه ، وخيل اليه انه كان منبوذا ، لانه لم ير منذ ذلك الحين « هامبتون » أو صديقيه .. **وكانت هذه حاله النفسية ، وهو فى مكتبه ذات مساء من أواخر ابريل ، حتى اذا أشرفت الساعة على التاسعة ، تأهب لغلق العيادة ، واذا شابة تدخل** .. ونظرت اليه مترددة ، وهى تقول : « لم أعرف أأدخل من هنا ، أم من الباب الكبير ؟ » . فقال مبتسما فى مرارة : « سيان .. فيما عدا أن الداخل من هنا يدفع نصف أتعاب . مما تشكين ؟ »

ـ لا يضيرنى أن أدفع أتعابا كاملة !

تقدمت متئدة ، وجلست .. وكانت ـ كما بدت له ـ فيما بين الثامنة والعشرين والثلاثين ، قوية الى حد لا بأس به ، ضخمة الساقين ، عريضة الوجه صارمته ، ليست بالجميلة ولا بالقبيحة ، ترتدى ثوبا أخضرا قاتما .. وكان النظر اليها يوحى بأنها ليست من العملاء المتعبين ، فلم يلبث ان قال : « لن نتكلم عن الاتعاب ، فحدثينى عما بك ! » . فأجابته فى رصانة ، وكأنها ترجو ان يفهمها على حقيقتها :

« ان السيدة « سميث » ، صاحبة محل الاغذية الصغير ، هى التى حفـزتنى على أن أعرض نفسى عليك يادكتـور .. فأنا أعرفها من مدة طويلة .. وانا مستخدمة فى محل « لوريه » على مقربة من هنا ، وادعى « كرامب » . **وجدير بى أن أقول لك اننى عرضت نفسى على كثير من أطباء الحى .. » .. ونزعت قفازيها ، وهى تستطرد قائلة : « أن علتى فى يدى ! »**

وفحصهما أندرو .. كانت الراحتان مكسوتين ببقع حمراء شبيهة بقروح « بسوريازى » ، وان اختلفت عنها فى أن الجلد تحتها لم يكن شمعيا . واهتم أندرو بالامر فجأة ، وتناول



منظارا مكبرا فتأمل الراحتين عن قرب ، بينما مضت الشابة تتحدث بلهجـة رصينة مقنعة : « لا يسعنى أن أبين لك كم تعوقنى هذه الحالة فى عملى .. اننى على استعداد لان أدفع أى شىء للتخلص من هـذا المرض . فلقد جـربت كل أنواع المراهم ، ولكن واحدا منها لم يؤد الى نتيجة ما ! » . فقـال أندرو وهو يعيد المنظار مكانه ، وقد أثار اهتمامه أن وجـد نفسه ازاء حالة غامضـة ، دقيقة : « هـذا صحيح .. انه يا آنسة مرض جلدى نادر ، لا يجدى معه علاج موضعى . انه ناشىء من حالة فى الدم ، والطريقة الوحيدة لشفائك منه ، هى التزام نظام غذائى خاص ! »

وقالت ، وقد بدا الشك فى ملامحها الصارمة : « بلا دواء ما ؟ ! .. ان أحداً لم يقل لى هذا قبل الآن » . فقال ضاحكا : « ها أنذا أقوله ! »

وتناول كراسة تذاكره الطبية ، فكتب لها نظاما غذائيا ، مضيفا اليه قائمة بالاغذية التى يتعين عليها الامتناع عنها تماما .. وتقبلتها منه فى شىء من التردد ، وهى تقول : « سأجرب بطبيعة الحال .. سأجرب أى شىء ! » . ودفعت له أتعابه متلكئة لحظة ، وكأنها لا تزال فى شك ، ثم انصرفت .. ونسيها أندرو على الفور ! .. ولكنها لم تلبث ان عادت اليه بعد عشرة أيام ودخلت — هذه المرة — من الباب الكبير ، فدلفت الى مكتب الاستشارات مبتهجة ، لا تقوى على كتمان شعورها .. وسألته : « هلا تفضلت ورأيت يدى يا دكتور ؟ » .. فقال مبتسما : « بالتأكيد ! .. آمل ألا تكونى نادمة على التزامك النظام الغذائى ! »

وهتفت الفتاة : « نادمة ؟ ! » . ومدت له يديها معبرة عن عميق اعترافها بحسن صنيعه ، وقالت : « أنظر ! .. لقد شفيت تماما .. ما من بقعة واحدة بقيت ! .. انك لا تدرك ماذا يعنى هذا بالنسبة لى .. اننى أعجز عن اظهاره لك . يالها من مهارة ! » . قال فى غير اكتراث : « لا مهارة هناك ، فمن واجبات مهنتى أن أعرف هذه الاشياء . هيا انطلقى ودعى القلق .. واحرصى على الامتناع عن الاطعمة التى عينتها لك ، فلا يعود المرض مرة أخرى ! » . فقالت الفتاة : « اذن ، فاسمح لى يادكتور بأن أدفع ماأنا مدينة به ! » . **فقال وقد غشيته نشوة روحية : « لقد دفعت الاتعاب من قبل ! » .. وكان على استعداد لان يتقبل بسرور بالغ ثلاثة شلنات ونصف أخرى ، بل سبعة شلنات ونصف ، ولكن اغراءا قويا راوده بأن يعزز فوزه بمنظر مسرحى ، فرفض أن تدفع له شيئا ..**

وتركته الفتاة يقودها الى الباب ، وهى تحتج قائلة : «ولكن يادكتور .. » . وتوقفت هناك تحاول اقناعه بقبول ما ارادت أن تدفعه ، ثم قالت : « حسنا ، لعلى مستطيعة التعبير لك عن عرفانى بالجميل بطريقة أخرى ! .. وتأمل وجهها المستدير الذى رفعته نحوه ، فطافت بخياله فكرة جريئة ، غير أنه اكتفى بالانحناء ، وأغلق الباب خلفها .. ونسيها فى هذه المرة كذلك .. وكان متعبا ، وقد بدأ يندم على رفضه قبول الاتعاب ، ولكنه — على أية حال — لم يكن يأمل فى أن تفعل له بائعة فى أحد المتاجر شيئا يذكر .. بيد أنه لم يكن يعرف الآنسة « كرامب » !

— ٤ —

• **كانت** « مارثا كرامب » معروفة بين شباب « لوريه » بذلك المصطلح الذى يطلق على الدفاع ، فى كرة القدم : « هافباك » . فقد كانت قوية العضلات ، لا جمال فيها ولا نزوات جنسية ، حتى لقد كان من الغريب أن توجد بين رئيسات البائعات فى هذا المتجر الفريد ، الذى كان يبيع أفخم الثياب الانيقة ، وأرقى أنواع الملابس الداخلية ، وأغلى أنواع الفراء ، مما يصل ثمنها الى مئات الجنيهات .. على أنها كانت بائعة ممتازة ، يقدرها عملاؤها أحسن تقدير . والواقع أن « لوريه » كان يفخر بأن له تنظيما خاصا ، اذ كان لكل « رئيسة » مجموعة خاصة من عملاء المتجر ، تنفرد بخدمتهم وتدرسهم ، و « تلبسهم » ، وتحتفظ لهم بنصيبهم من الواردات الجديدة . فكانت تربط البائعات بالمشتريات علاقات شخصية كثيرا ما كانت تدوم سنين عديدة .. وكان هذا النوع من العلاقات يلائم تماما طبيعة « الهافباك » ، وما فطرت عليه من اخلاص ومسلك جاد فى عملها .

وكانت هى ابنة موثق فى (كيترنج) ، اذ أن كثيرات من مستخدمات « لورييه » كن من بنات صغار أصحاب المهن الحرة فى الاقاليم أو الضواحى ، وكن يرين أن من المشرف أن يرتدين الثوب الاخضر القاتم ، وهو الزى الرسمى فى متجر « لورييه » .. ولم يكن فى ذلك المتجر أثر للعمل المرهق وسوء مستوى المعيشة اللذين تضطر عاملات المحال العادية الى احتمالهما ، بل كانت العاملات يحصلن على احسن طعام ، وعلى خير مسكن ، وعلى أكمل رعاية .. وكانت الرقابة عليهن قاصرة — فى الغالب — على مستر «وينش» — المستخدم « الذكر » الوحيد فى المحل ! — والذى كان يحمل لمس « كرامب » احتراما خاصا ، وكثيرا ما كان يتبادل معها احاديث هادئة . **وكان شيخا متورد البشرة ، ذا حدب كحدب الامهات ، وقد قضى اربعين عاما فى محيط الازياء ، ونعم ابهامه من فرك المنسوجات ، واحدودب ظهره من الانحناءات .** ومهما يكن من رعاية مستر « وينش » ، فانه كان يمثل — فى نظر من يدخل لاول مرة محل « لورييه » — « البنطلون » الوحيد الذى تطور وتغير وسط سيل عارم من الملابس النسوية الانيقة . وكان يرمق الازواج الذين يصحبون زوجاتهم لتأمل النماذج بنظرات ثاقبة ، خشية أن يكون بينهم جاسوس من « رويالتى » ، تلك المؤسسة المنافسة التى لم تكن تقل أهمية عن بيت « لورييه » !

وأحدث شفاء « مس كرامب » دهشة بين العاملات ، فكانت نتيجته المباشرة أن عددا منهن ذهبن — بدافع من الفضول — الى عيادة « أندرو » ، متذرعات بأسباب واهية ، **وان قالت كل منهن للاخرى — وهى تضحك خلسة — انها انما ارادت ان ترى « شكل طبيب الهافباك » !..** وشيئا فشيئا ، بدأت بائعات « لورييه » يترددن — فى عدد متزايد — على عيادة (تيراس تشيسبورو) . وكن جميعا مسجلات فى « التأمينات

الاجتماعيــة » ، وفقـا لما يقضى به القانون ، بيـد أنهن كن يحتقرن – فى زهو عاملات « لوريبه » ـ هذه المنظمة . وما ان اقتربت أواخر شهر مايو ، حتى أصبح من المألوف أن ترى خمسا أو ستا منهن ينتظرن فى العيادة ، أنيقات غاية الاناقة ، يحاكين عميلاتهن ، نضيرات ، ممشوقات . وكان من أثر ذلك أن زاد الدخل بنحو ملحوظ ، وأن قالت كريستين ضاحكة : « ماذا تفعل يا عزيزى بهذه الفرقة من الحسان ؟.. هل أنت واثق من انهن لم يحسبن بابك مدخلا خلفيا لمسرح ؟ »

بيد أن عرفان الجميل الذى راحت مس كرامب تبديه لفرط ابتهاجها بشفاء يديها ، لم يكن قد تجاوز بدايته . فلقد كان الدكتور « ماك لين » ـ وهـو طبيب طاعن فى السـن ، فى ميدان (رويال) ـ اشبه بطبيب رسمى لبيت لوريبه ، حتى ذلك الحـين .. فكان يستدعى فى الحالات العاجلة ، كما حدث عندما أصيبت مس « تويج » ـ التى تعمل فى ورشة الخياطة ـ بحرق خطير ، من مكواة .. على أن الدكتور ماك لين كان على وشك التقاعد ، ولم يكن مسـاعده وخليفتـه المباشر ـ الدكتور بينتون ـ مسنا ، ولا وقورا ، **فقد شوهد أكثر من مرة يطيل النظر الى السيقان الجميلة ، مبديا انعطافا زائدا نحو الفتيات ، مما كان يحمل مستر « وينش » على العبوس** . ومن ثم فانه لم يلبث أن بحث هذه المسألة مع مس كرامب خلال أحاديثهما الخاصة ـ هازا رأسه فى رصانة ، ويداه متشابكتان خلف ظهره ـ وهى تردد أن « بينتون » لم يكن يطاق ، وان فى (تيراس تشيسبورو) طبيبا آخر جادا ، متزنا ، ممتازا فى مهنته ، يكرس لها كل وقته . ولم يتقرر بينهما شىء يومئذ ، فقد كان « وينش » يعالج الامور دائمـا فى ترو ، بيد أن عينيه لمعتا متوعدتين ، وهو يندفع لاستقبال احدى الدوقات .

وفى الاسـبوع الاول من يونيـو ـ وكان اندرو قـد بدأ

يحس بالخجل لما أبداه فى بداية الامر من استهانة بمس كرامب ـ قدمت له دليلا جديدا رائعا على حسن نواياها نحوه . فقد تلقى رسالة غاية فى الرقة والوضوح ـ وقد أدرك فيما بعد أن حديثا تليفونيا كان خليقا بأن يغنى عنها ـ ترجوه فيها الحضور فى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالى ـ الثلاثاء ـ لمقابلة مس « وينيفريد ايفيريت » ، رقم ٩ (بارك جاردنز) . **فأغلق العيادة قبل الموعد ، وذهب لاداء هذه الزيارة فى تطلع متزايد ، فقد كانت هذه أول مرة يستدعى فيها خارج الحى الكئيب الذى انحصر فيه عمله ..** وكان (بارك جاردنز) مجموعة جميلة من الدور غير حديثة تماما ، وان كانت كبيرة ، مترفة ، مطلة على منظر بديع فى (هايد بارك) .. ودق جرس الباب رقم (٩) مضطربا ، قلقا ، يساوره شعور غريب بأن الحظ لن يلبث أن يبتسم له !

واستقبلته خادم مسنة .. وذكره « الصالون » الكبير ـ بما ضم من أثاث قديم الطراز ، ومن كتب وأزهار ـ بصالون مسز فوجان . وما ان استقر به المقام ، حتى أحس أن شعوره لم يخدعه .. واستدار حينما قدمت مس «ايفيريت»، فألفاها تركز عليه نظرا نافذا فاحصا .. وكانت فى نحو الخمسين ، بديعة القوام ، ذات شعر داكن ، ترتدى ثوبا محتشما ، ويحف بها جو يبعث على الطمأنينة .. وقالت له على الفور ، بصوت رصين : **« لقد فقدت طبيبى لسوء حظى ، وكنت أثق به ثقة تامة .. وقد زكتك مس كرامب لدى ، وهى فتاة عاقلة ، اعتدت أن اتبع مشورتها عن طيب خاطر . لذلك دعوتك !.. أنك حاصل على درجات علمية رفيعة »** . وتوقفت ، وأخذت تفحصه بشكل بين ملحوظ ، وتزنه من اخمص قدميه الى قمة رأسه . وكانت تبدو عليها سمات امرأة تحصل على خير غذاء ، وعلى أكمل عناية ، فهى لا تسمح

أن يمسها أصبع قبل أن تطمئن الى صاحبه !

وعادت تقول فى تحفظ : « أحسب انك تروق لى .. لقد اعتدت ان آخذ مجموعة من الحقن فى هـذا العضل ، لاننى عرضة للاصابة بزكام الصيف . وأنت بلا ريب على علم بهذه الوعـكة ! » . فأجاب : « أجـــل .. وأى نوع من الحقن تتعاطين ؟ » .. فذكرت تركيبا مشهورا وقالت : « لقد كان طبيبى يعالجنى بهـذا العقار الذى أثق فيه كل الثقة ! » . فهتف وقد تجهم وجهه : « آه ! » .. وهم بأن يقول لها أن دواء طبيبها الامين ــ الذى كانت تثق به ــ عديم الجـدوى تماما ، وان شهرته راجعة الى براعة الشركة التى تنتجه فى الاعلان عنه ، والى نقص اللقاح فى انجلترا خلال معظم شـهور الصيف . ولكنه تمالك نفسه .

ودار ــ فى أعماقه ــ صراع بين آرائه ومبادئه ، وبين الهدف الذى كان يهفو اليه .. وقال لنفسه : « لو اننى تركت هذه الفرصة تفلت بعد هذه الاشهر الطويلة ، لكنت مغفلا ! » ..
لذلك قال : « أحسب أن فى وسـعى اعطاءك هـذه الحقن ، كأى انسان آخر » . فقالت : « حسنا جدا .. بقيت مسألة الاتعاب . اننى لم ادفع للدكتور « سانكلير » ــ فى أى وقت ــ أكثر من جنيه واحد عن كل زيارة . فهل تقبل هذا الاجر ؟ »

جنيه عن كل زيارة ؟! .. انه ثلاثة أمثال أية اتعاب حصل عليها حتى الآن ! .. ثم انه ــ فوق هذا ــ منفذ الى العملاء ذوى المستوى الرفيع ، الذين كان يرنو اليهم منذ وطئت قدماه لندن ! .. وكبح ــ مرة أخرى ــ جماح مبادئه .. ماذا يهم اذا لم تأت الحقن بأية نتيجة ؟ .. هذا شأن المريضة ، وليس شأنه هو .. **لقد أعياه الفشل ، أعياه أن يكون دابة تسخر بثلاثة شلنات ونصف . انه يريد أن يتقـدم ، أن ينجح ، وسينجح .. بأى ثمن !**

وعاد اليها فى اليوم التالى ، فى الحادية عشرة تماما ، اذ كانت قد رجته - بلهجتها الصارمة - الا يتأخر عن هذا الموعد ، لانها كانت تحرص على الا يعوق نزهتها الصباحية عائق . وأعطاها الحقنة الاولى ، ثم درج على الحضور مرتين فى الاسبوع ، لمواصلة العلاج . وكان مثابرا ، حريصا على موعده الى درجة لم تكن تخطر ببالها . وكان من الطريف أن ترى كيف أخذت تتبسط معه فى الحديث شيئا فشيئا ، فقد كانت « وينيفريد ايفيريت » فذة فى نوعها ، ذات شخصية لامرية فيها .. ومع أنها كانت ثرية - اذ كانت ابنة احد كبار صناع السكاكين فى شيفلد - وكانت تستثمر ما ورثته فى سندات حكومية مضمونة ، الا انها ظلت تجتهد فى أن تحصل على أكبر كسب ممكن ، بأقل مشقة ممكنة .. لا عن شح ، وانما بدافع نوع من أنانية امتازت بها .. فكانت تجعل من نفسها مركز دنياها الخاصة ، فتعنى كل العناية بصحتها وبجسمها - الذى ظل جميلا أبيض - وتتبع كل أنواع العلاج التى تراها ذات فائدة له . وكانت حريصة على أن يكون كل ما تقتنيه أجمل ما يقتنى ، فكانت تأكل باعتدال ، ولكنها لم تكن تأكل سوى أرقى الاطعمة . وحينما قدمت له - على سبيل المجاملة ، أثناء الزيارة السادسة - قدحا من شراب نادر ، لحظ أنه من « المونتيلادو » ، وأنه معتق من عام ١٩١٩ .. وكانت تبتاع ثيابها من « لوربيه » ، كما ان أغطية فراشها كانت أرقى نوع رآه « أندرو » . **على انها - مع هذا - لم تكن تنفق بنسا واحدا فى غير موضعه .. حتى لقد كان من المستحيل على أندرو أن يتصور انها قد تعطى سائق « تاكسى » بنسا واحدا ، دون أن تتأمل العداد بعينيها !**

وكان قمينا بأن يكرهها ، ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، اذ ان أنانيتها كانت قد تأصلت الى حد انها غدت فلسفة ..

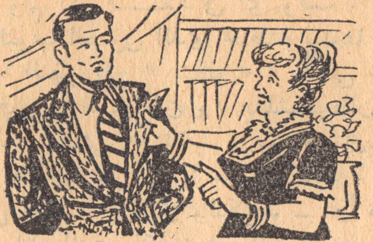
وكانت ــ فوق ذلك ــ قد أوتيت حساسية مرهفة للغاية ، فكانت تذكره بصورة زيتية هولندية قديمة ، لرجل يدعى « تيربرح » ، كان قد رآها يوما مع كريستين .. فلقد كانت طلعتها عين الطلعة المهيبة التى أوتيها هذا الرجل ، وبشرتها نفس بشرته الرقيقة الناعمة ، وفمها نفس فمه الذى ينم عن حب للهو ، رغم شكله الصارم !

***

وما أن رأت أنه يروق لهـا ــ على حـد تعبيرها ــ حتى خرجت عن كثير من تحفظها . وكان من القوانين غير المكتوبة لديها ، ان لا تقل زيارة الطبيب عن عشرين دقيقة ، والا فهى لا تستوفى حقها . بيد أنها اطالت هـذه الفترة الى نصف الساعة ، قبل أن ينتهى الشهر الاول .. وكانا يتحادثان معا ، فأفضى اليها برغبته فى النجاح ، وباركت هذه الرغبة . وكانت موضوعات حديثها محدودة ، بيد أن نطاق صلاتها لم يكن محدودا ، وكان معظم حديثها يدور حـول هذه الصلات . فكثيرا ما حدثته عن ابنة أخيها السيدة « كاترين ستون » التى كانت تقيم فى (دير بيشير) ، ولكنها كثيرة التردد على لندن ، لان زوجها ــ الكابتن ستون ــ كان عضوا فى البرلمان ، عن دائرة (بارنويل) . وقد قالت له يوما فى لهجة هادئة :

« لقد كان الدكتور سنكلير هو الذى يتولى علاجهما ، ولا أدرى لماذا لا تحل انت محله ؟ »

وفى زيارته الاخيرة ، قدمت له قدحا من شراب «المونتيلادو» ، وقالت له فى عذوبة بالغة : « انني افزع من المطالبات ، فاسمح لى بأن اعطيك اتعابك فورا » . وقدمت له شيكا باثني عشر جنيها ، ثم أردفت : « لا شك فى اننى سأحتاج اليك مرةأخرى فى وقت قريب ، فأنا أعالج وقائيا فى الشتاء ضد زكام



الصيف ! » .. ورافقته حتى باب المسكن ، حيث وقفت لحظة ، وقد أضاءت وجهها اشراقة تكاد – لاول مرة – تشبه الابتسامة . على أن هذه الاشراقة سرعان ما اختفت ، وقالت له وهى ترمقه بنظرة لوم : « هل لك فى نصيحة من امرأة فى سن أمك ؟ .. **اذهب الى خياط ، الى « روجرز » – خياط الكابتن ستون – بشارع (كوندويت) . لقد حدثتنى عن مدى رغبتك فى النجاح ، ولن تبلغ هدفك هذا طالما كنت ترتدى مثل هذه الملابس ! »**

وسار فى الشارع ساخطا عليها ، غاضبا ، مقطب الجبين ، ثائرا كعادته . يالها من امرأة سليطة تتدخل فى شؤونه ! .. أهذا يعنيها ؟ بأى حق تنصحه بما ينبغى أن يكون عليه ملبسه ؟ أتحسبه فروا من فرائها ؟ .. انها لاهانة جسيمة أن تخرج بهذا النحو على المتعارف المألوف ! .. صحيح ان مرضاه فى بادنجتون لا يدفعون له سوى ثلاثة شلنات ونصف ، ولكنهم لا يطالبونه بأن يكون نموذجا خشبيا فى متجر خياط ! .. لسوف يقنع بهم منذ الآن ويحتفظ باستقلاله !

على أن غيظه لم يلبث أن تلاشى .. والواقع أنه لم يكن قد عنى من قبل بهندامه ، فكانت اية بذلة جاهزة تكفيه وتشعره بالدفء ، وان لم يبد بها أنيقا . وكذلك كريستين فانها وان كانت حريصة على أناقتها ، الا انها لم تكن تهتم كثيرا

بأمر ثيابها . ولم تكن تسعد فى أى وقت ، سعادتها حين ترتدى ذلك الثوب الصوفى الذى خاطته بيدها .. وراح يتأمل نفسه ، مدققا النظر الى « بنطلونه » البالى ، يعلو الوحل أسفله . ثم قال فى استهجان : « ياللشيطان ، انها محقة تماما !.. كيف يمكنني اجتذاب مرضى ممتازين ، بمثل هذه الملابس ؟.. لماذا لم تقل لى كريستين ذلك ؟.. كان عليها — وليس على هذه العجوز وينفريد — أن تقوله لى !.. ما اسم الخياط الذى ذكرته لى ؟.. روجرز ، بشارع كندويت . ما ضر لو ذهبت اليه ؟ »

وحينما عاد الى داره ، كان قد استعاد صفاء مزاجه ، فقال وهو يضع الشيك تحت أنف كريستين : « تأملى هذا يا زوجتى الطيبة !.. أتذكرين يوم أن أسرعت اليك من العيادة ومعى ثلاثة شلنات ونصف حقيرة ... أجل ، هكذا أنعتها الآن !.. هذه هى النقود حقا ، هذه هى الاتعاب الحقيقية ، التى تليق بدكتوراه فى الطب ، والزمالة فى كلية الطب الملكية ، من الدرجة الاولى ! .. **اثنا عشر جنيها ، مقابل التلطف فى مسامرة تلك الحشرة « وينى » ، واعطائها حقنة ابتون جليكرت ! »** .. فسألته كريستين مبتسمة : « ما هذا ؟ » . ثم راودها الشك فجأة ، فهتفت : « أليس هذا هو المسلك الذى كثيرا ما تزدريه ؟ »

وأربد وجهه ، ونظر اليها مغيظا ، عاجزا تماما عن الاجابة بشىء . وما ان فاهت بهذه الكلمة حتى عزف عن الاستماع اليها ، واستبد به الحنق ، لا على نفسه بل عليها .. وغادر الحجرة وهو يهتف محنقا : « ويلك يا كريس ! .. أنت أبدا غير راضية ! » . وصفق الباب خلفه بشدة ! .. وظل طوال بقية النهار معكر المزاج .. بيد انه لم يلبث أن يمم شطر الحائك « روجرز » ، وقد سرى عنه بعض غيظه !

انتهى الجزء الثانى ، وقد تطورت أحداث القصة ، وبدأت عناصرها تتبلور .. وفى الجزء الثالث والاخير ، تبدو حبكتها القوية ، وتتوالى أعنف أحداثها واشدها تأثيرا على القلوب ، فنرى كيف جرف التيار الطبيب الشاب الطموح ، فتنكر لمبادئه ، وتنكر لزوجته ، حتى اذا بلغ شفا الهاوية ..؟!

اننا لن نسبق الاحداث فنكشف لك النهاية ، فلندعك تكتشفها بنفسك وأنت تخوض المآسى مع ((اندرو مانسون)) و ((كريستين)) ، لتخرج بالدرس الرائع الذى ينقله لك الدكتور ((أ . ج . كرونين)) من أعماق تجاربه الشخصية .

وكما وعدنا من قبل ، سيسترسل ترقيم الصفحات متسلسلا ، بحيث يمكن نزع هذه الورقة ، والورقات الثلاث التى يبدأ بها الجزء الثالث ، اذا أريد تجليد القصة كلها فى مجلد واحد

كتابى يقفز قفزته الضخمة

فيستهل عامه الثامن بعدد ممتاز فاخر يتفوق على جميع أعداده السابقة.
زيادة فى الصفحات ـ أبواب جديدة
أقلام جديدة ـ طباعة جديدة ..
ويخطو خطوة جديدة فى خدمة الثقافة ، فيفسح صدره وصفحاته للباب الذى يتطلع اليه القارىء العربى منذ زمن طويل :

النقد الأدبى

للكتب العربية الحديثة ، القصصية وغير القصصية ، وفيه يتابع كبار النقاد ـ بالتحليل والنقد النزيه ـ أحدث ثمرات المطابع من الانتاج الأدبى فى جميع البلاد العربية ..

أدب السينما والمسرح

.. كما يفسح « كتابى » صفحاته لكاتب كبير ينقد لك الانتاج السينمائى والمسرحى والفنى ، العربى والأجنبى ، بصراحة ونزاهة مجردة من جميع الاعتبارات والأهواء !

ميزان أمين يرفعه « كتابى » فى العالم العربى للانتاج الأدبى والفنى .. ليساهم به فى خدمة الثقافة ، على نسق كبريات المجلات الأدبية العريقة فى فرنسا وانجلترا .

وعلاوة على هذه الأبواب يقدم لك كتابى :

اقرأ معى

« مجلة » جديدة يضيفها الى صفحاته ، يقدم لك فيها مقتطفات سريعة من أمتع المواد الثقافية التى تنشرها صحف العالم ومجلاته وكتبه ، أولا بأول.

وأبواب أخرى جديدة

يفاجئك بها العدد القادم من كتابى ، فى مستهل العام الثامن من كفاحه الأدبى .

بالاضافة الى « جميع » أبواب كتابى المألوفة التى تعشقها .
عدد ممتاز فاخر ـ ٣٢ صفحة اضافية

الثمن ١٢ قرشا

مطابع دار الكتاب العربى بالقاهرة

القلعة

(الجزء الثانى)



عندما كتب الدكتور "كرونين" هذه القصة، لم يكن يحلم بأنه إنما كان يلقى قنبلة جبارة، هزت الأوساط الطبية فى انجلترا.. بل فى العالم الغربى بأكمله. ففى حرارة مستمدة من التجربة، ومن الألم، ومن الإخلاص، وصف المعارك التى يضطر كل طبيب شاب إلى أن يخوضها فى مستهل حياته العملية: معركة ضد المرض وجهل المريض.. ومعركة ضد أطباء جعلوا المهنة مجرد "روتين" آلى يدر عليهم رزقا.. ومعركة ضد أطباء احتكروا المناصب والموارد، لايسمحون للناشئين بغير الفتات.. ومعركة ضد مجتمع يسوده الزيف، والنفاق، والخداع.. ومعركة بين نفسه وضميره!

وفى هذا الجزء الثانى من القصة الجبارة، نخوض مع الدكتور "مانسون" خضم الأحداث والمآسى والدسائس التى تعرض لها.. ونعانى معه قوة الانفعالات التى كانت تضطرم فى فؤاده وهو موزع بين الخير والشر، وبين الفضائل والرذائل وبين المثل العليا والواقع المادى المثقل بالأنانية والجشع والغيرة والحسد..

إنها وقائع مشحونة بالانفعالات العاطفية، والتحليلات الجبارة التى تهز القلوب، وتوقظ الضمير.

إنها قصة لكل طبيب.. ولكل إنسان!

يصدرها حلمى مراد

مطبوعات كتابى

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

شركة فن الطباعات ٥٨١٤٩